رواية

2020
7.1.2020

كتاب الشهادة

جون بانفيل

ترجمة يوسف رخا

جون بانفيل

كتاب الشهادة

(رواية)

ترجمة يوسف رخا

كتاب الشهادة

هـذا الكـتـاب بدعـم مـن:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

كتاب الشهادة

تأليف: جون بانفيل

ترجمة: يوسف رخا

تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-39-153-1

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-0924182

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Book of Evidence
Copyright © 1989 by John Banville

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

–1–

سيدي، حين تطلب مني أن أحكي للمَحكمة بطريقتي، هذا ما سوف أقوله. إني هنا مُقفَلٌ عليّ مثل حيوان غريب، آخِر الناجين من فصيلة ظنّوها انقرضت. ينبغي أن يُدخِلوا الناس لتتفرّج علي: آكِل البنات الأهيَف الخَطِر، أتبختر جيئة وذهابًا في قفصي ونظرتي الخضراء تُلعلع عبر القضبان، تمنحهم شيئًا يحلمون به وهم متدثّرون في أسِرّتهم ذات ليل. بعد الإمساك بي، كانوا يَخمشون بعضهم بعضًا ليتمكنوا من النظر إلي. كانوا ليدفعوا النقود من أجل هذا الامتياز في اعتقادي. لقد صاحوا بالسباب ولوّحوا لي بقبضاتهم، مُكشّرين عن أسنانهم. كان منظرهم هناك كأنّه حلم بشكل ما، مخيفًا ولكنْ كوميديًا، وهم يتسكّعون على الرصيف مثل الكومبارس: شباب في معاطف مطر رخيصة ونساء بأكياس تَسَوُّق، ثم شخصية أو اثنتان من النوع الصامت الأشيب، تقفان ثابتتين تتطلعان إليّ بجوع وقد أنهكهما الحَسَد... حتى ألقى أحد العساكر على رأسي بَطّانية وحشرني في سيارة الشرطة. ضحكتُ. ثمّة ما يُضحِك بشكل لا يُقاوَم في أن يكون الواقع بكل تفاهته حقّق لي أبشع خيالاتي فعلًا.

بالنسبة إلى تلك البطانية، بالمناسبة: هل جاءوا بها خصّيصًا أم أنهم دائمًا ما يحتفظون بواحدة في المتناول داخل صندوق السيارة؟ تؤرّقني أسئلة كهذه الآن، أتأملها بكآبة. وكم كان منظري مثيرًا لِمَن لمحَني

هناك، جالسًا في المقعد الخلفيّ كمومياء فيما والسيارة تُسرع عبر الشوارع البليلة المُشمسة، تثغو بوقار.

ثم هذا المكان. أول ما انطبع في ذهني هو الضجيج. جلبة فظيعة، زعيق وصفير، نوبات ضحك، مشاجرات، نهنهة. لكنّ هناك لحظات سكون أيضًا، وكأن خوفًا عظيمًا أو حزنًا عظيمًا قد هبط علينا فجأة فأصابنا بالخَرَس. يقف الهواء دون حراك في الممرات، كالمياه الراكدة. تخالطه من بعيد وبشكل خافت الرائحة الكريهة لـ "الفينيك"، لسان حال المشرحة. في البداية حسبتُها أنا، أقصد أني حسبت تلك الرائحة رائحتي، مساهمةً مني في المكان. ولعلها كذلك فعلًا؟ ضوء النهار أيضًا غريب، حتى في الخارج، في الفناء. وكأنّ شيئًا حَصَلَ له، وكأن شيئًا فُعِل به قبل أن يُسمح له ببلوغنا. له نزعة حمضية كالليمون، ويتراوح بين كثافتين: إما لا يكون كافيًا للرؤية أو أنه يحرق البصر. لن أتكلم عن أنواع الظلام المختلفة.

زنزانتي. زنزانتي تكون. ولماذا أستمر في ذلك.

المحبوسون احتياطيًا تُخصَّص لهم أفضل الزنزانات. وهذا ما يجب أن تكون عليه الحال. فأنا قد أُبرَّأ رغم كل شيء. آه، لا يجب أن أضحك، الضحك يوجع أكثر من اللازم، يصيبني وخز فظيع وكأن شيئًا ضاغطٌ على قلبي – لعل ذلك حِمل جُرمي. عندي طاولة وما يسمّونه كرسي استرخاء. هناك حتى جهاز تلفاز، مع أني نادرًا ما أشاهده الآن وقد صارت قضيتي منظورة فلم يعد يُذاع عني شيء في الأخبار. ليست المرافق الصحية على أفضل ما يكون. إنها تُسرِّب: ما أوقعها، هذه الألفاظ. لابد أن أرى ما إذا كان يمكنني الحصول على غلام مأبون، أم أني أقصد "غلام مأمون"؟ شاب صغير رشيق وجاهز، لا يكون مبالِغًا في متطلباته. لا

أتوقع أن يكون هذا صعبًا. لابد أن أرى إذا ما كان يمكنني الحصول على معجم أيضًا.

الأهم من كل شيء إني أعترض على سواد رائحة المني. المكان يفوح بها.

أعترف أنه كانت لدي توقعات رومانسية إلى حد ميئوس منه عمّا ستكون عليه الأشياء هنا. بشكل ما رأيتُني شخصية عامة، معزولًا عن بقية المساجين في جناح خاص أستقبل فيه وفودًا من الزوار المهمين الوقورين وأخطب فيهم عن أهم قضايا اليوم فأُبهر الرجال وأَسحر النساء. يا لها من بصيرة – يصيحون – يا لها من سِعة أفق! لقد قيل لنا إنك وحش قاسٍ ذو دم بارد، لكننا رأيناك، لكننا سمعناك، عجبًا... وها أنا أتخذ وضعًا أنيقًا وقد ارتفع "بروفيَل" وجهي الصوفي إلى ضوء الشباك ذي القضبان، أعبث بمنديل معطَّر وأتكلّف ابتسامة واهنة: "جان-جاك"[1]، القاتل المثقّف.

ليس هكذا، ليس هكذا مُطلقًا. لكنْ ولا هو كالكليشيهات الأخرى. فأين أعمال الشغب في قاعة الطعام وأين عمليات الفرار الجماعي المألوفة عبر الشاشة الفضية؟ ماذا عن مشهد باحة التمرين حيث يُقضَى على "العصفورة" بمطواة بينما يتظاهر اثنان من أصحاب الذقون النابتة ذوي الوزن الثقيل بالتقاتل على سبيل التمويه؟ ومتى تبدأ الاغتصابات الجماعية؟ الحقيقة هي أن هنا/الداخل مثل هناك/الخارج تمامًا، إن لم يكن يزيد عليه. فنحن مهووسون بالراحة الجسدية. التدفئة في المكان دائمًا أعلى من اللازم، يمكن أن نكون في حضّانة، ومع ذلك لا تكف الشكاوى من تيارات الهواء ونوبات القشعريرة والأقدام المتجمّدة في الليل. الطعام هو الآخر محطّ اهتمام. نُدقّق في صحون

عصيدتنا. نتشممها ونتنهد وكأننا في مؤتمر لمتذوقي الطعام. حين يصل طرد جديد ينتشر الخبر كحريق في غابة. "بسست! أرسلتْ له كعكة (باتنبرغ)[2]! خبيز بيتي!" فعلًا بالضبط كأنها مدرسة داخلية، ذلك الخليط من التعاسة والحميمية، الشوق المُخَدَّر والضجة، وفي كل مكان دائمًا ذلك الجو الذكوري الخاص، بلونه الرمادي ودفئه ورائحته الكريهة.

يقولون لي إن الوضع كان مختلفًا أيام كان السياسيون هنا. فقد كانوا يذرَعون الممرات جيئة وذهابًا بالخطوة العسكرية وأيديهم وراء ظهورهم، ينبح بعضهم في بعض بلغة أيرلندية ركيكة فيثيرون الكثير من المرح وَسْطَ المجرمين العاديين. لكنْ فيما بعدُ أضربوا عن الطعام أو فعلوا شيئًا، كلهم معًا، نُقِلوا على إثره إلى مكان خاص بهم. وعادت الحياة إلى طبيعتها.

لماذا نحن راضخون إلى هذا الحد؟ هل هي الأشياء التي يُقال إنهم يضعونها لنا في الشاي لتُخمِد الغريزة الجنسية، أم أنها المخدرات؟ أعرف يا حضرةَ القاضي: لا أحد، ولا حتى النيابة، يحب مَن يُخبِر عن زملائه، لكني أظنه واجبي أن أُعلِم المحكمة بأن ثمة تجارة ممنوعات نشِطة دائرة داخل المؤسسة. ثمّة "صواميل" – أقصد سجّانين – ضالعون فيها، يمكنني توفير أرقامهم إذا ما ضمنتم لي الحماية. يمكن الحصول على أي شيء، المنشطات والمثبطات، مهدئات، "بيسة"، "كراك"[3]، كل ما يخطر لك... مع أن مثل هذه الألفاظ الآتية من قاع القاع لا يُرجّح أن تخطر لسيادتكم طبعًا، وحتى أنا لم أتعلمها إلى أن جئتُ إلى هنا. كما يمكنكم أن تتخيلوا، إن أغلب مَن يمتثلون للغواية من الشباب. يتعرّف الواحد إليهم وهم يتخبطون عبر المداخل كالسائرين نيامًا بابتسامة اللهفة الصغيرة المصدومة، تلك التي لا تصدر إلا عن المُرْهَقين

للغاية. ومع ذلك فإن بينهم من لا يبتسم، من يبدو بحق أنه لن يبتسم ثانيةً أبدًا. هؤلاء هم الضائعون، المنتهية قصتهم. يقفون محملقين في لا شيء بتعبير فارغ ومشغول البال، مثلما تُشيح الحيوانات الجريحة بنظرها عنّا بكماءَ، وكأننا بالنسبة إليها مجرد أشباح وهي تتألم في عالم غير عالمنا.

لكنْ لا، ليست المخدّرات هي السبب. لقد فقدْنا شيئًا جوهريًا، ضُربنا حتى خرج الحشو منا. لم نعد بعد الآن رجالًا بالضبط. ثمّة عجائز "رَدّ سجون" ممن ارتكبوا جرائم باهرة بالفعل تجدهم في أنحاء المكان يتهادون كالأرامل، شاحبين، ناعمين بصدور كالحمام وأرداف ضخمة. إنهم يتشاجرون على كتب المكتبة، حتى أن بعضهم يمارس "التريكو". للصغار هواياتهم أيضًا، يدانونني في حجرة الترفيه وعيونهم الواسعة مترعة، وبحياء يَعرضون عليّ عمل أيديهم. إذا اضطُررت لإبداء إعجابي بسفينة واحدة أخرى في قارورة فسوف أصرخ. ومع ذلك، كم هم حزانى وحساسّون قُطّاع الطرق والمغتصبون هؤلاء، قاتلو الرُضّع. حين أفكر فيهم –لا أعرف لماذا – دائمًا ما تراودني صورة شريط العشب غير المُقلّم والشجرة الواحدة اللذين يمكنني أن ألمحهما من شباكي لو ضغطتُ خدي في القضبان وتطلعت إلى أسفل بزاوية مائلة عبر الأسلاك والحائط.

قف من فضلك، ضع يدك هنا وانطق اسمك بوضوح. "فردريك تشارلز سانت جون فانردفلد منونتغومري". هل تقسم أن تقول الحق، كل الحق ولا شيء إلا الحق؟ لا تجعلني أضحك. أريد – أول شيء – أن أنادي شاهدي الأول. زوجتي. دافني[4]. نعم. كان هذا ولا يزال اسمها.

لسبب ما كان الناس دائمًا يجدون فيه درجة طفيفة من الكوميديا. أعتقد أنه يليق إلى حد بعيد بجمالها البليل الداكن، قصير النظر. أراها، سيدة أكاليل الغار التي لي، تضطجع في أرض فضاء وسْط غابة، أرض دوّختْها الشمس، وهي منزعجة قليلًا، تدير وجهها مع عبسة خفيفة وقد أخذ إله ثانوي على هيئة ظبي صغير، ومعه مزمار، يطفر ويثب عازفًا شِغافَ قلبه لها... دون فائدة. إن ذلك المزاج الذاهل، المستاء نوعًا ما هو ما جذب انتباهي إليها. لم تكن لطيفة، لم تكن طيبة. تُناسِبُني. ربما كنت أفكر منذ ذلك الحين في وقت سأحتاج فيه إلى أن يغفر لي أحد، أي أحد، ومَن أقْدَر على ذلك من شخص ينتمي إلى فصيلتي؟

حين أقول إنها لم تكن طيبة لا أقصد أنها كانت شريرة أو فاسدة. إن عيوبها لا تُذكر مقارنة بالشروخ الحادة التي تقطع روحي بالعرض. فأقصى ما يمكن أن يتّهمها الواحد به هو ضَرْب من الكَسَل الأخلاقيّ. ثمّة أشياء لم تكن تُكلّف نفْسها القيام بها مهما كان حس الالتزام ليدفع بتلك الأشياء في وجه تركيزها المتآكِل. لقد أهملتْ وَلَدَنا، ليس لأنها لا تحبّه– بطريقتها – ولكنْ لأنّ احتياجاته لا تجذب انتباهها. وكثيرًا ما كنت أضبطها جالسة على كرسي تتطلع إليه وفي عينيها تعبير مَن ينظر إلى شيء من بعيد، وكأنّها تحاول أن تتذكّر مَن أو ماذا يكون بالضبط، وكيف انتهى به الأمر هنا قرب قدميها يتدحرج على الأرض في وَسَخِه، وما أكثر ما كان يوسّخ نفْسه. دافني – ناديتُ متذمّرًا – بحق المسيح! فما كان منها على الأغلب إلا أن تطلعتْ إليّ بنفس الطريقة، تلك النظرة الفارغة التي يستوقفك شرودها.

يبدو أني غير قادر على الحديث عنها إلا بصيغة الماضي، هذا ما ألاحظه الآن. لكنها كثيرًا ما تزورني. حين جاءت أول مرة سألتُ كيف هي

الحياة هنا، وجاوبتُها: يا الله، الضجة! الناس! فأومأتْ برفق وأعطتني ابتسامة شاحبة ثم تطلعت حولها دون هدف ناظرة إلى الزوار الآخرين. كلانا كما ترى يَفهم الآخر.

في المناخات الجنوبية كان كسلها يتحوّل إلى ضرب من التراخي الشهواني. هناك غرفة بعينها أتذكرها، فيها سُدُل خضراء وسَرير ضيق وكرسي مثل كرسي فان غوخ، وثمة ظهيرة متوسّطية تَنبض في الخارج عبر الشوارع البيضاء. "إيبيزا"؟ "إيشيا"؟ ربما "ميكونوس"؟ دائمًا جزيرة، دوّن ذلك يا كاتبَ المحكمة رجاء، فقد يكون له معنى. كانت دافني قادرة على التخلّص من ملابسها بسرعة سِحرية، فقط تَنفض كتفيها بطريقة ما، وكأن التنّورة والبلوزة والسروال الداخلي كلها قطعة واحدة. إنها امرأة جسيمة، ليست سمينة أو ثقيلة لكنّ لها وزنها رغم كل شيء، لها تَوَازُنها الفاتن. فكلما أبصرتُها عارية أردتُ أن أتحسّسها كما كنت لأريد أن أتحسّس قطعة نَحْت: أن أحمل المنعطفات في تجويف يديّ، أمرّر إبهامًا على الخطوط الطويلة الليّنة، أن أشعر ببرودة الحجر وملمسه المخملي. امحُ الجُملة الأخيرة هذه يا كاتبُ، ستعطي انطباعًا بأنها تعني أكثر مما تعنيه في الحقيقة.

تلك الظهائر الحارقة، في هذه الغرفة أو غرف أخرى مثلها دون عدد... يا ربي، أرتعد وأنا أفكر فيها الآن. لم يكن باستطاعتي أن أقاوم تَعَرّيها اللامبالي، ثقل وكثافة ذلك اللحم الوامض. كانت ترقد جنبي، دنيا كاملة مجرّدة ترنو عبري إلى السقف التائه في الظلال أو شقّ الضوء الأبيض الحارّ بين ضلفتي السُّدُل الشاشيّة، حتى أستطيع أخيرًا – لا أعرف كيف بالضبط – أن ألمِس عصبًا سريًّا فيها، وإذّاك تلتفت إليّ بتركيز، بسرعة. تُطلق أنّة وتتشبث بي وكأنّها تقع، فمها عند رقبتي وعلى

ظهري أطراف أصابعها الأشبه بأطراف أصابع رَجُل أعمى. دائمًا ما كانت تترك عينيها مفتوحتين، فتَشرُد نظرتهما المُطفأة الليّنة الرمادية عاجِزةً وتَجفِل تحت وطْأة الأذى الرقيق الذي أُنزِله بها. لا يسعني التعبير عن مدى ما كانت تُهيّجني النظرة المُتألّمة العزلاء تلك التي لا تُشْبِهُهَا في أي وقت آخر. كنت أتحايل على أن أجعلها تلبَس نظّارتها ونحن في السرير هكذا حتى تبدو أكثر ضياعًا وحَيرة، لكني لم أُفلح أبدًا مهما استعملتُ من وسائلَ ماكرة. وبالطبع لم يكن باستطاعتي أن أطلب. فيما بعدُ كانت تتصرّف كأنّ شيئًا لم يحدث، تنهض وتتمشّى إلى الحمام ويدها في شعرها، وتتركني مطروحًا على الملاءة المبلّلة أنهَجُ متشنجًا وكأن نوبة قلبية أصابتني. ولعله ما كان يحدث معي فعلًا، بطريقة ما.

لم تعرِف عُمق تأثيرها عليّ أبدًا في اعتقادي. كنتُ حريصًا على ألّا تعرف. لا لا، لا تُسئ فهمي. لم يكن ذلك خوفًا من أن أمنحها سُلطة عليّ أو أي شيء كهذا. كل ما في الأمر أن معرفة من هذا النوع كانت لتصبح – يعني – غير مناسِبة بيننا. منذ البداية وثمّة تَكَتُّم ولبَاقة اتفقنا في صمت أن نحافظ عليهما. كان كل منا يفهم الآخر، نعم، لكنْ لا يعني هذا أننا نعرف بعضنا، أو أننا نريد أن نعرف. كيف كنا لنحافظ على تلك الكياسة العفوية وهي ضرورية لكلينا إلى هذا الحد ما لم نعتمد السريّة التامّة حيال ما يدور في جوف كل منا؟

كم كان جيّدًا إذّاك أن أنهض في جو الأصيل اللطيف للتنزّه عبر الرسوم الهندسية الحادّة التي تصنعها الشمس والظلال في الشوارع الضيقة حتى المرفأ. كان يروق لي أن أتفرّج على دافني وهي تَسبِقني في السير. لوركيها وكتفيها القويين من تحت قماش فستانها الخفيف إيقاع مُركّب ومكتوم. يروق لي أن أتفرج على رجال الجزيرة أيضًا،

منحنين على كأس "باستيس"[5] أو كشتبان قهوة ثقيلة، وعيونهم كعيون الزواحف تزوغ أثناء مرورها. نعم، هكذا أيها الأوغاد، لتتوقوا وتتوقوا.

على المرفأ دائمًا ما يوجد بار، نفس البار دائمًا أيًا كانت الجزيرة: بضع طاولات ومقاعد بلاستيكية في الخارج، مع مظلات شمسيّة مُعوَجّة عليها إعلانات "ستيلا" و"بيرنو"[6]، وصاحب عمل داكن البشرة سمين يستند إلى المدخل ينظّف أسنانه بعود خِلّة. ودائمًا أيضًا نَفْسُ الناس: بضع فتوّات نحفاء في بناطيل جينز مُبَيّضة، نساء بعيون جامدة جعلت الشمس بشرتهن كالجلد المدبوغ، عجوز سمين بقبّعة بَحّار وسالفين أشيبين على خديه... وبالطبع لوطيّ أو اثنان، يلبَسانِ أساور وصنادل فخمة. هؤلاء جماعتنا، شِلّتنا، أصدقاؤنا. نادرًا ما عرفنا أسماءهم، ولا هم كانوا يعرفون اسمينا. كنا نتنادى بكلمات من قبيل "صاحب" و"عزيز" و"حبيب" و"رئيس". نشرب البراندي أو الأوزو أو أيما كان أرخصُ سُمٍّ محلّي، ونحكي بصوت عالٍ عن أصدقاء ذوي شخصيات مميّزة في بارات أخرى على جزر أخرى. وطولَ الوقت يراقب بعضنا بعضًا بتَحَفُّز. حتى ونحن نبشّ لبعضنا كنا نرتقب شيئًا لا نعرف ما هو. لعله مدخل، خاصرة مكشوفة لحظية يمكننا أن نغرس غبها أنيابنا. أيتها السيدات والسادة المُحلَّفين، لقد رأيتمونا. كنا جزءً من "الأجواء المحلية" المعمول حسابها في رحلتكم السياحية الشاملة. لقد مررتم علينا بنظرات مستاءة، وتجاهلناكم.

على رأس موائد أولئك الحثالة أقمنا، دافني وأنا، بنوع من اللامبالاة المتعالية، مثل ملك وملكة في المنفى كل يوم ينتظران أخبار التمرد المضاد والنداء برجوعهما إلى القصر. كان الناس عمومًا كما لاحظت يخافوننا قليلًا. بين الحين والآخر كنت أتبيّن في عيونهم نظرة

استرضاء كَلبيّة قَلِقَة، أو شَرْزة ساخِطة مُختَلَسة وواجمة. لقد تفكّرت في هذه الظاهرة، تبدو لي ذات أهمية. أي شيء فينا أو لعلني أقصد أي شيء بخصوصنا كان يستوقفهم؟ صحيح أننا جسيمان وممشوقان، أنا وسيم ودافني جميلة، لكن لا يمكن أن يكون هذا كل ما في الأمر. لا، الخلاصة التي توصّلتُ إليها بعد طول تفكير هي الآتي: إنهم تصوّروا أنهم يتعرفون فينا على تماسُك واكتمال، على أصالة في الجوهر، كانوا يفتقرون إليها، ولا يشعرون بأنهم يستحقونها تمامًا. كنا – يعني، نعم – كنا بطلين.

أنا اعتبرتُ ذاك كلّه حماقة بالطبع. لا، لحظة، لقد حلفتُ اليمين وعليّ أن أقول الحق. لقد استمتعتُ به. استمتعت بالجلوس مسترخيًا في الشمس وجواري قرينتي الخلّابة سيئة السمعة، أستقبل ثناء حاشيتي المتنافرة. كان لدي ابتسامة خاصة باهتة، هادئة ومتسامحة، مع مَسحة احتقار مُنَمنَمَة ليس إلا، أُتحِف بها الأكثر بلاهة منهم على وجه الخصوص، أولئك المهرّجين المُثرِثرين الذين يتراقصون أمامنا بالقبّعة والجرس، يؤدّون خُدَعهم المثيرة للشفقة ويَضحَكون كالمجانين. كنت أتطلع إلى عيونهم فأراني مُعظّمًا فيها، ومن ثَم أستطيع أن أنسى للَحظة مَن أنا، أني شيء ضئيل مرتعش مثلهم تمامًا، مُترَع بالشوق والقَرَف، وحيد وخائف، تعذّبني الشكوك وأنا أحتضر.

إنّ هذا ما أوقعني في أيدي النصابين، أني سمحتُ لتلك التهويدة أن تجعلني أصدّق أني فوق الانتهاك. أنا لا أسعى يا سيدي إلى تبرئة أفعالي، فقط إلى شرحها. فحياة الانجراف من جزيرة إلى جزيرة كانت تُشجّع على الأوهام. الشمس والهواء المالح كانا يفرّغان الأشياء من دلالاتها حتى تَفقِد وزنها الحقيقي. فطنتي، فطنة القبيلة... هنا ارتخى ذلك الزنبرك

المشدود الذي صلّدته غابات الشمال المُظلِمة يا جناب القاضي، حقيقةً ارتخى. فكيف لأي شيء أن يكون خَطِرًا أو شَرًّا في طقس الألوان المائية الحنون الأزرق هذا؟ ثم إنّ الأشياء السيئة هي دائمًا أشياء تحدث في مكان آخر، والناس الأشرار ليسوا الناس الذين يعرفهم الواحد. الأمريكي على سبيل المثال لم يبدُ أسوأ من سواه في جماعة تلك السنة. الحقيقة أنه لم يبدُ لي أسوأ مني أنا، أقصد مما كنت أتخيّل نفسي عليه، فهذا طبعًا قبل أن أكتشف الأشياء التي أَقْدِر على فعلها.

أشير إليه بالأمريكي لأني لم أعرف أو لا أتذكّر له اسمًا، لكني لستُ متأكّدًا أنه كان أمريكيًا أصلًا. الغُنّة التي يَنطق بها كلامه يمكن أن يكون تعلّمها من الأفلام، وقد كانت له طريقةٌ في النظر حولَه بعينين مدقّقتين وهو يتكلم ذكّرتني بنجم سينما أو آخَر. لم يكن بوسعي أن أعامله بجديّة. كنت أُقلّده بشكل رائع – دائمًا ما كنت بارعًا في المحاكاة – الأمر الذي يجعل الناس تضحك جَهْرًا باستغراب وقد تعرّفت عليه. في البداية ظننتُه شابًا صغيرًا، لكن دافني ابتسمتْ وسألتْ إن كنت نظرتُ إلى يديه. (كانت تلاحظ مثل هذه الأشياء.) كان نحيفًا مُعَضَّلًا، بوجه مضروب بالسكين وشعر صبيانيّ مقصوص. وكان يُفضّل الجينز الضيق والبوط ذا الكعب العالي والأحزمة الجلدية ذات الأبازيم الضخمة. كانت عليه مَسحة "كاوبوي" لا تُخطئها عين. سوف أسمّيه – لنرَ – سأسمّيه "راندولف". كانت دافني هي مقصده. لقد شاهدتُه يدانيها ويداه محشورتان في جيبيه الضيقين ويبدأ يتشمّم حولها، مغرورًا ومتوتّرًا في آن، ومثله مثل كثيرين جدًا قبله كان تَوْقُه مثل توقهم بيّنًا في ذلك البياض المشدود بين عينيه. أما أنا فكان يُعاملني بلُطف حَذِر،

يحدّثني كخليل أو – هل أتوهّم ذلك؟ – حتى كصديق حميم. أتذكّر أول مرة أَجْلَسَ نفسه إلى طاولتنا، بارمًا رجليه العنكبوتيّتين حول المقعد ومائلًا إلى الأمام على أحد كوعيه. توقّعتُ أن يُخرج جرابًا من التبغ ليلف لنفسه سيجارة بيد واحدة. كان النادل، "باكو" أو "بابلو" – وهو شاب صغير بعينين حارّتين وادعاءات أرستقراطية – جاءنا بالمشروبات الخطأ، فما كان من راندولف إلا أن استغل الفرصة ليهاجمه بوحشيّة. لقد وقف الصبي المسكين ثابتًا وكتفاه ينحنيان تحت سياط الإهانة، وارتد إلى حقيقة كيونونَته: وَلَد فلّاح. وحين تخبّط مُنصرفًا، نظر راندولف إلى دافني وفَغَرَ فمه عن صفّين كفريقي رُغْبي من الأسنان المُصْفَرَّة، فكّرتُ ساعتها في كلب صيد يستريح فخورًا إلى آخِر مدى بعد أن يلقي بفأر ميّت تحت قدمي عشيقته. قال برعونة: ملعونٌ أبو البهائم متحدثي الإسبانية هؤلاء، وأصدر صوت بصاق من جانب فمه. فما كان مني إلا أن قفزتُ واقفًا، أمسكتُ حافة الطاولة وقلبتُها مصوّبًا المشروبات إلى حِجره وصائحًا فيه أن قُمْ والتقطها بنفسك يا بن الغانية! لا، لا، طبعًا لم أفعل. ومهما كان ليروق لي أن أَكبّ طاولة كاملة من الزجاج المُكَسّر على تلك البقعة المبالغ في انتفاخها بشكل عبثي ما بين فخذيه، لم تكن هذه طريقتي في إدارة الأمور، ليس في تلك الأيام. ثم إني استمتعتُ قدر ما كان أي واحد ليستمتع برؤية بابلو أو باكو يتلقّى قَصَاصَه، ذلك الأبله بنَظَرَاته العاطفية ويديه الرقيقتين وشاربه البشع الأشبه بشَعر العانة.

كان راندولف يُحبّ أنْ يعطي انطباعًا بأنه شخصية خَطِرة. كان يتكلم عن أفعال قاتمة اقتُرفت في بلد بعيد يسمّيه "البلاد"، إشارةً إلى أمِريكا الوسطى. لقد شجّعتُ حكايات الجُرأة البطولية هذه، متلذّذًا

في السر بتمثيله الحَرَج في حكيها. ثمّة سخافة رائعة حقًا في كل ذلك: نظرة التبجّح الماكرة ونبرته المتواضعة بخبث، سِحنته المُبتهِجة اعتدادًا بالنفس، طريقته في التَفَتُّح كزهرة تحت تأثير دفء إيمائي الصامت وردّة فعلي المنبهرة. طالما كانت شرور بني آدم الصغيرة تحقّق لي الرضا: أن أعامِل أحمَقَ كذّابًا وكأني أرى فيه لُبّ الاستقامة نفسَه، أن أجاريَه في ادعاءاته وتُرّهاته... هذه متعة خاصّة. لقد ادعى أنه رسام حتى طَرَحتُ عليه بضعة أسئلة بريئة في الموضوع فتحوّل فجأة إلى كاتب. في الحقيقة – كما استأمنني على سره ذات ليلة وقد ثَمِلَ – كان يتكسّب من بيع المخدِّرات لأثرياء الجزيرة العابرين. صُدمتُ طبعًا، لكني تعرّفت على معلومة قيّمة، وفيما بعدُ، حين...

لكنّي مللتُ هذا الأمر، دعني أنتهي منه. سألتُه أن يُقرِضَني بعض المال. رفض. ذكّرته بتلك الليلة المخمورة، وقلتُ إنني لا أشك في أن "الغارديا" كما يُسمَّى الشرطة هناك سيهتمون بسماع ما قاله لي. صُدم. فكّر في الأمر. قال إنه لا يملك المبلغ الذي أطلبه وسيُضطر إلى جلبه من مكان ما، ربما من ناس يعرفهم. وعضّ على شفته. قلت له إن هذا حَسَن، لا يهمّني من أين يأتي. كنت مستمتعًا وسعيدًا بنفسي وأنا ألعب دور المُبتز. لم أكن توقعتُ أن يحملني محمل الجدّ، لكن بدا أني أسأت تقدير جُبنه. لقد أحضر النقود، وأمضينا دافني وأنا بضعة أسابيع من الترف. كان كل شيء عظيمًا باستثناء أن راندولف يتتبّع خطاي أينما ذهبتُ. كان ذا عقلية حَرْفية بدرجة تعيسة في تأويله لكلمات مثل "يُقرض" و"يُسدّد الدين". قلت له إني حفظت سره الصغير القذر، أليس هذا ردًا كافيًا للمعروف؟ هؤلاء الناس لا يمزحون، قال وفمه يرتعش في محاولة بشعة للابتسام. فقلت له إني سعيد لسماع ذلك، فالواحد لا

تروق له فكرة أنّه يتعامل مع مجرّد عابثين، حتى وإن لم يفعل إلا عبر وسيط. إذاك هدّد بإعطائهم اسمي. فضحكتُ في وجهه ساخرًا وولّيتُ عنه. كنت لا أزال غير قادر على التعامل مع شيء من هذا بجديّة. بعد بضعة أيام وصل طرد صغير ملفوف في ورق بني وعليه اسمي مكتوب بخطّ نصف أُمّي. ارتكبتُ دافني خطأ فتحه. في الداخل كانت هناك صفيحة تبغ مُبطّنة بالقطن الطبي – كانت ماركة "بالكان سوبرانيه"، ما أضاف لمسة كوزموبوليتانية عجيبة – وقد استكانتْ في وَسَطِها قطعة لحم غضروفية شاحبة ومجعّدة بشكل غريب، عليها قشرة من الدم المتجمّد. مرّت دقيقة قبل أن أتعرّف فيها على أذن إنسان. إنّ مَن فَصَل هذه الأذن عن وجه صاحبها قد أنجز مهمّته مُهتاجًا مستعملًا شيئًا أشبه بسكين الخبز ليحقّق تلك الشرشرة الشعثاء. مؤلم. لكن هذا هو المقصود في ظني. أتذكّر أني فكّرت: كم هو مناسِب أن تكون أذن في أرض مصارعي الثيران هذه. شيء هزليّ فعلًا.

ذهبت أبحث عن راندولف. كان يلبَس ضمادة كتانية كبيرة على الجانب الأيسر من رأسه، مُثبّتة بعصابة ليست بالغة النظافة لُفتْ بزاوية بذيئة. لم يعد يذكّرني بـ"الوايلد ويست".[7] الآن، وكأنّ القَدَر قرّر أن يؤيّد ادعاءه بأنه فنان، أصبح هناك شَبَه لافت بينه وبين "فينسنت" المسكين المجنون في تلك الصورة الشخصية التي رسمها بعدما شوّه نفسه من أجل الغرام.[8] حين رآني ظننتُه سيبكي، بدا راثيًا لذاته وساخطًا إلى حد بعيد. ستتعامل معهم بنفسك الآن – قال – فأنت مدين لهم، ليس لي. أنا دفعتُ. ولامستْ يده رأسه المضمّد بجهامة. ثم رماني بلفظة سافل وانسل بعيدًا عبر الزقاق. ورغم شمس الظهيرة، جَلَدتْ ظهري رعشة كريح رمادية تحتشد فوق المياه. تلكأتُ هناك لحظة، في تلك

الزاوية البيضاء، أتأمل. حيّاني عجوز على ظهر حمار. وبدأتْ أجراس كنيسة ذات نبرة صفيحية تدق بسرعة على مَقرِبة. لماذا – هكذا سألتُ نفسي – لماذا أعيش هكذا؟

إنه سؤال لا شكَّ أن المحكمة أيضًا تريد له إجابة. فمع خلفيّتي وتعليمي، ومع – نعم – مع ثقافتي، كيف استطعتُ أن أعيش مثل هذه الحياة، أن أعاشر مثل هؤلاء الناس وأتورّط في مثل هذه المآزق؟ الإجابة هي... ليس عندي إجابة. أو إن الإجابة عندي أكبر وأكثر تشابُكًا من أن أحاول تقديمها هنا. كنتُ أعتقد، شأن الجميع، أني أنا الذي أحدّد مجرى حياتي وَفْقَ قراراتي الخاصة، لكني بالتدريج، وكلما راكمتُ ماضيًا أكبرَ أستعيدُه، لاحظتُ أني كنت أفعل ما أفعله لأني لا أستطيع فعل سواه. أرجوك لا تتخيلْ يا سيدي – دعني أسارع بقول ذلك – لا تتخيل أنك تستشفّ هنا تلميحًا إلى اعتذار، أو حتى دفاعٍ. أود أن أتحمّل المسئولية الكاملة عن أفعالي – فهي، رغم كل شيء، الأشياء الوحيدة التي يمكنني أن أسميها أشيائي – وأنا أُعلن مسبَقًا إني سأَقبل دون اعتراض حكم المحكمة. إني فقط أسأل، بكل احترام، إن كان التمسّك بمبدأ تحمّل الذنْب معقولًا إذا ما تخلّينا عن فكرة حرية الإرادة. أنا أُقر لكم بأنه سؤال عويص من النوع الذي يروق لنا أن نناقشه هنا ذات مساء، مع الكاكاو والدخان، حين نضيق بالوقت.

كما قلت، لم أفكر دومًا في حياتي كسجن كل الأفعال فيه محتومة وَفق نَمَط عشوائي ألقته مِن علٍ سلطة مجهولة وعديمة الإحساس. فحتى وأنا صغير كنتُ أراني معلّم بِناء سيُقيم من حوله ذات يوم صرحًا خلابًا كأنه جَنَاح فخم، جيّد التهوية ومنير، يحتويني بالكامل

وأكون مع ذلك حرًا في جوفه. سوف يقولون، وقد ميّزوا ذلك السُمُوّ عن بُعد: انظر، انظر كم هو متماسك، كم هو صلب. إنه هو بالفعل، لا شك في ذلك. الرجل نفسه. لكن في غضون ذلك – وأنا دون سَكَن – صرتُ أشعر بأني في الوقت نفسه مكشوف وخفيّ. كيف لي أن أشرح ذلك، إحساسي بنفسي كشيء دون وزن، دون مرسى، كشبح طافٍ؟ بدا أن للآخرين مصيرًا، حضورًا، أنا أفتقر إليه. حتى أني وسْط هذه المخلوقات الكبيرة الخليّة كنت مثل طفل وسط كبار. أشاهدهم بعينين فاغرتين، متعجبًا من ثقتهم الهادئة في وجه عالم محيّر، مناف للطبيعة. لا تسئ فهمي. لم أكن زنبقة ذابلة، فقد ضحكت وهدرت وتفاخرت مع أحسنهم. فقط في الداخل، في ذلك البهو المظلَّل الجهيم الذي أسميه قلبي، كنت أقف غير متزن ويدي على فمي، صامتًا وحسودًا، غير واثق. إنهم يفهمون الأشياء أو على الأقل يتقبّلونها. كانوا يعلمون ما يظنّونه حيال شيء ما، كانت لهم آراء. وقد تبنوا نظرة واسعة وكأنهم لم ينتهوا إلى أن كل شيء يمكن أن يُقَسَّم إلى ما لا نهاية. كانوا يتكلمون عن السبب والنتيجة وكأنهم يؤمنون أنه يمكن عزل حدث واحد والتمحيص فيه في فضاء نقي خارج الزمن، خارج الدوّامة الجنونية للواقع. يتكلمون عن شعوب كاملة وكأنهم يتكلمون عن فرد واحد، في حين أن الكلام حتى عن فرد بأي يقين ظاهر يبدو لي طائشًا. لا، لم تكن لهم حدود.

ثم إني، وكأنّ الناس في العالم الخارجيّ غيرُ كافين، كان في جوفي شخص مثالي خاص بي أيضًا، مراقِبُ امتحاناتٍ ما، عليّ أنْ أُخفي عنه ضعف إيماني. فمثلًا لو كنت أقرأ شيئًا ما، حُجّة في كتاب أو آخر، وأنا متفق معها بحماس، ثم اكتشفتُ في النهاية أني أسأتُ فهم ما كان يقوله الكاتب تمامًا، أني فهمت الموضوع من دُبُره، أشعر على الفور بضرورة

أن أتشقلب بسرعة البرق وأقول لنفسي – أقصد نفسي الأخرى، ذلك الشرطي الجُوّاني الصارم – إنّ ما كان يقوله هو الحق، إني فعلًا لم أقنع بغير ذلك وحتى إن كنت فقُدرتي على التنقّل بين الآراء جيئةً وذهابًا دونَ حتى أن أنتبه إنما تدلّ على اتساع الأفق. وإذاك مسحتُ جبيني وتنحنحتُ ثم فَرَدتُ كتفي إذ أصابتني نوبة خفيفة من الهلع المكبوت. لكنْ لماذا أصف ذلك كما لو أنه في الماضي؟ هل تغيّر شيء؟ فقط خطا المُراقِب الذي في جوفي إلى الأمام وتولى المسئولية في حين انكمش اللامنتمي الحيران في الداخل.

هل تدرك المحكمة – أتساءل – ماذا يُكلّفني هذا الاعتراف؟

لقد اضطلعت بدِراسَة العلوم حتى أَجِدَ يقينًا. لا، ليس هذا هو. الأفضل أن أقول: اضطلعت بالعلوم حتى أجعل قلّة اليقين أكثر طواعية. هنا طريقة لتشييد بناء صُلْبٍ فوق الرمال المتحرّكة من تحتي في كل مكان، هكذا فكّرت. وكنت متفوّقًا، كان لديّ مَلَكة، ساعدني فيها أني دون قناعات عن طبيعة الواقع، الحقيقة، الأخلاق، كل تلك الأشياء الكبيرة... حتى أني اكتشفت في العلوم رؤية لعالم فائر لا يمكن التنبّؤ به كانت مألوفة لدي بدرجة مخيفة، أنا الذي لم تكن مواد الواقع بالنسبة إليّ إلا دوامة من تصادُمات الصدفة. الإحصاء، نظرية الاحتمالات: كان هذا مجالي. موضوعات باطنيّة لن أخوض فيها هنا. كانت لي موهبة باردة لا يمكن تجاهلها حتى بمقاييس المجال المرعبة. كانت الأوراق البحثية التي أقدمها نماذج في الوضوح والإيجاز. وَقَعَ أساتِذتي في غرامي. عجائزُ غير أنيقين بأسنان بالية يفوح منهم دخان السجائر، تعرّفوا في على نزعة انعدام الرَحمَة النادِرة تلك التي حَكَم عليهم غيابُها بالكدح مدى الحياة على منصّة المحاضرات. ثم انتبه إليّ الأمريكان.

كم أحببتُ أمريكا. الحياة هناك، على ذلك الساحل الغربي المنقوع في الشمس كأنه مرسوم بالباستيل... أفسدتني إلى الأبد هذه الحياة. وما زلت أراها في الأحلام، كاملة، غير قابلة للانتهاك: التلال بلون الصلصال، الخليج، الجسر الأحمر الضخم الرقيق وقد كلّله الضباب. كنت أشعر بأني ارتقيتُ إلى هضبة عالية نُسجت حولها الأساطير، إلى "أركاديا"[9] ما. يا لِلثَّراء، يا لِراحة بال، يا للبراءة. من كل ذكرياتي عن ذلك المكان أختار واحدة عشوائيًا. يومٌ ربيعي في كافيتريا الجامعة. وقت الغداء. وفي الخارج، في الساحة قرب النافورة، تمرح الفتيات الرائعات في الشمس. هذا الصباح استمعنا إلى محاضرة عرّاف زائر، أحد حَفَظَة السِرّ، وهو الآن جالس معنا إلى مائدتنا يَشْرَب القهوة من كأس ورقية ويكسِر حبّات الفستق بأسنانه. إنه شخص طويل نحيل بكتلة جامحة من الشعر المجعّد الآخذ في الشيب. نظْرَته فكِهة مع شرارة حِقد، وهي تتقافز هنا وهناك وكأنها تبحث عن شيء يُضحِكه. يقول: الحقيقة أيها الأصدقاء أن الحكاية كلَّها من أولها إلى آخِرها عبارة عن مصادفة، محض مصادفة. وفجأة يفترّ عن ثغر سمكة قرش ويغمز لي أنا اللامنتمي الآخَر. يومئ أعضاء هيئة التدريس الجالسون حول المائدة ولا يقولون شيئًا، رجال كبار وجادون لوّحتْهم الشمس يرتدون قمصانًا ذات أكمام قصيرة وأحذية بنعال عريضة. أحدهم يحكّ فَكَّه وآخَر يتطلّع بكسل إلى ساعة يد مكتنِزة. يمر صبي بينطلون قصير ولا قميص في الخارج، يعزف نايًا. تنهض الفتيات على رِسْلِهن، اثنتين اثنتين، وعلى رِسْلِهن يسرن بعيدًا فوق العشب وقد شبّكن سواعدهن أمامهن والكُتُب ملتصِقة بصدورهن كالدروع. يا إلهي، هل هو ممكن حقًا أني كنت هناك؟ يبدو لي الأمر الآن، في هذا المكان، أقرب إلى الرؤيا

من الذكرى: الموسيقى، "الميناداتِ"[10] الهادئات هؤلاء، ثم جماعتنا على المائدة: شخوص باهتة وثابتة كالحُكَمَاء في اجتماعهم وراء زجاج يعكس أوراق الشجر.

لقد أُسِروا بي هناك: لُكْنَتي، "بابيوناتي"، السِحر الشرّير نوعًا ما للعالم القديم متمثّلًا فيّ. كنت في الرابعة والعشرين، وشعرت بينهم بأني في منتصف العمر. لقد تكالبوا عليّ بحماس رزين وكأنهم يمارِسون أحد أنشطة تطوير الذات. كانت إحدى حروبهم الخارجية الصغيرة في أَوْجِها وقتذاك، والجميع إلا أنا يحتجّون فيما يبدو – رفضتُ أن يكون لي أي صلة بمسيراتهم واعتصاماتهم، "الإيكولاليا"[11] الضاجة التي كانوا يعتبرونها محاجَجَة – لكنْ حتى موقفي السياسي أو غيابه لم يردعهم، وتساقطتْ "الهيبيّات" من أطفال الزهور[12] على كل شكل ولون في سريري، ترتجف "بتلاتهن". لا أذكر منهن بدقة إلا قليلات، وحين أفكر فيهن أرى هجينًا من يدي هذه وعيني تلك، أو نهنهة ثالثة. من تلك الأيام، الليالي، لا يبقى إلا نكهة سُكّر مُرّ خافتة وأثر هو أوهى وميض ممكن للضوء بعد انطفائه يدل على حالة الارتياح الطافي، كيف أقول ذلك، هناء الأُبَيْرق العرفاني تلك – نعم، نعم، لقد عثرت على معجم – التي كنّ يتركنني فيها، وعضلاتي تئن من خدمتهن الشاقّة، ولحمي مغسول في بلسم عرقهن.

كان لقائي بدافني أيضًا في أمريكا. خلال حفل في بيت أحد الأساتذة ذات أصيل، كنت واقفًا على الشرفة وفي يدي مقدار ثلاثة كؤوس "جين" في كأس واحدة حين سمعتُ – على عشب الحديقة من تحتي –صوت الوطن ناعمًا ولكنْ واضحًا كصوت المياه تسقط على الزجاج، مع لمسة خُمول هي نغمة جماعتنا التي لا تُخطَأ. نظرتُ فإذا هي هناك، في فستان

منقوش بالزهور وحذاء ليس على الموضة وشعر مُصفّف مثل دمية "غوليووغ"[13] على طريقة تلك الأيام، تنظر بعبوس عبر كتف رجل في سُترة فجّة يُجيب بإيماءات مصطنعة على شيء كانت سألتْه عنه، وتهز رأسها بجدية دون أن تُنصت إلى كلمة مما يقوله. التقطتُ تلك النظرة الخاطفة فقط ثم أدرتُ لها ظهري، لا أعرف لماذا بالضبط. كنت أمرّ بإحدى نوبات مزاجي السيّئ وفي منتصف طريقي إلى السُكْر. أرى تلك اللحظة كشعارٍ لِحَياتِنا معًا. فسوف أقضي السنين الخمس عشرة القادمة أُدير لها ظهري بشكل أو بآخر، حتى ذلك الصباح الذي وقفتُ فيه وراء سور باخرة الجزيرة، أتنشّق هواء الميناء اللزج بصوت عالٍ وأُلوّح دون حماس لها وللصغير وهما منمنمان من تحتي على رصيف المَرفأ. يومذاك هي التي أدارتْ لي ظهرها بحسم، كما يبدو لي الآن، بطيء وحزين إلى ما لا نهاية.

شعرتُ بالحماقة قدر ما شعرتُ بالخوف. كانت كأنها مُتخَيَّلة، تلك الورطة التي أوقعت نفسي فيها: أحد تلك الأحلام المجنونة التي يمكن لرجل صغير سمين دون فائدة أن يحوّلها إلى فيلم من الدرجة الثالثة. وسوف أستهين بالحدث لفترات طويلة، كما يستهين الواحد برؤياه مهما كان بشعًا، لكنه كان يعود زاحفًا متلويًا بعد قليل، ذلك الشيء القبيح ذو المجسّات الأخطبوطية، فتنبجس داخلي دفقةٌ ساخنة من الرعب والخزي... الخزي، أقصد، من غبائي أنا، من انعدام بصيرتي الذي لا مبرر له، والذي أوقعني في مثل سلطانية الحساء هذه.

وحيث بدا أني سأواجه، عبر راندولف، دور الممثل المساعد، فقد توقعت أن تلعبه جماعة من الأشراس الكوميديين، شطّارٌ على جبهاتهم

المنخفضة آثار طعنات ولهم شوارب صغيرة رفيعة سيقفون حولي في دائرة وأيديهم في جيوبهم ويفترّون بطريقة بشعة عن ثغور تمضغ أعواد خِلة. الذي حدث، بدلًا من ذلك، هو أني دُعيت إلى المثول أمام "هيدالغو"[14] من طبقة النبلاء بشَعر فضي وبَدْلَةٍ بيضاء. صافحني بقوة ظللتُ أشعر بها في يدي وقال لي إن اسمه "أغويرا". كان أسلوبه كيّسًا وعليه مسحة حزن، فبدا أنه لا يناسب محيطه. كنت تسلّقت دَرَجًا ضيّقًا إلى غرفة قذرة ومنخفِضة فوق أحد البارات. كانت هناك مائدة مغطّاة بالمُشَمَّع، وكُرسيّان من الخوص. وعلى الأرض تحت المائدة جلس رضيع وَسِخ يمصُّ ملعقة خشبية. وثمّة جهاز تلفاز عملاق مقرفِصًا في الزاوية، رأيتُ نفسي منعكِسًا على شاشته الخالية المُقبِضة طويلًا جدًا ونحيلًا، ومنحنيًا كقوس. ثمّة رائحة طعام مَقليّ. تفقد السنيور أغويرا بامتعاضة اشمئزاز صغيرة أحد الكرسيين وقَعَد. صَبَّ لنا نبيذا، ومَيَّل كأسه يشرب نَخبي بودّ. قال إنه رجل أعمال، رجل أعمال بسيط، وليس أستاذًا جليلًا – هنا ابتسم مع انحناءة خفيفة – ومع ذلك فهو يعلم أن هناك قواعدَ مُعيَّنةً، التزاماتٍ أخلاقيةً معينة. إنه يفكّر في أحدها بالتحديد: ربما أستطيع أن أخمّن أيّهَا؟ دون صوت هززتُ رأسي. شعرت بأني فأر تلهو به قطة عجوز ملساء وقد أصابها الملل. عَمُقَ حزنه. القُرُوض – هكذا قال بهدوء – القروض لابد من تسديدها. إن هذا هو القانون الذي تأسّست عليه التجارة. إنه يتمنّى أن أتفهّم موقفه. ساد صمت. لقد راعني ضَرْبٌ من الذهول: هذا إذن هو العالم الحقيقي، عالم الخوف والألم والجزاء، إنه مكان جِديّ، ليس ذلك الملعب المشمس حيث بدّدتُ حفنات من أموال شخص غيري. سأُضطر إلى الرجوع إلى وطني، هكذا قلت أخيرًا، بصوت بدا أنه ليس صوتي. هناك أشخاصٌ

يمكنهم مساعدتي، أصدقاءُ، أقاربُ. أستطيع أن أقترضَ منهم. تَفَكّر ثم تساءل: وهل سأذهب وحدي؟ ولوهلة لم أفهم قصده. ثم أشحتُ بوجهي عنه وببطء قلت: نعم، نعم، زوجتي وابني سيبقيان هنا على الأرجح. وبينما أقولها بدا أني أسمع قهقهة بشعة، صيحة استهزاء من عمق الغابة، خلف كتفي مباشرة. ابتسم، وبحذر صبّ بوصة أخرى من النبيذ. الطفل الذي كان يلعب برباط حذائي بدأ يعوي. كنت متوترًا ولم أقصد أن أركل المخلوق. امتعض السنيور أغويرا وصاح بشيء ما خلف كتفه. فانفتح بابٌ وراءه وأدخَلَتْ رأسها امرأة صغيرة السن وبالغة السمنة قد بدا عليها الغضب أخذتْ تَنخُر له. كانت ترتدي فستانًا أسود دون أكمام بحزّ معوج و"باروكة" لامعة عالية علو خلية نحل مع رموش اصطناعية تليق بها. اقتربتْ كبَطّة وبجهد انحنتْ لترفع الرضيع ثم صفعته بقوة على وجهه. جحظ بدهشة، وابتلع نوبة نشيج ضخمة قبل أن يدير عينيه المستديرتين بجديّة إلي. رمقتْني المرأة كذلك، أخذت الملعقة الخشبية وقذفت بها فقرقعتْ على المائدة أمامي. ثم غرست الطفل بثبات على وركها العملاق ودبدبت خارجَ الغرفة صافقة الباب خلفها. هزّ السنيور أغويرا كتفيه بخِفّة على سبيل الاعتذار. ابتسم مُجدّدًا، ولمعت عيناه. ما هو رأيي في نساء الجزيرة؟ ترددتُ فقال بمرح: هيا هيا، فأنا بالتأكيد لي رأي في مثل هذا الأمر الهام. قلت إنهن فاتنات، فاتنات بحق، إنهن أكثر بنات جنسهن فتنة ممن رأيت. أومأ بفرح، فهذا ما كان يتوقع مني أن أقوله. لكنه قال: لا، لا، سمراوات أكثر من اللازم، سمراوات أينما وُجِدن، حتى في الأماكن التي لا تتعرض أبدًا للشمس. ثم مال إلى الأمام بابتسامته المجعّدة الفضية وضرب بإصبعه على معصمي. أما الشماليات، نعم... آه من الشماليات الفاتحات أولئك.

يا لِبياض البشرة. يا للرقة. يا للهشاشة! زوجتك مثلًا، هكذا قال. وساد صمت آخر بأنفاس محبوسة. تبيّنتُ الألحان الرنانة لموسيقى خارجة من الراديو في الطابق الأسفل. موسيقى مصارعةِ ثيران. أصدر كرسي طقطقة من تحتي، مثل تحذير مُغَمغَم. ضم السنيور أغويرا يديه اللتين يمكن أن يكون رسمهما "إلغريكو"[15] وطالعني من خلف البرج المصنوع من أطراف أصابعه. زوجتك – قال، نافخًا في الكلمة – زوجتك الجميلة، ستعود إليها بسرعة؟ لم يكن سؤالًا بحق. ماذا يمكن أن أقول له، ماذا يمكن أن أفعل؟ هذان أيضًا ليسا سؤالين.

أعلمت دافني بأقل ما يمكن. وبدا أنها تفهمت. لم تصعّب علي الأمر. ودائمًا ما كان هذا هو الشيء العظيم في دافني: إنها لا تُصعّب الأمور.

كانت رحلة طويلة إلى الوطن. رست الباخرة في مرفأ "بَلَنْسِيَة" في أول الليل. إني أكره إسبانيا، ذلك البلد الوحشيّ الممل. كانت المدينة تفوح برائحة الجنس و"الكلور". ركبتُ قطار النوم، محشورًا وسط نصف دستة فلاحين ذوي رائحة كريهة يلبسون بِدَلًا رخيصة. لم أستطع أن أنام. كنت أشعر بالحر والصداع. كنت أشعر بمحرك القطار يَكُدّ على المرتفع إلى الهضبة، والعجلات تُطبّل نفس المقطع مرةً بعد مرة. ثمة صُبحٌ أزرق باهت يطلع في مدريد. توقفتُ خارج المحطة أتفرّج على سرب من الطيور تدور وتتشقلب على ارتفاع مهول، وأغرب شيء أن عَصفَة نشوة اكتسحتْني حتى ارتعدتُ ودمعتْ عيناي. لعلها قِلّة النوم وتأثير هواء المرتفعات قليل الأكسجين. ولماذا – أتساءل – أتذكر بهذا الوضوح وقفتي هناك، لون السماء، الطيور، ورعشة التفاؤل المحموم تلك؟ ستقولون لي إني كنت في مفترقِ طُرُق. هنا تَفَرّع المستقبل أمامي،

وأخذتُ السِكّة الخطأ دون أن أنتبه. هذا ما سوف تقولونه لي، أليس كذلك، أنتم المصممون على أن يكون لكل شيء معنى، الذين تشتهون المعنى براحة يد رطبة ووجه يحترق! لكنْ اهدأْ يا فردريك، اهدأ. عذرًا على هذا الانفجار يا حضرة القاضي. كل ما في الأمر أني لا أعتقد أن لحظات مثل هذه تعني أي شيء، ولا أي لحظات أخرى في الحقيقة. إن لها أهمية، فيما يبدو. قد يكون لها حتى قيمة. لكنها لا تعني شيئًا.

ها قد صرّحت بعقيدتي الآن.

أين كنتُ؟ في مدريد. في طريق خروجي من مدريد. ركِبت قطارًا آخر، متّجهًا إلى الشمال. توقّفنا في كل محطة على الطريق. ظننت أني لن أغادر هذا البلد الرديء أبدًا. ذات مرة توقفنا لمدة نصف ساعة في مكان غير معلوم. جلست في صمتِ تَكّاتِ الساعة أتطلّع من الشباك ببَلَادَةٍ. خلف قضبان الخط العلوي كان هناك حقل ضخم عالٍ وأصفر، وعلى مسافة سلسلة جبال زرقاء ظننتُها في البداية غيومًا. أشرقت الشمس. مرّت بقرة متعبة. سعل أحدهم. فكرتُ كم هو غريب أن أكون هناك، أقصد هناك بالضبط وليس في مكان آخر. مع أن الوجود في المكان الآخر ما كان ليبدو أقلَّ غرابة. أقصد... لا أعرف ماذا أقصد. كان الهواء في المقصورة ثقيلًا والمقاعد تُصدِر رائحتها المستعمَلَة المتَرَّبة. نظر رجل أسمر صغير الحجم بحاجبين منخفضين كان جالسًا قبالتي في عيني ثم لم يُفْلِتْهما. في هذه اللحظة جاءني أني في طريقي لفعل شيء بالغ السوء، شيءٍ فظيع فعلًا، شيء لن يكون ممكنًا غفرانه. لم يكن هاجسًا، فهذه الكلمة ليس فيها ما يكفي من التأكيد. لقد عرفتُ. لا أستطيع أن أشرح كيف، لكني عرفتُ. أنا نفسي صُدمت، تسارعتْ أنفاسي وخَفَقَ وجهي كأنما إحراجًا، لكنْ إضافةً إلى الصدمة تدفّقت

في حلقي شماتة عابثة خنقتْني. كان ذلك الفلاح لا يزال يطالعني. كان يجلس مائلًا إلى الأمام قليلًا، يداه مرتاحتان على ركبتيه وجبينه مُكفهر، وعلى وجهه في نفس الوقت تركيز وبُعد. هكذا يحدّقون، هؤلاء الناس. إن إحساسهم بأنفسهم من الضآلة بحيث يتخيّلون أن أحدًا لن يرى أفعالهم فيما يبدو. وكأنهم يتلصصون علينا من عالم آخر.

كنت أعرف تمام المعرفة طبعًا... إني أهرب.

توقّعتُ أن أصِل وهي تُمطر، وفي "هولهيد" بالفعل كان يَهْطِل رشاشٌ دافئ، لكن حين خرجنا إلى القناة سَطَعَتِ الشمس من جديد. كان الوقت مساء. وكان البحر هادئًا، عبارة عن سطح سائلٍ مُحدَودِب مشدود، عليه مسحة بنفسجية وهو يرتفع ويتقوّس بدرجة غريبة. في الصالة الأمامية حيث كنت جالسًا، بدا أن طرف السفينة الأمامي يشرئب أكثر فأكثر وكأنّها تُجاهِد لتَخرُج إلى الهواء الطَلْق. والسماء من أمامنا لَطْخَة قُرمزية بشحوب أزرق وأخضر مُفضّض. ثبّتُ وجهي على ضوء البحر الهادئ، مسحورًا ومترقّبًا أفترّ كمخبول. أعترف أني لم أكن صاحيًا تمامًا، فقد افتتحتُ حِصّتي من خمور السوق الحرة. كانت البَشَرَة على صدغيّ وحول عينيّ تشتدّ بطريقة مُقلقة. ومع ذلك، لم يكن الشراب وحده هو ما أسعدَني ولكن رِقّة الأشياء، طيبة العالَم البسيطة. هذا الغروب مثلًا، كم أُغدِقَ على صنعتِه: السحاب، الضوء فوق البحر، المسافة الزرقاء الخضراء التي تكسر القلب هذه... وكلها مُقدَّمَة وكأنما لتعزية مسافر متألّم ضَلّ طريقه. أنا لم أتعوّد أبدًا أن أكون على هذه الأرض. أحيانًا أفكر إن سبب وجودنا هنا ليس سوى حماقة كونية، إننا كان يجب أن نكون على كوكب مختلف تمامًا بترتيبات أخرى وقوانين أخرى وسماوات أخرى أكثر جهامة. أحاول أن أتخيله، مكانَنا الصحيح، في طرف المجرة البعيد يدوّم دون توقف. وأولئك الذين كان يجب أن يكونوا هنا، هل هم هناك في حيرة وحنين إلى الديار مثلنا؟ لا، فلابد أنهم انقرضوا منذ زمن طويل. كيف يمكن أن يبقوا، الأرضيون الرقيقون هؤلاء، في عالم مصنوع ليحتوي أشكالنا؟

لهجة الناس هي أول ما أفزعني. ظننتُهم يصطنعون تلك اللُكنة،

فقد بدت "كاريكاتورية" تمامًا. زوج عُمّال شحن وتفريغ، بوجهين ملتهبين وفي كل فم سيجارة، ثم ضابط جمارك بغطاء رأس: أهل بلدي. مشيتُ عبر سقيفة شاسعة من الحديد المموّج حتى خرجتُ إلى اللون الذهبي المُتعَب لمساء صيفيّ. مرّت حافلة، ثم عامل على دراجة. برج الساعة وساعته الفاسدة ما زالت تعرض الوقت الخطأ. كان كل شيء مؤثِّرًا حتى أني اندهشت. لقد أحببت المكان طفلًا: رصيف المرفأ والكورنيش وخشبة العرض الخضراء هذه. كان هناك دائمًا حِسّ عَذْب بالحزن، بالندم الطفيف، وكأن موسيقى طريفة ومُبهجة – آخر ما سيُعزف في هذا الفصل من العام – قد تلاشت لتوها في الهواء. لم يُشِر أبي أبدًا إلى المكان بغير "كينغستون" – مدينة المَلِك – فلم يكن له جَلَد على هُراء الأسماء المحليّة. كانت عادته أن يصطحبَني إلى هنا أيام الأحد في الأصيل، وأحيانًا في وَسَطِ الأسبوع أيضًا أثناء العُطلات المَدْرَسيّة. كانت سكّة طويلة بالسيارة من "كولغرينج". يصُفّ السيارة على الطريق الواقعة أعلى رصيف المرفأ ثم يعطيني شِلِنًا وينحدر منصرفًا فيتركني كما يقول لشئوني الشائنة. أراني أمير الضفادع متَوَّجًا على عرش الكنبة الخلفيّة للسيارة "الموريس أوكسفورد" أتناول قُمعًا من البوظة. ها أنا ألحس كرة متضائلة من اللزوجة في حركة دائرية لا تكفّ بتفاني العلماء، مُحدّقًا فيمَن يمر أمامي من متنزهين على الكورنيش شحبوا لمنظر عيني المفزِعتين ولساني القشدي وهو يَخفُق. نسمة البحر جدار ناعم من المِلح في شباك السيارة المفتوح، مع لَمحة دخان من سفينة البريد الراسية تحتي. كانت الأعلام على سطح نادي اليخوت تَرتعش وتُطقطق بينما تتمايل وترن أَجَمَةٌ من الصواري في الميناء وكأنها تَخْتٌ شرقيّ.

لم تصحبنا أمي أبدًا في هذه الرحلات. لقد كانت كما أعلم الآن

مجرد حُجّة ليزور أبي حبيبة أسكَنَها هناك. ولا أتذكّر أنه كان يتصرّف بشكل مريب، على أي حال لم يكن أداؤه مريبًا أكثر من المعتاد. كان رجلًا هزيلًا ذا تكوين مُرَتَّب بحاجبين فاتحين وعينين فاتحتين، وله شارب أشقر يفتقر قليلًا إلى الاحتشام، كأنه خُصلة وَبَر ناعمة وطرية وَجَدت طريقها إلى وجهه دون قصد من جزء سري آخر من شخصه. كان يَمنح فمه حيوية فاقعة كشيء أحمر جائع وعنيف يطحن ويزمجر. فهو دائمًا غاضب بدرجة أو أخرى، يُبقبق بالسُخْط والاستياء. مع أني أعتقد أنه، وراء الجعجعة، كان جبانًا. كان يشعر بالرثاء للذات، مقتنعًا بأن العالم أساء معاملته. وتعويضًا عن ذلك كان يُدلّل نفسه ويعطيها مكافآت. يرتدي أحذية مصنوعة يدويًا وربطات عنق "شارفيه". يحتسي "البوردو"[16] الفاخر ويدخّن سيجارًا مستوردًا خصيصًا في صفائح محكمة الإغلاق من متجر في "برلنغتون آركيد". ما زلت أملك – أو كنت – عصاه "الملقّا"[17]. كان فخورًا بها إلى درجة بعيدة. يحب أن يشرح لي كيف صُنعت من أربع – أم أنها ثماني – قطع من الخيزران يتم إعدادها وتركيبها على بعضها بيدي معلّم حِرفي. وكنت بالكاد أحافظ على وقاري، فقد كان جادًا بطريقة مُضحكة. لقد ارتكب خطأ الاعتقاد بأن مُمتلكاتِه هي مقياس قيمته. فاختال وتبختر، مستعرضًا أشياءه مثل الصبيّ الذي يمتلك أكبرَ نَبْلَةٍ في المدرسة. وبالفعل كان فيه شيء من الصبي الأبدي، شيء غير واضح المعالم من عُمْر البلوغ. حين أفكر فينا معًا أراه صغير السن بدرجة مستحيلة وأراني راشدًا من الأصل، مصابًا بالضَجَر والمرارة. أظنّه كان يخافُني قليلًا. فقد صرتُ في نفس حجمه ما إن بلغتُ عامي الثاني أو الثالث عشرة، أو على الأقل في نفس وزنه. فرغم أنّ لي لونَ بشرته الذهبي إلا أني ورثتُ جسد أمي وفي ذلك العمر كانت السمنة

قد ظهرت علي بالفعل. (نعم، سيدي القاضي، إنك ترى أمامك رجلًا متوسط الوزن في جوفه آخَر سمين يحاول ألا يَخرُج. فقد أَفْلَتَ مرة، هذا المدعو "بانتر"، مرة واحدة فقط، وانظرْ ما حدث.)

أتمنى ألا يكون انطباعكم عني أني كنت أكره أبي. لم نكن نتحادث كثيرًا، لكننا كنا على أتمّ ما يكون عليه أب وابن من وفاق. فلو كان هو يخافني قليلًا، أنا أيضًا كان لدي من الحِكمة ما يجعلني أحْذَره، وهي علاقة من السهل أن تُفهم خطًا – حتى من جانبنا كلينا في بعض الأوقات – على أنها تنطوي على تقدير مُتبَادل. لدى كلينا نفور كبير من العالم عمومًا، كان هذا على الأقل مشتركًا بيننا. ألاحظ أني ورثتُ ضحكته المكتومة الخنفاء الضعيفة، تلك التي لم يكن له تعليق على أحداث زمانه الكبرى سواها. الانقسامات والحروب والكوارث، ماذا يعنيه من كل ذلك؟ لقد انتهى العالم، العالم الوحيد الجدير بالاهتمام انتهى مع رحيل آخِر نائب لملك بريطانيا عن هذه الشُطآن. لم يبق بعد ذلك سوى تناحُر الفلاحين. كان يحاول جادًا أن يصدّق تلك الأسطورة التي تحكي عن مكان عظيم وطيب سُلِب منا ومن جنسنا نحن "كاتوليك القلعة"[18] كما كان يحب أن يقول، نعم سيدي العزيز، نحن من كاتوليك القلعة وفخورون بذلك. لكني لا أعتقد أن هناك من الفخر قدر ما هناك من الكدر. أعتقد أنه كان يستحي من أنه ليس بروتستانتيًا، فلكان ذلك وَفَّر عليه كثيرًا جدًا من الشرح والتفسير. لقد قدّم نفسه كشخصية تراجيدية: نبيل من الرعيل القديم وقد انقطعتْ به سُبُل الزمن. أتخيله في آصال يوم الأحد تلك مع عشيقته – فتاة وفيرة اللحم، كما أتصورها، بشعر ملفوف كما لا يُنصح بلقّه وصدر وفير – راكعًا أمامها يتزن مرتعشًا على ركبة واحدة يحدّق مستغرقًا في وجهها وشاربه

ينتفض، وفمه الأحمر المبتل مفتوح في توسّل. آه، لا ينبغي أن أسخر منه هكذا. حقيقة لم تراودني أفكار قاسية حياله، هذا باستثناء رغبتي الدفينة في قتله حتى يمكنني أن أتزوج أمي. إنها فكرة جديدة مغرية لا يكفّ محاميّ عن فرضها علي وفي عينيه نظرةٌ ذاتُ مَغزى.

لكني أنحرف عن الموضوع.

السِحر الذي استشعرتُه في كينغستون – أقصد "دن لايره"[19] – لم يمتد إلى جوف المدينة. فإنّ مقعدي في مقدمة الطابق الأعلى للحافلة – مقعدي القديم، المفضّل – أطلعني على مَشَاهدَ بالكاد تعرّفت عليها. في السنوات العشر التي انقضتْ منذ كنت هنا آخِرَ مرة ثمّة شيء حَصَلَ، شيء أصاب المكان. شوارع كاملة اختفت، وقد نُزِعَت البيوت واستُبدلت بكتل مخيفة من الصُلب والزجاج الأسود. مُجِيَ ميدان قديم عِشتُ فيه أنا ودافني بعض الوقت وحُوِّل إلى موقف شاسع – محروق على رؤوسهم – للسيارات. رأيت كنيسة معروضة للبيع، كنيسة للبيع! لا لا، شيء فظيع حصل. الهواء نفسُه بدا تالفًا. ورغم تأخُّر الوقت كان ثمة وهج متبقٍ من النهار. كان كثيفًا مُحَمّلًا بالتراب مثل الغشاوة التي تتبع انفجارًا أو حريقًا هائلًا. وكانت على وجوه الناس نظرة صدمة كالتي تظهر على وجوه الناجين. بدا أنهم لا يمشون بل يترنحون في الشوارع. نزلتُ من الحافلة ورسمتُ طريقي بينهم وعيناي إلى أسفل خوفًا من أن أُبصر بشاعات. بمحاذاتي أولاد شوارع حفاة يجرون ويطنطنون من أجل القروش. ثمة سكارى في كل مكان، يتخبطون ويسُبّون، تائهين في خُبْلة عديمة البهجة. صعد زوجان مُذهِلان من قَبو نابض: شاب خَطِر بوجه مجدور وعُرفٍ من الشعر البرتقالي، وفتاة ذات وجه وقح ترتدي حذاء مصارع روماني مع ثياب مهلهلة سوداء كالسخام. كانا

ملفوفين بحبال وسلاسل وما بدى كأحزمة خرطوش، وفي مناخيرهما أزرار ذهبية. لم أكن رأيت مثل هذه المخلوقات أبدًا، ظننتُهما عضوين في طائفة غرائبية. وفَررتُ من أمامهما غاطسًا في مَشرب "والي". "غاطسًا" هي الكلمة الصحيحة.

توقّعت أن يكون تغيّرًا مثل كل شيء آخر. كنت أحب مشرب والي حيث كنت أشرب أيام كنت طالبًا وفيما بعدُ أيضًا حين عَمِلتُ لدى الحكومة. كان للمكان مَسحة وَضَاعَة أنسجم معها. أعلَم أن الكلام كَثُرَ عن ارتياد الشواذ له، لكني واثق أن المحكمة ستستبعد الإسقاطات التي استُشِفّت من ذلك تلميحًا خاصة في الصحافة الصفراء. لستُ لوطيًا. لا شيء عندي ضد اللوطيين، سوى أني أحتقرهم طبعًا وأشمئز من التفكير في الأشياء التي يفعلونها أيًا كانت هذه الأشياء. لكنّ حضورهم كان يضيف بهجة سوقية لأجواء المشرب، مع حزّ بسيط من التهديد. تُعجبني رعشة الإحراج والتوجُّس التي تتصاعد مثل خَرَزَة زئبق على عمودي الفقري حين تنفجر جماعة منهم فجأة في ضحك صارخ كصوت الببغاوات، أو حين يسكرون فيبدأون في النباح بالشتائم وتكسير الأشياء. الليلة، حين أسرعتُ أحتمي بالمشرب من المدينة المنكوبة، أول ما رأيت كان نصف دستة منهم حول مائدة قُربَ الباب ورؤوسهم متكتّلة يهمسون ويكتمون ضحكاتهم ويتلامسون بفَرَح. كان والي نفسه خلف البار. لقد سَمِنَ أكثر، الأمر الذي ما كنت لأحسبه ممكنًا. لكنْ خلاف ذلك لم يكن تغيّر منذ عشر سنين. حييته بدفء. وأظنه تذكّرني، لكنه طبعًا ما كان ليعترف بذلك: والي يعتز بسخافة أسلوبه. طلبت كأسًا كبيرة وعملاقة من "الجين آند تونيك"، فتنهّد وأنهض نفسه على مَضَض عن المقعد العالي الذي كان مسنودًا عليه. كان يتحرك ببطء

شديد وكأنه تحت الماء، وشحمه يتموّج مثل قنديل بحر. بدأت أشعر بتحسّن بالفعل. أخبرتُه بأمر الكنيسة التي رأيتها معروضة للبيع فهَزّ كتفيه. لا يُدهشه الأمر، فمثل هذه الأشياء صارت مألوفة هذه الأيام. وبينما كان يضع كأسي أمامي تَفرّقت دائرة اللوطيين المحتشدين عند الباب فجأة وأطلقت رشاشًا صاخبًا من الضحك فعَبَسَ لهم، زامًّا فمه الصغير حتى كاد يختفي في ثنيات ذقنه. كان يصطنع ازدراء زبائنه، مع أنه يُقال إنه هو نفسه يُنفِق على جماعة من الصبيان يحكمهم بصرامة بالغة، فيغار عليهم ويؤذيهم وكأنه إحدى شخصيات "أوبري بيردسلي"[20] الشاذّة تلك.

شَرِبت شرابي. ثمة شيء في شراب الجين، لعلها النكهة العميقة لغابة برّية، دائمًا ما يجعلني أفكر في الغسق والسديم والعذراوات الموتى. الليلة رنّت تلك النكهة في فمي مثل ضحكة سرية فنظرتُ حولي. والي لم يتغير، لا. أبدًا لم يتغير. إن هذا مكاني: العتمة المسكونة بالوشوشة، المرايا، القناني المصفوفة خلف البار وفوق كل منها رأس من الضوء الياقوتي. نعم، نعم، مطبخ الساحرة، مع "ملكة" بشعة سمينة وجماعة من "الجِنيّات" الضاحكات. حتى الغول في الحقيقة موجود: "جيل الفظيع"[21]، هذا أنا! كنت سعيدًا. أنا أستمتع بالأشياء غير اللائقة وسيئة السمعة، أعترف. في أماكن وضيعة مثل هذا المكان يسقط عني حِمل مولدي وتعليمي وأشعر، أشعر... لا أعرف بماذا أشعر. لا أعرف. المُضارِع خطأ على أي حال. استدرتُ إلى والي ورفعتُ كأسي ثم تفرجّت بضَرْبٍ من الفرح المخدَّر وهو يقيس لي مقدارًا من الشراب السحري ويصبّه في كأس القُربان الفِضية الصغيرة. تلك اللمعة الزرقاء حين أضاف الثلج. فيمَ أفكر؟ عينان زرقاوان. نعم، بالطبع.

ألم أقل عذراوات. يا ويلي!

هكذا جلست في مشرب والي وشربت، وتحدثت إلى والي عن هذا وذاك – ونصيبه من الحديث لا يتعدى هزة الكتفين والنخرة البليدة أو، بين حين وآخر، شهقة الضحك المكتوم الحاقدة – وبالتدريج هدأ الطنين الذي دائمًا ما يطلقه في رأسي السّفَر. شعرت كأني، بدلًا من ركوب السفن والقطارات، أُنزِلتُ إلى هذه البقعة أخيرًا عبر الهواء بطريقة ما، وأنا أحس بالثمَل والسعادة وبأني عُرضة للأذى بشكل لطيف يربو على الشهوانية. السنوات العشر التي أمضيتها أتجول دون توقف كانت كأنها لا شيء، رحلة في حلم، وهم عابر. وكم بدا كل ذلك قَصِيًّا: تلك الجزر في بحر أزرق، تلك الظهائر الحارقة، راندولف والسنيور أغويرا... حتى زوجتي وابني، كم كانا قصيين. وهكذا حدث أنْ حييت "تشارلي فرينش"، حين دخل، كما لو أني رأيته بالأمس فقط.

أعلم أن تشارلي مصمم على أنه لم يقابلني في مشرب والي، أنه لم يقرب المكان أبدًا، لكنّ أقصى ما سأكون على استعداد للاعتراف به هو احتمال أن لا أكون رأيتُه هناك في تلك الليلة بعينها. أتذكر اللحظة بوضوح تام. كان اللوطيون يتهامسون ووالي يُلمّع إحدى الكؤوس بحركة رسغ مدرّبة تُضمر ازدراءً لا يمكن محاكاتُه. وأنا جالس إلى البار في قبضتي كأس جين مترعة وحقيبة سفري المصنوعة من جلد الخنزير بين قدمي. إذاك يتوقف تشارلي هناك في بدلته الداكنة ذات التقليم الأبيض وحذائه المُلمّع، مثل "يومايوس"[22] نَسّاء يبتسم بتوجس ويطالعني غير واثق. ورغم ذلك، مُحتَمَل أن تكون ذاكرتي خلطتْ بين واقعتين منفصلتين. هذا محتمل. ماذا يمكنني أن أقول أكثر. أتمنى يا تشارلز أن يُسكّن تنازلي هذا ولو قليلًا إحساسك بالأذى.

يعتقد الناس أني دون قلب، لكني لست كذلك. عندي الكثير من التعاطف تجاه تشارلي فرينش. تسبّبت له في كرب كبير، لا شك في ذلك. أهنتُه أمام العالم. وكم كان هذا مؤلمًا ولابد بالنسبة إلى رجل مثل تشارلي. لقد تصرّف بشكل جيّد في هذا الصدد. تصرّف بشكل جميل في الحقيقة. في تلك المناسبة الأخيرة المروّعة، الكوميدية بشكل مروّع، حين كنتُ أُقاد إلى الخارج مُكبّل اليدين، لم يَنظر إليّ متّهمًا بل بنوع من الحزن. كاد يبتسم. وأنا شعرتُ بالامتنان. إنه مصدر للشعور بالذنب والحنَق لي الآن، لكنه كان صديقي، و...

كان صديقي. كم هي بسيطة هذه العبارة، وكم هي مؤثرة. لا أعتقد أني استخدمتها أبدًا من قبل. حين كتبتها كان عليّ أن أتوقف، مفزوعًا. انبجس شيء ما في حلقي وكأنه سيكون بإمكاني أن – نعم – أن أبكي. ماذا يحصُل معي؟ هل هذا ما يعنونه بالتأهيل. لعلني سأغادر هذا المكان وقد تم إصلاحي رغم كل شيء.

تشارلي المسكين لم يتعرّف علي في البداية، وكان منزعجًا بشكل واضح من أن يخاطبه في هذا المكان، وبهذه الطريقة الحميمية، شخص بدا له غريبًا. أما أنا فكنت مستمتعًا، وكأني متنكّر. عرضتُ أن أشتري له كأسًا لكنه رفض بأدب منمّق. كان قد شاخ. كان في بداية ستينياته لكنه يبدو أكبر. فهو محدودب وله كِرشٌ صغير على شكل بيضة. وكان خدّاه الرصاصيان مطعّمين بزركشة من العروق المقطّعة. ومع ذلك فقد أعطى انطباعًا – ماذا أسمي ذلك – بالتوازن، ما بدا جديدًا عليه. كان الأمر كما لو أنه أخيرًا يشغل مساحة فُصّلت بالضبط على مقاسه. أيام عرفتُه كان تاجر صور وأنتيكات متواضع. الآن له حضور، مظهر يُداني سيماء الملوك، الأمر الذي أكّد عليه ديكور بار والي السوقي. صحيح

أن التعبير المعتاد، الشاطر والخجول في نفس الوقت، كان لا يزال يُطِل من عينيه، لكن كان علي أن أدقّق النظر حتى أجده. بدأ يبتعد عني تدريجيًا وهو لا يزال يبتسم بوَسْوَسَة. لكنْ لابد أنه هو أيضًا لمح شيئًا مألوفًا في عيني، وأخيرًا عرفني. ضحك وكأنما يتنفس الصُعَداء وهو يلقي نظرة عجلى حول البار. لقد تذكرتها، تلك النظرة. يبدو وكأنه اكتشف لتوه أن فتحة بنطلونه مكشوفة فأراد أن يعرف إذا ما كان أحد انتبه لها. قال: فريدي! حسنٌ حسن! وأشعل سيجارة بيد ليست خالية تمامًا من الرعشة ثم أطلق هَبّة دخان ضخمة تجاه السقف. كنت أحاول أن أتذكر متى كانت أول مرة قابلتُه. كان يجيء إلى كولغرينج في حياة أبي ويمكث في البيت. حضوره مريب وكأنه يعتذر عن شيء. أمضوا صغر سنهم معًا، هو وأبواي. أثناء تناوُلهم شرابَهم كانوا يستعيدون حَفْلَات نوادي الصيد السنويّة قبل الحرب والرحلات المستعجلة إلى دبلن لحضور عرض الأَحصِنة وما إليه. كنت أستقبل هذه الحكايات بازدراء لا حدود له، لاويًا شفتي المراهقة الزغباء. بدوا كممثلين يحاولون مستميتين مع كوميديا قديمة ومبتَذَلة تدور أحداثها في قاعة استقبال، مُبالغين في أدائهم إلى حدٍّ جنوني، بالذات منهم أمي بأظافرها القرمزية وتجعيدة شعرها المعدنية وصوتها الأجش المنقوع في الجين والدخان. لكنْ حتى أكون منصفًا مع تشارلز، لا أظنه كان يؤيد وهم الأيام الخوالي ذاك. لم يكن بوسعه أن يتجاهل رعشة الهستيريا المنمنمة التي كانت تجعل حلق أمي المنتفخ بداء الغدّة الدرقية يتذبذب، ولا الطريقة التي يطالعها بها أبي أحيانًا متوازنًا على حافة كرسيّه ومتحفزًا ككلب سلوقي، عيناه جاحظتان وشاحبتان بتعبير اشمئزاز غير مُصدِّق. حين يَشرعان في ذلك، كلاهما، كانا ينسيان كل شيء – ابنهما، صديقهما – وقد قيّدهما

الواحد إلى الآخر شيءٌ أشبه بسَكْرَة الموت. وكان معنى ذلك أن تشارلي وأنا كثيرًا ما ينتهي بنا الأمر أحدنا في صحبة الآخر. كان يعاملُني بتوجّس، وكأني عبوة يمكن أن تنفجر في وجهه في أي لحظة. كنتُ ضاريًا في تلك الأيام، أطفح نفاد صبر واحتقارًا. ولابد أننا كنا قرينين لافتين، مع أننا تآلفنا على مستوى عميق. لعلني بدوتُ له كالابن الذي لن ينجبه أبدًا، ولعله بدا لي الأب الذي لم ينجبني. (هذه فكرة أخرى طرحها محاميّ. لا أعرف من أين تأتي بهذه الأفكار يا "ميلشاخلين".) ماذا كنت أقول؟ تشارلي. أخذني إلى السباق ذات يوم، حين كنت صبيًا. كان يرتدي الطقم المناسب للغرض تمامًا: بدلة "تويد"[23] وحذاء "بروغ" بنيًا وقُبّعة "تريلبي"[24] مقلوبة بزاوية شَقِيَّة فوق إحدى العينين. حتى المنظار الثنائي كان معه، مع أنه لم يستطع أن يضبط بؤرة العدستين حتى يستخدمه كما بدا لي. كان شكله مقنعًا، باستثناء شيء ما مكبوت في أدائه جعله يبدو طوال الوقت كما لو كان على وشك الانهيار في قهقهة مكتومة على نفسه وعلى ادعاءاته. كان عمري خمسة أو ستة عشر. في سرادق الشراب استدار إلي دون مبالاة وسأل أي ويسكي أفضّل، الأيرلندي أم الأسكتلندي؟ وأعادني إلى البيت في المساء ثملًا بعنف وصخب. أبي غضب جدًا، أمي ضحكت. حافظ تشارلي على صمت أملس متظاهرًا بأن كل شيء على ما يرام، ودسّ في يدي ورقة بخمسة جنيهات وأنا أتخبّط إلى سريري.

آه يا تشارلز، أنا آسف. حقًا آسف.

الآن، وكأنه هو الآخر يتذكر ذلك الزمن الآخر، أصرّ أن يشتري لي كأسًا، وزمّ شفتيه مستهجِنًا حين طلبتُ الجين. كان من شاربي الويسكي، عن نفسه. إن هذا جزءٌ من قِناعه، كالبدلة المقلّمة والحذاء

البالي يدوي الصنع وخوذة الشَعر المجنّحة الرائعة هذه، وقد فُضِّضَت عن آخرها الآن، تلك التي كان يحلو لأمي قول إنها تجعل من العَظَمَة قَدَرًا له. إلا أنه دائمًا ما استطاع أن يتفادى ذلك القَدَر. سألتُه عما يفعله هذه الأيام فأجاب: أُدير قاعة عرض. وتطلّع حوله بابتسامة ذاهلة متسائلة وكأنه هو نفسه مندهش من الفكرة. أومأتُ. هذا إذن ما ينعشه ويمنحه مظهر الاكتفاء الذاتي. رأيتُه في حجرة متربة، مكان راكد منسي، وعلى الحائط بضعة صور مضببة. ورأيتُ معه سكرتيرة ليست سوى عانسٍ باردة تتشاجر معه حول تكلِفَة الطعام وتعطيه ربطة عنق ملفوفة في منديل ورقي كل عيد ميلاد. تشارلي المسكين، مُجبر على أن يحمل نفسه مَحمَل الجد أخيرًا وقد أصبح له تجارة يعتني بها، ورسامون يطالبونه بنقودهم. قلت له: دعني أنا، ها هي. وقد سَلَخْتُ ورقة من رزمتي المتضائلة باطراد وألقيتُ بها على البار.

الصراحة رغم ذلك هي أني كنت أفكّر في طلب سلفة منه. لكن ما منعني... أعلم أن ذلك سيثير الضحك في أرجاء المحكمة، لكن الحقيقة أني شعرت بأنه من قلة الذوق أن أفعل. ليس الأمر أني حساس لمثل هذه الأمور، ففي عزي لم أتورع عن سحب مصاريف النثريّات من حالات أكثر تعاسة من تشارلي، لكنّ شيئًا في الظرف الحالي مَنَعَني. كان يمكن فعلًا أن نكون أبًا وابنه – ليس أبي أنا طبعًا، ولا هذا الابن – وقد التقيا صدفة في مبغى. وبينما نشعر بالارتباك والأسى وضربٍ من الخزي الغامض، نجعجع ونتباجح معًا، ضاربين كأسينا نخب الأيام الخوالي. لكنْ لا فائدة، خلال فترة قصيرة تداعينا ولزمنا صمتًا كئيبًا. ثم نظر إلي تشارلي فجأة بما يربو على ومضةِ أَلَمٍ وبصوت خفيض مُتَّقِد قال: ماذا فعلتَ بنفسك يا فريدي؟ على الفور استحى ومال عني مذعورًا

يفترّ باستماتة وينفخ سحابة ساترة من الدخان. في البداية غضِبتُ، ثم اكتأبت. حقيقةً لم أكن في مزاج يسمح بمثل هذه الأشياء. نظرت إلى الساعة المعلّقة خلف البار ومتعمدًا إساءة فهمه قلت: نعم، صحيح أنه كان يومًا طويلًا، وأنا أُسرف في الجهد. وأتيت على شرابي ثم صافحته وحملتُ حقيبتي ذاهبًا.

ها هو من جديد، على هيئة أخرى، نفس السؤال: لماذا يا فريدي، لماذا تعيش هكذا؟ أطلتُ التفكير فيه في الصباح التالي طولَ الطريق إلى كولغرينج وقد بدا النهار كإحساسي رماديًا ومسطّحًا وثقيلًا. انطلقت الحافلة جاهدةً عبر الطُرُق الريفية الضيقة، تَسقط وتتمرّغ بأزيز مكتوم وزمجرة كأنهما صوت دَمِي يضرب في يافوخي. كانت احتمالات الماضي التي لا تُحصى ملقاةً ورائي، تُثارًا من الأطلال. هل ثمّة وسْط ذلك كله شَظية بعينها – قرارٌ اتُخذ، طريق سُلِكَتْ، لافتة اتُبعت – يمكن أن تُريَني كيف وصلت إلى وضعي الحالي؟ لا، بالطبع لا. رحلتي مثل رحلات الجميع، حتى رحلتك أنت يا حضرة القاضي، لم تكن عبارة عن لافتات وزَحف محسوم ولكنْ فقط نزوحًا، نوعًا من الانخساف البطيء، انحناءَ كتفيّ تحت التراكم التدريجي لكل الأشياء التي لم أقم بها. ومع ذلك يمكنني أن أرى أنه بالنسبة إلى شخص كتشارلي يتابعني من على الأرض لابد أني بدوت كائنًا أسطوريًا أتسلق القمم العالية، أرتفع أكثر فأكثر إلى أن أقفز أخيرًا من الذروة إلى فرار ناريٍّ خلاب، ورأسي مُكلّل بألسِنة النار. لكني لست "يوفوريون"، لست حتى أباه.[25]

السؤال خطأ، هذه هي المشكلة. إنه يفترض أن الأفعال تحدّدها الإرادة، التفكير المتعمّد، التقييم المتأني للحقائق، انتفاضات مسرح

العرائس الكثيرة تلك التي نحسبها وعينا. كنت أعيش هكذا لأني أعيش هكذا، ليس هناك جواب. حين أتطلع إلى الخلف، مهما حاولت، لا أرى قَطعًا واضحًا بين مرحلة وأخرى. إنه تدفّق سلس، مع أن كلمة "تدفق" هي الأخرى أقوى من اللازم. إنه أقرب إلى ضرب من الجمود النشيط، نوع من الجري في المكان. لكن حتى هذا كان أسرع مما أحتمل، فكنت دائمًا متأخرًا قليلًا، أَخبّ في مؤخرة حياتي. في دبلن كنت لا أزال الصبي الذي يكبَر في كولغرينج، في أمريكا كنت الشاب الغرّ الجاهز لأيام دبلن، على الجزر صرت أمريكيًا ما. ولا شيء كافٍ. كان كل شيء قادمًا، في طريقه، على وشك أن يكون. وأنا محبوس في الماضي، أتطلع عبر الحاضر إلى مستقبل دون حدود. أظن أنّه يمكن القول الآن إن المستقبل وصل.

كل هذا لا يعني أي شيء. أي شيء ذي أهمية، أقصد. إني فقط أتلهّى، أتأمل، أضيّع نفسي في هَرَج الكلمات. فالكلمات هنا هي ضرب من الرفاه والحسيّة. إنها كل ما يُسمح لنا بالاحتفاظ به من ذلك العالم الثري المتلاف الذي حُبسنا عنه.

يا الله، يا يسوع، أطلقْني من هذا المكان.

يا شخصًا ما.

لابد أن أتوقف، إحدى نوبات الصداع تصيبني. تتواتر النوبات أسرع فأسرع. لا تقلق، أيها السيد، لا داعي لاستدعاء الشرطي الذي يحمل العصا ذات الطرف معدني ولا ضابط النظام ولا أيٍ ما كان اسمه. هذا فقط صداع. لن أتحول فجأة إلى شخص مذعور أضغط صدغيّ وأصرخ على... ولكن "جبنا سيرة القط"، ها هي هنا، "ماما جاريت"[26] شخصيًا. تعالي، ادخلي منصة الشاهد يا أمي.

كان الأصيل في أوله حين بلغتُ كولغرينج. ترجّلتُ لدى الصليب وتابعتُ الحافلة تبتعد مُتثاقلةً وكأن مؤخرتها السّمينة تَسخر مني بطريقة ما. تلاشتْ جلبة المحرّك، وحلّ صمت الصيف النابض على الغيطان من جديد. ما زالت السماء غائمة، لكنّ الشمس كانت تُثْبِت وجودها في مكان ما، والضوء الذي كان كئيبًا وفاترًا اكتسب الآن لمعة ناعمة بلون اللؤلؤ. وقفتُ أتطلّع حولي. يا لِمفاجأة المألوف دومًا. كان كل شيء هناك: البوابة المكسورة، الدرب الخاص، العشب الممتد، غابة السنديان... بيتنا! كل شيء في مكانه ينتظرني، أصغر قليلًا مما تذكرتُه، مثل نموذج مصغّر لنفسه. ضحكتُ. لم تكن ضحكة حقيقة، كانت أقرب إلى شهقة عجب واستئناس. فأمام مثل هذه المشاهد – الأشجار، الغيطان الراجفة، هذا الضوء الرائق المريح للنظر – دائمًا ما أحسني مسافرًا على وشك الرحيل. وحتى في وصولي بدا أني أدير ظهري للأرض المفقودة وقد ألقيتُ عليها نظرة ستُبقي صورتها في ذهني. سلكتُ الدرب الخاص المؤدي إلى البيت ومعطفي الواقي من المطر على كتفي وحقيبتي البالية في يدي – كليشيه يسير على الأرض – سوى أني أكبر سنًا قليلًا وأكثر امتلاء من أن يليق بي دور الابن الضال. عبر سياج العُشب انسل كلبٌ أخذ يُزمجر من عمق حَلْقِه وقد كشّر عن أنيابه حتى انكشفت اللثة. توقفتُ. أنا لا أحب الكلاب. وهذا الشيء أبيض وأسود وله عينان مراوغِتان. كان يلفّ في نصف دائرة من أمامي جيئة وذهابًا ويُدمدم وبطنه قُربَ الأرض. وضعت الحقيبة أمام ركبتيّ كدِرع، وتكلّمت بحدّة وكأنما إلى طفل عنيد. لكن صوتي خرج رفيعًا ومكسورًا، وللحظة كان ثمّة شعور عام بالمرح. وكأن وجوهًا مختبئة بين أوراق الشجر تضحك عليّ. ثم سُمعتْ صفارة فأنّ الوحش الكاسر واتجه كالمُذنب نحو البيت.

كانت أمي تقف على السلالم الأمامية. تضحك. فجأة طَلَعتِ الشمس، بما يشبه دويًّا صامتًا. قالتْ: يا الله، إنه أنت. ظننتُني أتوهّم الأشياء.

أنا متردد الآن، ليس لأن الكلمات تُعوِزني بل على العكس. فمن كثرة ما يُقال لا أعرف من أين أبدأ. وأُحسّني أترنّح برفق إلى الخلف، وساعداي الممتدان يقبضان على حِمل ضخم لا وزن له لكنه صعب الانقياد. إنه شيء كثير، وفي نفس الوقت لا شيء أبدًا. لابد من التَقَدُّم بحذر، فهذه أرض خطِرة. أعرف طبعًا أن أي شيء أقوله سوف يستثير ضحكة صفراء من جانب هواة علم النفس الذين يملأون المحكمة وقد حسِبوا أنفسهم فاهمين. ففي ما يَخصّ موضوع الأمهات، لا يُسمَح بأي كلام بسيط. ومع ذلك، سأحاول أن أكون صادقًا وواضحًا. اسمها "دوروثي"، مع أن الجميع دائمًا ما يدعونها "دولي"، لا أعرف لماذا، فلا شيء فيها يشبه الدمية – "دول" – أبدًا. إنها امرأة جسيمة وقوية بوجه عريض وشَعر ثقيل كما لِزَوْجَة سمكريّ. أنا حين أصفها هكذا لا أقصد أن أكون قليل الاحترام. إنها باهرةٌ بطريقتها، مظهرها مهيب وقذر في نفس الوقت. أتذكّرها في طفولتي كحضور دائم ولكنْ عَصيّ كأنها منحوتة رومانية قديمة بعينين جامدتين ووسامة مستحيلة... مثل تِمثال رخامي في الجانب البعيد من حديقة البيت. فيما بعدُ، مع ذلك، بَدَنَت فصار نصفها الأعلى ثقيلًا، وأصبح لها مؤخرة كبيرة وساقان نحيفتان. وهو تناقض دفعني، حين كنتُ مراهقًا وعندي هوس مرضيّ بمثل هذه الأشياء، إلى استبصار المعمار المعقّد الضروري لسدّ الفجوة الواقعة تحت تنورتها بين هاتين الركبتين المشوقتين وذلك الخصر الغليظ. قلت: أهلًا يا أمي، وأشحتُ بنظري عنها أفتّش ساخطًا عن

شيء حياديّ أركّز عليه. صرت مغتاظًا بالفعل. إن لها علي هذا التأثير: بمجرد أن أقف أمامها يموج في صدري الحنَق والاستياء. وقد اندهشتُ. كنت اعتقدت أنه بعد عشر سنين سأعيش لحظة وُدّ على الأقل تفصل بين لقائنا وأول نوبات حَرقة المعدة التي تصيب الأبناء حيال أمهاتهن، ولكنْ لا أثر لذلك. فها أنا أُطْبِق فكيّ وأُحملق بحقد في خصلة عشب شيطاني ينمو من شرخ في السلالم الحجرية التي تقف فوقها. لم تكن تغيّرت كثيرًا. كان صدرها الذي يستدعي كلمة "وافر" على الفور قد تدلّى إلى ما فوق حجابها الحاجز تمامًا. كما ربّت أيضًا شاربًا صغيرًا. ترتدي بنطلونًا فضفاضًا من القطن المضلّع وسترة محبوكة بجيوب ساقطة. نَزَلَتِ السلالم آتية تجاهي وضحكت من جديد. زاد وزنك يا فريدي، هكذا قالت. سمِنتَ. ثم مدّت يدها – أقسم أن هذا حصل – وأمسكتْ بقطعة من كِرشي أخذتْ تُلفلف فيها عابثة بإصبعها وإبهامها. هذه المرأة، هذه المرأة... ماذا يمكن أن أقول؟ كنت في الثامنة والثلاثين. رجل متعدد الإنجازات، لي زوجة وابن وسُمرة فائقة من شمس المتوسّط. أتّسم بالثقل الوقور مع إيحاء خافت بالخَطَر... وهي، ماذا تفعل هي؟ إنها تَقرُص كرشي وتضحك ضحكتها المليئة بالبلغم. هل ثمة ما يُدهش في أن يكون انتهى أمري إلى السجن؟ حقًا! الآن وقد رأى أني طرف مقبول، دنا الكلب مني وحاول أن يلحَس يدي، ما منحني الفرصة لأعطيه ركلةً قوية في ضلوعه. لقد حسّن هذا مزاجي ولكن ليس كثيرًا ولا لفترة طويلة.

هل هناك ما يثير الذاكرة والشجون بشكل أقوى أو أنفذ من رائحة البيت الذي أمضينا فيه طفولتنا؟ أحاول أن أتجنّب التعميمات، كما لاحَظَتِ المحكمة ولابد، لكن أليس مؤكّدًا أن الجميع يَخبُرون هذا

الشيء: التشنّج اللاإرادي ما إن تتعرّف على أول نفحة من تلك الرائحة المتواضعة الرتيبة ذات اللون القريب إلى البني، والتي هي ليست رائحة أصلًا بل انبعاثًا، تنهيدةً تُطلِقها آلاف الأشياء المنمنمة المعروفة ولكن غير المعترف بها وقد تجمّعت لتكوّن ذلك الشي الذي نسمّيه بيتنا. خَطَوتُ إلى الصالة وللحظة بدا وكأني خطوت عبر غشاء الزمن نفسه، دون صوت. فترددتُ وارتجججتُ داخليًا. مِشجب القبعات بالمظلّة المكسورة، تلك البلاطة في الأرضية، ما زالت مُتقلقلة. "اخرج يا باتش، اللعنة"، هكذا قالت أمي من خلفي، فنبح الكلب. وفاض طعم التفاح في فمي دون تفسير. شعرتُ بشكل غامض بأن شيئًا خطيرًا قد حدث، وكأن كلَّ ما حولي أزيل بسرعة خاطفة واستُبدِل بنسخة دقيقة منه طِبق الأصل، صحيحة في كل تفصيلة حتى آخِر ذرّة تراب. واصلتُ السير إلى جوف ذلك العالم البديل محافظًا على تعبير خالٍ من التعبير على سبيل اللباقة. وبدا لي أني أسمع نَفَسًا دون جسد ينطلق بانفراج بعدما كان محبوسًا وقد نَجَحَتِ الخدعة الصعبة من جديد.

دخلنا المطبخ. بدا مِثْلَ عرين مخلوق ضخم ينبُش النفايات. يا ربي يا أمي – قلتُ – هل تعيشين هنا؟ كانت أسمالٌ مقطّعة، خِرَق امرأة عجوز لا أسماء لها، محشورةً وسط الأطباق في حاوية الصحون. وتسللتْ أطراف ثلاثة أو أربعة أزواج من الأحذية من تحت الصوّان في منظر مفزع، وكأن لابسي هذه الأحذية متحلقون معًا في جوفه، الأذرع المكتنزة ملتفة حول الأكتاف المقوّسة وهم يتسمّعون. ثمة قطع من الأثاث قد نزحت إلى هنا من أرجاء المنزل: طاولة الكتابة الصغيرة الضيقة من مكتب أبي، خزانة المشروبات المصنوعة من خشب الجوز من غرفة الاستقبال، الفوتيه ذو الظهر المائل المغطى بالقطيفة الذي نحل

ذراعاه، ذلك الذي كانت أخت جدتي "أليس" – وهي امرأة بغيضة صغيرة الحجم – تجلس عليه حين ماتت دون أن تنبس ذات أصيل يوم أحد في الصيف. الراديو العملاق الذي كان يتسيّد على غرفة الجلوس أصبح الآن مائلًا كسكران فوق لوح تجفيف الصحون يدندن بخفة لنفسه وعينه الخضراء الوحيدة تنبض. لم يكن المكان نظيفًا بحال. كان على المائدة دفتر حسابات مفتوح، وثمة فواتير وأشياء متناثرة وسط أطباق ملطّخة وفناجين شاي لم تُغسَل. إنها تُراجِع الحسابات. لوهلة فكّرت في إثارة الموضوع الأساسي على الفور – النقود، أقصد – لكني تراجعتُ عن الفكرة. وكأنها فطنتْ لما في عقلي فأخذتْ تنقل نظرتها مستمتعة من الأوراق إليّ وبالعكس. أشحتُ بوجهي عنها إلى الشباك. في الخارج على العشب كانت فتاة ممتلئة في بنطلون خيّالة تقود سلسلة من أحصنة "كونيمارا" السيسيّة[27] في دائرة. وتذكرتُ بصورة خافتة أن أمي أخبرتني بمشروع أهوج يتمحور حول هذه الحيوانات. جاءتْ ووقفت جواري. في صمت شاهدنا الأحصنة متهاديةً تدور وتدور. قالت بابتهاج: وحوش بشعة، أليس كذلك. فزاد على غليان الحنَق الذي أشعر به منذ وصولي حِسّ عام باللاجدوى. أنا دائمًا ما كنتُ عُرضة للسأم. هي حالة – أو لعلها يمكن أن تُسمّى قوة – لا يبدو أن المؤرخين وأمثالهم يقدّرون أهميتها في الشؤون الإنسانية. أعتقد أني مستعد لفعل أي شيء حتى أتجنب السأم، أي شيء. كانت أمي تتحدث عن زبائنها، وأغلبهم يابانيون وألمان كما بدا: إنهم يستولون على البلد كله يا فريدي، صدّقني. كانوا يشترون الأحصنة كحيوانات أليفة ليُربّيها نَسلهم المدلّل، دافعين ما اعترفتْ برضا أنها أسعار باهظة. مخابيل عن آخرهم، هكذا قالت. وضحكنا. ثم حل الصمت الخاوي بيننا من جديد. كانت الشمس على

العشب وغيمة بيضاء شاسعة تنبسط على رِسْلِها فوق أشجار الزان الذي يُعذّبها الحَرّ. وكنت أفكر كم هو غريب أن أقف هنا في يوم كهذا، أمارس كآبتي مَلولًا متوترًا ويداي في جيبيّ وطولَ هذا الوقت – في مكان ما في أعماقي، بالكاد مُعتَرَف بوجوده – تَقطر الفجيعة دون توقف كدماء الآلهة الفِضية، نقية وبشكل غريب أيضًا غالية. البيت، نعم، البيت دائمًا مفاجأة.

أصرّت أن أصاحبها في جولة تفتيش، كما سمّتها، للمكان. قالت: رغم كل شي، سيكون كل هذا ملكك ذات يوم. وقهقهتْ قهقهتَها الحلقيّة تلك. لا أتذكر أنها كانت تجد ما يُضحكها بهذه السهولة في الماضي. ثمة شيء يربو على الجموح في ضحكها، نوعٌ من التهتّك أزعجني، رأيته غير لائق. لقد أشعلت سيجارة وانطلقت في أنحاء البيت قابضة على علبة السجائر والثقاب في يدها اليسرى وأنا أنجرّ كئيبًا في إثرها المُدَخَّن. كان البيت يتعفّن، إلى درجة كبيرة وبسرعة أفزعتْها حتى هي في بعض الأماكن. لم تكف عن الكلام. وكنت أومئ ببلادة محدّقًا في الجدران الرطبة والأرضيات الساقطة وإطارات الشبابيك المتفسّخة. في غرفتي القديمة كان السرير مكسورًا وثمّة شيء ينمو في منتصف الفراش. كان المنظر من الشباك – الأشجار، قسم الحقل المنحدر، سطح الشونة الأحمر – دقيقًا ومألوفًا كهلوسة. ها هي الخِزانة التي صنعتُها، وعلى الفور جاءتني رؤيا لنفسي وأنا صبي صغير على وجهي امتعاضة شرسة، في يدي مِنشار ثَلِم أقطّع به فرخًا من الأبلكاش. فارتعش قلبي المفجوع وكأني لا أتذكر نفسي بل شيئًا مثل ابن لي، غاليًا ومُعرّضًا للأذى، وقد فقدتُه للأبد في أعماق ماضيّ. حين استدرتُ لم تكن أمي هناك. وجدتها على السلالم، وثمة شيء غريب في شكل ما حول عينيها. انطلقتُ من جديد. لابد

أن أشاهد الأراضي، هكذا صاحت، الإصطبل، غابة السنديان. كانت مصممة على أن أشاهد كل شيء، كل شيء.

في الهواء الطلق تحسّن مزاجي نوعًا ما. يا لِنعومة هواء الصيف هنا. لقد طال بي الوقت تحت السموات الجنوبية القاسية. والأشجار، الأشجار العظيمة... تلك المخلوقات الصبورة التي تعاني في صمت واقفة دون حراك وكأنها محرَجَة، تُشيح عنا بنظراتها التراجيدية دائمًا بشكل ما. والكلب باتش... واضح أني سأكون مجبرًا على صحبة هذه الدابة. لقد ظهر الكلب باتش يحرّك عينيه المجنونتين ويتلوى. تبعنا صامتًا عبر العشب. وبدا أن السائسة الصغيرة، وقد أخذت تشاهدنا جانبيًا ونحن نقترب، على وشك أن تسحب قدميها وتجري خوفًا. كان اسمها "جون" أو "جان"، شيئًا من هذا القبيل. مؤخرة كبيرة، صدر كبير... واضح أن أمي شعرت تجاهها بوشائج قُرب. حين كلّمتُها احمرت الفتاة المسكينة ومدت يدها القَشِفَة الصغيرة وهي تُجفل وكأنما خوفًا من أن أحتفظ بها. أعطيتها واحدة من ابتساماتي الخاصة البطيئة، وأبصرتُني في عينيها فحلّا طويلًا مُسْمَرًّا في بدلة كتانية، يميل عليها وسط مرج عشب صيفي مُوشوِشًا كلمات شرّ. نبحتْ: "تينكر"، ابتعد! كان السيسي المتفوّق – وهو حيوان متقزّم بعين مشاكسة – يدانيني جانبيًا بتلك الطريقة البليدة المصممة التي تتحرك بها الأحصنة، ويلكزني بثقله. وضعت يدي على خاصرته لأدفعه بعيدًا، ففزعت من صلابتها، من ذلك الحضور الفعلي للحيوان: كساءه الخشن الجاف، اللحم الكثيف المتماسك من تحته، دفء الدماء. مصدومًا سحبتُ يدي وخطوت إلى الخلف. فجأة جاءني حس آخر بنفسي، لم أعد الوسيم المسمر ولكني شيء آخر، شيء شاحب ورخو وناعم. وعيت إلى أظافر قدمي، إلى شرجي وعانتي الرطبة

المنقبضة. واستحيتُ. لا أستطيع أن أفسّر الأمر. أقصد أني أستطيع ولكن لن أفعل. إذاك بدأ الكلب ينبح مهاجمًا السيسي من حوافره، فشخر السيسي وكشف خطمه مقرقعًا بأسنانه المقَلقَلة. ركلتْ أمي الكلب، وسَحَبَتِ الفتاة السيسي من رأسه جانبيًا. فعوى الكلب، وضجّ صفّ الأحصنة وصهل. يا لِلجلبة. كل شيء دائمًا يتحول إلى حماقة. تذكّرتُ خُمَاري. كنت في حاجة إلى شراب.

شراب الجين في البداية، ثم نوع بشع من الشيري، ثم طاسات متتالية من نبيذ المرحوم أبي البوردو الفاخر، آخِر ما في الصندوق للأسف. كنت نصف سكران بالفعل حين نزلت إلى مخزن الخمر لأُحضر البوردو. قعدتُ على أحد الصناديق وسط العتمة وعفونة الجو أستنشق أبخرة الجين عبر منخرين مفتوحين. رُمحٌ من الضوء السّارح يبقبق فيه التراب طَعَنَ الشبّاك الواطئ المغطى ببيت العنكبوت فوق رأسي. فتكاثرت الأشياء من حولي في الظِلال – حصان هزاز مهترئ، دراجة عالية قديمة، حزمة من مضارب التنس الأثرية – وخطوطها العريضة مغشّاة، مائلة إلى اللون الرمادي، متلاشية، وكأن هذا المكان محطة برزخية يتوقف فيها الماضي في طريقه إلى أسفل، إلى الفَنَاء. ضحكتُ. آه يا ابنَ الزنا يا عجوزُ، قلت جهرًا، فطنّ الصمت مثل الزجاج حين يُضرب. كان يُمضي وقته كله هنا في الشهور الأخيرة قبل أن يموت. كان قد تحوّل إلى متسكّع هو الذي حرّكته طاقات شرسة تستحوذ عليه طوال حياته. كانت أمي ترسلني إلى أسفل بحثًا عنه، ماذا لو أن شيئًا حصل له كما كانت تقول بطريقة رقيقة. وكنت أجده يُقلّب في الأركان أو يعبث بالأشياء أو واقفًا فقط، مائلًا بزاوية غريبة يحدّق في

لا شيء. وحين أتكلم كان يفز فزة هائلة ويهاجمني بغيظ، مستشيطًا وكأني ضبطته يفعل شيئًا مُشينًا. لكنّ فورات الحِراك هذه لم تكن تدوم طويلًا، فخلال لحظات كان ينساق من جديد إلى الضبابية. وكأنه يحتضر ليس جرّاء مرض ولكنْ من الالتهاء العام... وكأن شيئًا لفت انتباهه ذات يوم وهو وسط أفعاله المتّقدة وأغواه من وسط الظلام فما كان منه إلا أن أُصيب وخطا جانبًا ثم سار باتجاه ذلك الشيء بتركيز متألم وحائر كتركيز السائر نائمًا. كان عمري – ماذا – اثنين وعشرين، ثلاثة وعشرين. وقد أنهكتني وأسخطتني عملية موته الطويلة بالدرجة نفسها. طبعًا أشفقت عليه أيضًا، لكني أعتقد أن الشفقة لم تكن بالنسبة إليّ إلا النسخة المسموح بها من الرغبة في الإمساك بشيء ضعيف وهَزّه بقسوة. لقد بدأ يتضاءل. فجأة صارت ياقات قمصانه كبيرة على عنق السلحفاة الذي يرتجف بين كتفيه من فوق وَتَرَين أشبه بوَتَري قيثارة مُرتخيين. كل شيء صار كبيرًا عليه، صار لثيابه جسم أكثر مما له هو، فبدا أنه يتخبط في جوفها. كانت عيناه هائلتين ومسكونتين، تتضببان فعلًا. إذاك كان الوقت صيفًا أيضًا. لكنّ الضوء لم يعد هو الوسط الذي يُمارِس من خلاله إبداعه كفنان، كان يفضّل هذا المكان السُفلي حيث عتمة الطحالب والظلال الآخذة في التقعّر.

أنهضتُ نفسي بصعوبة وجمعت مِلء ذراعي من القناني المتربة وصعدتُ بها مترنحًا على السلالم الحجرية الرطبة.

ولكنه مات في القسم العلوي، في غرفة النوم الكبيرة الأمامية، أفضل غرف البيت تهوية. كان الجو حارًا طوال ذلك الأسبوع. فتحوا الشباك على مصراعيه، وهو جعلهم يحركون سريره حتى أصبح طرفه في جوف النافذة الفرنسية. كان يرقد وقد أزاح الأغطية بصدره الضئيل

عاريًا، مستسلمًا للشمس، للسماء الشاسعة، محتضرًا باتجاه الوَهَج الأزرق الذهبي للصيف. يداه. إيقاع أنفاسه السريع. الـ...

كفى. كنت أحكي عن أمي.

لقد وضعتُ القناني على المائدة، وكنت أمسح عنها التراب والعنكبوت حين أخبرتني أنها كفّت عن الشّرب. كانت هذه مفاجأة، ففي الأيام الخوالي كان باستطاعتها أن تُجاري أقدر الرجال على شرب الخمر. حدّقت فيها فهزت كتفيها وأشاحت بنظرها عني. قالت: "أوامر الطبيب". فتفحّصتها باهتمام متجدد. هناك علّة ما في عينها اليسرى، وفمها يتدلى قليلًا في هذا الجانب. راجعت الطريقة الغريبة التي قبضت بها على علبة السجائر والثقاب في يدها اليسرى حين كانت ترشدني عبر أرجاء البيت. هزت كتفيها مرة ثانية. "سكتة خفيفة" قالت – "السنة الماضية". فكّرت كم هو تعبير غريب: سكتة خفيفة. وكأنّ قوةً خيّرةً ولكن خرقاء سدّدت لها ضربة مُحبّ عابثة فآذتْها خطًا. تطلّعتْ إليّ جانبيا الآن بابتسامة صغيرة حزينة وخجلى تكاد تكون لِبنت. كانت وكأنها تعترف بشيء، زلّة ما، تافهة ولكن محرجة. قلت: "يحزنني ذلك يا عجوزي" وحثثتها على تناول قليل من النبيذ، "ملعون أبو الأطباء". فبدا أنها لا تسمعني. إذاك حدث شيء فعلًا مدهش. الفتاة جون أو جان – لأسمّها "جين" على سبيل الحل التوافقي – نهضتْ فجأة من مكانها وبغُصّة أسىً وضعت ذراعها متخبّطة حول رأس أمي، قابضة عليها فيما يشبه مَسْكَة مصارع لغريمه، وألقت بيدها على جبينها. توقعت أن تدفعها أمي عنها فورًا وتقول لها ابتعدي، لكن لا. لقد ظلت في جلستها تستقبل حضن الفتاة بهدوء وتُواصِل النظر إليّ بتلك الابتسامة الصغيرة. حملقتُ فيها مشدوها أمسك بقنينة النبيذ معلّقة في الهواء فوق كأسي.

كان أغرب شيء. كان وِرك الفتاة الضخم جنب كتف أمي، وفكرت رغمًا عني في السيسي وهو يضغطني على العشب بذلك التركيز البهيمي العنيد. ساد صمت. ثم التقطت الفتاة، أقصد جين، عيني، وشحبتْ. فسحبتْ ذراعها وعادت إلى الجلوس في عجلة. ها هو السؤال: إذا كان الإنسان حيوانًا مريضًا، حيوانًا مجنونًا – وهو ما تتوفر لي أسباب اعتقاده – فما هو إذن تفسير إيماءات الخير والحرص الطَوعِية هذه؟ هل يخطر ببالك، سيدي، أن الناس الذين من عيّنتنا أنا وأنت – إذا ما سُمح لي أن أزحف بسرعة وأتسلق المنصة لأشارك الجلوس هناك لحظة، يعني – أننا فاتنا شيء، أقصد شيئًا عموميًا، مبدأ معمّمًا هو من الوضوح والبساطة بحيث لم يفكر أحد أبدًا في إعلامنا به؟ كلهم يعرفون ما هو، يا صديقي العلّامة، معرفته هي شارة جماعتهم. وهم في كل مكان، الحاصلون على عضوية نادي الحزانى ذاك، دون عدد. يتطلّعون إلينا من مقصورة المحكمة ولا يقولون شيئًا. فقط يبتسمون قليلًا بذلك المزيج من التعاطف وحس المفارقة المُشفِق، كما كانت أمي تبتسم لي الآن. لقد مدّت يدها من فوق المائدة وربتت على يد الفتاة قائلة لها ألا تنتبه لي. حدّقتُ. ماذا فعلتُ الآن؟ جلست الطفلة وعيناها مثبّتتان على صحنها وهي تتحسّس شوكتها وسكينها بعماء. كان خداها مشتعلين، أكاد أسمعهما يطِنان. هل صنعتْ كل هذا نظرة واحدة مني؟ تنهّدتُ أنا الغول المسكين، وأكلتُ حبة بطاطس. كان قلبها نيئًا وشمعيًا. المزيد من الشراب.

قالت أمي: عساكَ لم تُصَب بنوبة مزاج سيّئ يا فريدي؟

تُرى هل ذكرتُ نوبات مزاجي السيّئ. إنه أسود أسود، بالغ السواد. وكأن العالم غام فجأة، وكأن شيئًا وسّخ الهواء. حتى أيام كنتُ

طفلًا كانت نوبات اكتئابي تخيف الناس. جاءتِ الحالة؟ كانوا يقولون ويضحكون، ولكن بقلق وهم يبتعدون عني. في المدرسة كنت مروِّعًا... لكن لا، لا، سأوفّر عليكم أيام المدرسة. لاحظت أن أمي لم تعد تتأثر بكآبتي. كانت ابتسامتها، مع ذلك التدلي في طرف فمها، تتحول إلى تهكّم صريح. قلت إني رأيت تشارلي فرينش في البلد. فقالت: آه، تشارلي. وهزت رأسها وضحكت. أومأتُ. المسكين: إنه ذلك النوع من الأشخاص الذي يقول عنه الناس "آه" هكذا. ويضحكون. صمتٌ آخرَ فاتر. ماذا في الدنيا جعلني أعود إلى هنا؟ التقطتُ القنينة، واندهشتُ حين وجدتُها فارغة. فتحتُ أخرى وقد ثبّتها بين ركبتي ورحت أهتز وأنخر وأنا أخلع السدادة. آه! خرجت مع صوت فَرقَعَة مرح. في الخارج على العشب تكاثف آخِرُ ضوء النهار بإيجاز ثم خفت. كانت أمي تسأل عن دافني والصغير. وعلى سيرتهما انتفخ وراء عظمة صدري شيء مثل نوبة نشيج ضخمة، جنائزية وكوميدية نوعًا ما. نظّفتُ جين – لا، لا أستطيع أن أسميها جين – نظّفت جون المائدة، وأخرجت أمي من كل ما يمكن أن تُخرجه دورقًا من البورت دفعته على المائدة تجاهي. قالت وقد افترّت بالابتسامة ذاتها: لا تريدنا أن نخلد إلى أسرّتنا بعدُ، أليس كذلك؟ يمكنك أن تعتبرني رجلًا على أي حال، فأنا أثَرِيّة بما يكفي. وبدأتُ أحكي لها عن مشاكلي المالية بجدّ لكني وقعتُ في تشوّش واضطُررت للتوقف. ثم إن شكًا كان راودني في أنها لا تستمع إلي. كانت جالسة ونصف وجهها إلى الشباك حيث ضوء المساء بلون النيكل، عيناها رمصاوان وهي في شيخوختها تُظهر الجبين العريض وعظام الخد المرتفعة لأسلافها الهولنيين، أتباع "الملك بيلي"[28]. ينبغي أن ترتدي طوق رقبة يا ماما، وقلنسوة دانتيلا. ضحكتُ بصوت عال، ثم امتعضتُ. كان الخدر يصيب وجهي. عرضتُ

جان علي فنجان قهوة، بحذر. فقلت لها بجدية، بنبرة نبيل إسباني: لا، شكرًا، يا عزيزتي. وأشرت إلى كأس البورت الخاص بي، والذي لاحظت أنه فارغ دون مبرر فملأته من جديد، ناظرًا بإعجاب إلى ثبات اليد الممسكة بالدورق. مر وقت. كانت الطيور تزقزق في الغسق الأزرق الرمادي، وأنا أجلس مشدوهًا، منتصب القامة، أستمع إليها. ثم مع شخير وشهيق استنهضتُ نفسي ونظرت حولي أمصمص شفتي وأرمش. أمي والفتاة لم يكونا هناك.

مات في المساء. كانت حرارة اليوم الطويل لا تزال تُثقِل الغرفة وأنا جالس في كرسي جوار سريره أمام الشباك المفتوح ممسك بيده. يده. ملمسها الشمعي. وكم كان الهواء ساطعًا من فوق الشجر، ساطعًا وأزرقَ مثل سموات الطفولة اللامنتهية. لففتُ ذراعي حوله، ألقيت يدي على جبينه. قال لي: لا تهتم بها. قال...

توقف عن ذلك، توقف. أنا لم أكن هناك. لم أحضر موت أحد. مات لوحده، انسل ولا أحد منتبهًا، تركنا لشؤوننا. حين وصلت من المدينة كانوا قد حزّموه استعدادًا للتابوت. كان راقدًا على السرير ويداه مطويتان فوق صدره وعيناه مقفلتان بشدة مثل طفل يتصرف بأدب. كان شعره مصففًا وثمة قُصّة منمّقة فوق جبينه. وأتذكر أن أذنيه كانتا شديدتي البياض. شيء استثنائي حقًا: كل هذا الغضب والسخط، هذا النشاط الثائر الذي لا مَحَطّ له... انتهى.

أخذتُ ما بقي من البورت وصعدتُ إلى أعلى مترنحًا. كانت ركبتاي ترتجان، وشعرت وكأني أحمل جسدي على ظهري. بدا أن أماكن مفاتيح الضوء تغيّرتْ. في العتمة ظللت أصطدم بأشياء، فأسبّ وأضحك. ثم عرفتُ الطريق خطًا إلى غرفة جوان. (جوان: هذا هو!) لابد أنها كانت

يقِظة فسمعتني أتخبط، لم أكد أفتح الباب حتى أضاءت لمبتها. وقفت متأرجحًا على عتبتها أحملق فيها. كانت راقدة في سرير شاسع مرتخ والملاءة مرفوعة إلى ذقنها. ولسبب ما كنت مقتنعًا أنها لا تزال ترتدي بنطلون الخيالة و"البلوفر" الفضفاض وحتى حذاء الركوب. لم تقل شيئًا. فقط ابتسمتْ لي بخوف، وللحظة جامحة فكرت في الدخول إلى جوارها دون أن أخلع حذائي لعلها تحتضن رأسي أنا في ذراعها الممتلئة البضة، رأسي المسكين الذي لا يكف عن الدوران. لم أكن لاحظت جيدًا من قبل شَعرَها الأحمر الناري الاستثنائي. كادت تُبكيني رؤيته متناثرًا على المخدة في ضوء اللمبة. ثم مرت اللحظة وبإيماءة وقورة انسحبتُ في صمت، مثل شبح حزين عجوز وأشيب وآخذ في التلاشي. وخطوت بحذر وانضباط عبر البسطة إلى الغرفة التي أُعد لي فيها سرير. وهناك اكتشفت أني أضعت البورت في مكان ما في الطريق.

قعدتُ على حَزّ السرير وذراعاي متدليتان بين ركبتي، وشعرتُ فجأة بالإجهاد. كان رأسي يئز وعيناي تحرقانني، ومع ذلك لم أستطع أن أُرقِد نفسي لأنام. كنت مثل طفل عاد إلى البيت بعد يوم مليء بالنزهات الجامحة. لقد قطعتُ مسافة طويلة في السفر. ببطء، وبحركات كأنها تحت الماء، حللتُ رباط حذائي. سقطتْ فردة، ثم...

صحوت بوثبة مخيفة وأذناي تطنان، وكأن انفجارًا حدث في رأسي. حلم: شيء ما عن اللحم. كان هناك ضوء، لكن هل هو الفجر أم أنه الغسق ما زال، لم أكن متأكدًا. رمادي. ولا كنتُ أعرف أين أنا. حتى حين أدركت أني في كولغرينج لم أتعرف على غرفتي أول الأمر. إنها عالية جدًا وطويلة جدًا، بشبابيك شامخة تهبط حتى تصل إلى الأرض. إنها رثّة أيضًا بطريقة غريبة تنمّ عن إحساس بالتوهّم، وكأنها واعية بأنها كانت مكانًا مهمًا. نهضتُ عن السرير بحذر وذهبت أتطلع عبر المرج. كان العشب رماديًا، وثمة ظلال بلون الحَمَام تحت الأشجار. دوّى يافوخي. لابد أنه الفجر: في غابة السنديان، تحت سماء حديدية، كان طائر وحيد يختبر الهواء المستضيء بنغمة "فلوت" واحدة يكرّرها. ضغطت جبيني في زجاج الشباك، فارتعشت إزاء ملمس الزجاج اللزج البارد. مر القسم الأكبر من الأسبوع وأنا مسافر، آكل قليلًا وأشرب أكثر من اللازم، والآن قد لحق بي تأثير ذلك. كان جفناي كالنار، وبصاقي بطعم الرماد. بدا لي أن الحديقة تراقبني بطريقتها المتلصصة الكتومة، أو أنها على الأقل واعية بي بشكل ما – وأنا منكوب هنا، يؤطرني الشباك، أعصر يديّ متطلعًا إلى الخارج... وكم مِن آخرَ بهذا الوصف مر عليها، عبر السنين؟ – بينما ظلام الغرفة الذي لا وزن له يضغط على ظهري. كنت نمت بثيابي.

الرُؤيا. (تحتاج المحكمة أن تُنصت إلى رؤاي.) يرجع إلي فجأة. لم يحدث فيه الكثير. رُؤايَ ليست من تلك الخلطات الزاخرة التي يدّعي الآخرون أنها من نصيبهم. إنها فقط أحوال شعورية أو بالأحرى أمزجة، أخلاط محدّدة، عواصف من العاطفة كثيرًا ما تصاحبها تأثيرات جسدية. أبكي، أو أضرب بأطرافي، أُطبق أسناني بعضها على

بعض، أضحك، أصيح. في هذه الحالة كان ما حصل تهوّعات في جافة، ذكّرني بها وجع حلقي حين صحوتُ. كنت حلمتُ بأني أقضُم عظمة الصدر المخلوعة لمخلوق ما، ربما إنسان. بدا أنها سُلقتْ مُسبَقًا، لأنّ اللحم الذي عليها كان طريًا وأبيض وبالكاد دافئًا الآن، وكان يتفتتْ في فمي كالشحم فيجعلني أهم بالتقيّؤ. صدّقوني سيادتكم، أنا لا أستمتع برواية هذه الأشياء أكثر مما تستمع المحكمةُ بسماعِها. وهناك ما هو أسوأ قادم، كما تعلمون. على أي حال كنت هناك أمضُغ كتل اللحم الفظيعة هذه دون أسنان، وبطني يجيش حتى وأنا نائم. هذا كل ما هناك فعلًا، خلاف إحساس مُبَطَّن بتعدٍ مفروض علي ولكنه ممتع بطريقة مقزّزة. انتظروا لحظة. أريد أن أصف ذلك بشكل صحيح فهو مهم، لست متأكدًا لماذا. سلطة ما دون اسم كانت تُجبِرني على هذا الفعل البشع، كانت واقفةً خلفي وذراعاها متشابكتان بعِند بينما أنا أمص وأُريّل. ورغم ذلك – أو ربما حتى بسببه، رغم الرعب والغثيان أيضًا – كان شيء ما في أعماقي يتهلّل.

بالمناسبة، وأنا أتصفّح معجمي يَلفت انتباهي فقر اللغة فيما يتعلّق بتسمية أو وصف السوء. الشر، الإثم، الأذى... هذه الكلمات توحي بالمسئولية، الفعل الواعي أو على الأقل الإيجابي. لا تدل على السيّئ في حالته الجامدة، المحايدة، المكتفية ذاتيًا. ثم تأتي النعوت: مخيف، شنيع، مقيت، وضيع... وهكذا. إنها لا تَصف بقَدر ما تُطلِق أحكامًا. تحمل ثقل اللوم ممزوجًا بالخوف. أليس هذا وضعًا غريبًا بالفعل؟ يدفعني إلى التساؤل. وأسأل نفسي إن كان الشيء نفسه – السوء – لا يوجد من الأصل ربما، إن كانت هذه الألفاظ المبهمة غير الدقيقة مجرّد حيلة ما أو ستارٍ معقّد لحقيقةِ أنّ لا شيء هناك. أو ربما الألفاظ هي

محاولة لأن يكون هناك شيء؟ أو من جديد ربما هناك شيء فعلًا، لكن الألفاظ هي التي اخترعتْه. إن هذه الاعتبارات تصيبني بالدوار وكأن ثُقبًا انفتح في العالم لفترة وجيزة. عمَّ كنت أتحدث؟ أحلامي، نعم. هناك الرؤيا المتكررة، تلك التي... لكن لا، لا، لنتركها لوقت آخر.

أنا واقف أمام الشباك في غرفة نوم أبوَيّ. نعم، كنت أدركتُ أنها هي أو كانت هي غرفة نومهما. وكان لون الفجر الرمادي يتراجع أمام الصبغة الشاحبة للضوء. كانت شفتاي دَبِقَتين من بورت الليلة البارحة. وكانت الغرفة، البيت، الحديقة والغيطان... كل شيء كان غريبًا عليّ. لم أتعرّف عليه اليوم. كان غريبًا ومع ذلك معروفًا أيضًا مثل مكان في – نعم – في حلم. وقفت في بدلتي المجعدة، برأسي المصدّع وفمي الموسّخ وعيناي متسعتان دون أن أكون يقِظًا، أُحدّق ثابتًا إلى بقعة من الحديقة تضيئها الشمس بالذهول المخدّر لشخص فاقد الذاكرة. لكن ألستُ هكذا دائمًا، بدرجة أو أخرى؟ حين أفكّر في الأمر، يبدو أني عشت معظم حياتي بهذه الطريقة، معطّلًا بين النوم واليقظة، غيرَ قادرٍ على التفرقة بين الحلم وعالم النهار. في ذهني أماكن ولحظات وأحداث من السكون والعزلة بحيث لا يمكنني أن أتيقن مما إذا كانت حقيقية. لكنْ لو كنت تذكرتها هذا الصباح لصفعتْني بوضوح وقوة أكثر من الأشياء الحقيقية المحيطة بي. مثلًا، ثمة ردهة في بيت مزارع ذهبت إليه ذات مرة كطفل لأشتري تفاحًا. إني أبصر الأرضية الحجرية المدهونة، حمراء بلون رداء الكاردينال. أستطيع أن أشمّ الدهان. ثمة زهرة "جيرانيوم" مشوّهة في أصيص، وساعة بندول كبيرة دون عقرب دقائق. أستطيع أن أسمع زوجة المزارع تتكلم في أعماق البيت المعتمة، تطلب شيئًا من شخص ما. أستطيع أن أستشعر الغيطان المحيطة، الضوء فوق الغيطان، ذلك

اليوم الشاسع البطيء من أيام آخِر الصيف. أنا فعلًا هناك. في تلك اللحظات المستعادة أكون هناك كما لم أكن أبدًا في كولغرينج، كما لم أكن أبدًا ولا أكون في أي مكان في أي وقت، وكما لم أكن أو لم يكن جزء جوهري مني هناك حتى في ذلك اليوم الذي أتذكّره، يوم ذهبت لأشتري التفاح من زوجة المزارع في المزرعة وسط الغيطان. لم أكن في أي مكان بالكامل ولا مع أحد أبدًا. هذه طبيعتي. حتى كطفل بدوت لنفسي وكأني مسافر تأخّر عن ركبه أثناء رحلة عاجلة. كانت الحياة انتظارًا غير مقبول وأنا أتمشى جيئة وذهابًا على الرصيف أرتقب القطار. كان الناس يمرون فيعيقون رؤيتي وأضطر لمَدّ عنقي إلى أعلى لأبصر من خلالهم. نعم نعم، لا شك أن هذه طبيعتي.

تلمّست طريقي عبر البيت الصامت إلى المطبخ. في ضوء الصباح كان للغرفة هيئة مبالَغ في تنظيفها وكأنها متحفزة. كنت أتحرك بحذر، نافرًا من أن أكدّر مُناخ الترقب الساكن، شاعرًا بأني طرف من الأطراف التي لم تُكرّس لدى مراسم الضوء والطقس الجليلة هذه. كان الكلب يرقد على سجادة قديمة وقذرة جنب الموقد وخطمه بين حوافره يتطلع إلي وقد ظهر هلال أبيض في كل واحدة من عينيه. صنعت برادًا من الشاي، وكنت جالسًا إلى المائدة أنتظر أن ينتقع حين دخلت جوان. كانت ترتدي روبًا بلون فئراني ممشوقًا بإحكام حول حجابها الحاجز. وكان شعرها مربوطًا في ذيل حصان كثيف بدا ملائمًا. كان لونه استثنائيًا بالفعل، لون كلهيب نَضِر بين الأحمر والبنيّ. على الفور، وليس للمرة الأولى، وجدتُني أتخيّل كيف يكون الزَغَب في أماكن أخرى منها، ثم أصابني الخزي وكأني تعدّيت على الطفلة المسكينة. حين رأتني طبعًا تسمّرت مستعدّة للفرار. رفعتُ براد الشاي في إيماءة ودودة ودعوتها

لتشاركني فأغلقت الباب ودارت حولي بابتسامة مُرَوَّعة، محافظةً على المائدة بيننا، ثم أخذتْ قدحًا وطبق القدح من على الرف. لها كعبان أحمران وسِمّانتان سميكتان شديدتا البياض. حسِبتُ أنها في السابعة عشرة من عمرها أو نحو ذلك. وعبر ضباب خُماري خطر لي أنها بالتأكيد تعرف شيئًا ما عن أحوال أمي المالية، مثلًا ما إذا كانت هذه الأحصنة تُدِرّ ربحًا. فأعطيتها ما قصدتُ أن يكون ابتسامة صبيانية مُشجِّعة وإن كنت أشك في أنّ ما بدا منّي هو نظرة شزراء مكسورة، وطلبتُ منها أن تقعد فلابد لنا من ثرثرة. إن الشاي مع ذلك ليس لها ولكن لأمي. لدولي، كما قالت. حسنٌ، فكرتُ. هو لدولي لا أقلّ! انصرفتْ على الفور تقبض على طبق القدح بكلتا يديها وتُثبّت ابتسامتها المتوترة على السائل المرتعش في القدح.

بعدما ذهبتْ قلّبتُ في المكان نكِدًا بعض الوقت أبحث عن الأوراق التي كانت على المائدة أمس، الفواتير والسجلات وكعوب دفاتر الشيكات. لكني لم أعثر على شيء. كان أحد أدراج طاولة الكتابة الآتية من مكتب أبي مقفلًا. فكّرتُ في كسر القفل لكن كبحتُ نفسي، ففي هذا المزاج وأنا أعاني من الخُمار كان يمكن أن أحطّم الطاولة كلها إربًا.

تجوّلتُ عبر البيت حاملًا قدح الشاي معي. في غرفة الاستقبال كانت السجادة قد أُزيلت، وثمة لوح زجاج مكسور في أحد الشبابيك وزجاج على الأرض. لاحظتُ أني لا أرتدي حذاء. فتحتُ باب الحديقة وخطوت إلى الخارج بجوربي. ثمة رائحة عشب دفّأته الشمس ومسحة رَوَث خافتة في الهواء الحريري المشطوف. ظِلُّ البيت القاتم مُلقى على العشب مثل ديكور مسرح منهار. غامرتُ بخطوة أو اثنتين في التربة الطيّعة، والندى يتصاعد بين أصابع قدمي. شعرتُ كما لو أني رجل

عجوز أغدو مرتعشًا وقدحي يقرقع في صحنه وثَنْيَتا بنطلوني مبتلتان ومجعّدتان حول كاحليّ. لم يهتم أحد بأحواض الورد الواقعة تحت الشباك منذ سنين، وكانت كتلة متشابكة من الأغصان الشائكة تعربد لدى العتبات بينما الوردات الباهتة تتدلى في عناقيدَ ثقيلةٍ كالقماش. هذه الدرجة الشاحبة من الزهري بالتحديد، مع حدة الضوء والظل في المشهد عمومًا، نبّهتني لشيء ما. توقفتُ مُقطّبًا. إنها اللوحات... طبعًا. فعدت أدراجي إلى غرفة الاستقبال. الجدران خالية بالفعل، وثمة رقعة مربعة هنا وهناك حيث ورق الحائط لم يبهت بنفس القدر. هي بالتأكيد لم... وضعتُ قدحي بحذر على رف المُصطلى. الغانية! هكذا قلتُ جهرًا. تركتْ قدماي خلفي علامات بليلة وَتْرَاء على خشب الأرضية.

تفقّدت غرفة وراء غرفة أتفحص الجدران. ثم اضطلعتُ بالقسم العلوي مع أني أعرف أنه لن يكون هناك شيء. وقفت على بَسْطة الطابق الأول أسبّ دون صوت. كانت هناك أصوات على مقربة. بقوة فتحت باب غرفة نوم. أمي وجوان مضطجعتان جنبًا إلى جنب في سرير الفتاة الكبير. نظرتا إليّ بذهول، وللحظة تلجلجتُ وقد لامس وعيي شيءٌ مثلُ خفقة جناح وقد تكهّنتُ بشيء لا يُصدَّق. كانت أمي ترتدي سترة نوم صفراء محبوكة مع كرات من الصوف و"فيونكات" من الساتان، ما جعلها تبدو مثل مَسخ كتكوت من كتاكيت عيد الفصح نما إلى درجة مخيفة. بهدوء أدهشني قلت: أين اللوحات بالله؟ تلا ذلك فاصل من الوشوشة الكوميدية وأمي تقول: ماذا؟ ماذا؟ وأنا أصرخ: "اللوحات، اللوحات اللعنة!" في النهاية كان علينا كلينا أن نخرس. كانت الفتاة تشاهدنا، تحوّل عينها من أحدنا إلى الآخر ببطء مثل متفرّج في مباراة تنس. الآن غطت فمها بيدها وضحكتْ. حملقتُ فيها فتورّد

وجهها. ساد صمتٌ وجيز. وبصوت يجمّده الثلج إلى درجة أنه يطقطق قلت: سأراكِ تَحْتُ يا أمي.

وبينما أَخرج من الباب ظننتُ أني أسمعهما كلتيهما تكبتان الضحكات.

وصلتُ أمي إلى المطبخ حافية. أغضبني منظر تورُّم إبهام قدمها وأظافرها الصفراء. كانت قد لفّت نفسها في فستان بيتي مستحيل من نسيج "حرير النار"[29]، وعلى وجهها النظرة المتوردة لإحدى الغانيات المعطوبات لـ"لوتريك"[30]. حاولتُ أن أُبدي أقل ما يمكن من الاشمئزاز الذي أصابني. وهي تلهّت عني متظاهرة باللامبالاة، متجاهلة وجودي. حسنٌ؟ قلت. لكنها فقط رفعت حاجبيها وقالت: حسنٌ ماذا؟ كانت تداري ضحكتها، أو تكاد. قُضي الأمر. صرختُ، لوّحتُ بقبضتي، دبدبتُ بقدمي وساقاي متصلبتان... خرجتُ عن طوري تمامًا. كنت أصيح. أين هي اللوحات، ماذا فعلتْ بها؟ أنا أطالب بأن أعرف. إنها ملكي، ميراثي، مستقبلي ومستقبل ابني. إلى آخره. أعجبني غضبي، ثورتي على ما حسبته تعدّيًا عليّ. وكنت قادرًا على أن أذرف الدموع، إلى هذا الحد كنت أشعر بالرثاء للذات. تركتْني أواصل على هذا النحو برهة وقد وقفت ويدها على وركها ورأسها مائل إلى الخلف تتأملني بهدوء ساخر. حتى سكت لألتقط نفسي فبدأت. أطالب... أنا؟ أنا الذي غادرتُ هاجِرًا أمي المترمّلة، الذي انسللتُ إلى أمريكا وتزوّجت دون حتى أن أُعلمها، الذي لم أُحضِر طفلي – حفيدها – مرة ليراها... أنا الذي أمضيت عشر سنين أتسكع في أنحاء العالم مثلَ غجري لا أقوم بملء كف من العمل بينما أعيش من جنيهات أبي الميت القليلة وأمص دم قريتنا... بأي حق – صاحتْ – بأي حق أطالب بأي شيء هنا؟ سكتتْ

وانتظرتْ، وكأنها تتوقع إجابة بالفعل. فتراجعتُ خطوة. كنت نسيت كيف تكون شخصيّتها حين تنطلق. ثم احتشدتُ لها حتى أهجم من جديد. وهي انتصبتْ بروعة لتقابلني. وكأننا في الأيام الخوالي بالضبط. بالأنياب والحوافر، بالأنياب والحوافر! كانت الحالة مؤثرة إلى درجة أن الكلب انضم إلينا، ينبح ويعوي ويتقافز إلى أعلى وأسفل على قدميه الأماميتين... حتى ناولتْه أمي ضربة وزمجرتْ فيه أنْ أُبْرُك. سميتُها غانية وسمتني ولد سفاح. قلت: وإن كنتُ ولد سفاح فماذا تكون هي؟ وبسرعة البرق ردتْ: وإذا كنت أنا غانية فماذا تكون أنت يا خسيسُ! ياه، كم كانت متميزة هذه المباراة. كنا كطفلين مهتاجين... لا، ليس طفلين بل مخلوقين بدائيين كبيرين قد أصابهما الخبل، زوج من "المَستودون"[31] أو شيئًا كهذا... نضرب ونمزّق في خلاء إحدى الغابات وسط عاصفة من العرائش الخافقة والنباتات مقلوعة الجذور. والهواء ينبض فيما بيننا ثقيلًا يُغَشّيه الدم. ثمّة إحساس بأشياء متراصّة من حولنا، مخلوقاتٍ صغيرة تختبئ في الطبقة السفلية من النبات متفرّجة علينا في سَكرة من الرعب والانبهار. أخيرًا، وقد شبعنا، سحب كل منا نابيه عن نابي الآخر وانتحى جانبًا. سكّنتُ رأسي المرتج في كفي. ووقفتْ هي لدى الحوض ممسكة بالصّنبور تتطلع إلى الحديقة وصدرها يجيش. كلانا يسمع نفسه يتنفّس. انطلق ماءُ مرحاض الحمام العلوي محدِثًا صوتًا استقصائيًا مكتومًا، وكأن الفتاة تذكّرنا بلباقة بوجودها في البيت. تنهّدت أمي. لقد باعت اللوحات لـ"بينكي بيرينز". أومأتُ لنفسي. بيرينز طبعًا. كلها؟ سألتُ. لم تُجِب. مر وقت. تنهدتُ من جديد. قالت: النقود كانت من نصيبك، ما بقي منها. لم يترك لي إلا ديونًا. فجأة ضحكتْ وقالت: كان يجب أن أكون أذكى من أن أتزوج أيرلنديًا. نظرتْ

إليّ من وراء وهزت كفيها. جاء دوري لأتنهّد. "وَيلي،" قلت. "يا وَيلي".

تأتي الصدف مسطّحة بشكل غريب في الأقول التي يُدلَى بها في المحاكم. أنا متأكّد أنك لمست ذلك عبر السنين يا حضرة القاضي. إنها مثلُ نكت ينبغي أن تكون مضحكة جدًا لكنها تفشل في إثارة ولو ضحكة واحدة. يُستَمع إلى وصف أعجب الأفاعيل التي ارتكبها المتهم باتزان تام، لكن ما إن تُذكر حالة تزامن تافهة بين حدثين حتى تبدأ الأقدام في القاعة تُجَرجَر. يتنحنح ممثلو الدفاع، ويأخذ الصُحُفيون في التحديق حالمين إلى زخارف السقف. ليست هذه علامات عدم تصديق في اعتقادي بقدر ما هي علامات إحراج. وكأنّ شخصًا ما، المنسّق الخفي لكل ذلك الموضوع المذهل المعقد – وقدمه حتى الآن لم تَزِلّ – فجأة تمادى أكثر من اللازم قليلًا، تذاكى نوعًا ما، فأُحبطنا جميعًا وأصابنا شيء من الحزن.

يلفت نظري على سبيل المثال تكرّر ظهور اللوحات في هذه القضية. بدأت معرفة أبوَيّ بـ"هيلموت بيرينز" من خلال الفن... ليس الفن بالضبط ولكنْ اقتناءه. كان أبي يحسَب نفسه جامع قِطَع فنية، هل ذكرتُ ذلك؟ بالطبع لم يكن معنيًّا بالأعمال نفسها على الإطلاق، فقط بقيمتها النقدية. كان يستغل سمعته كخيّال – وباعتبار ما مضى كشابّ مَرِح – ليتسلل إلى منازل معارفه الواهنين حيث لمح على الجدران قبل ثلاثين أو أربعين سنةً منظرًا طبيعيًا أو طبيعة صامتة، أو "بورتريه" مُخَلَّل لأحَوَل من الأسلاف ربما يساوي له اليوم قرشين. كان يمتلك حِسًّا خارقًا بالتوقيت، فيَصِل قبل الوَرَثَة بخطوة واحدة. أتخيّله جوار سرير بقوائمَ في ضوء الشموع وهو ما زال يلهث جرّاء الدَرَج

يميل إلى الأمام ويدس ورقة بخمسة جنيهات في يد ورقية شليلة. لقد راكم الكثير من القمامة، لكنْ كانت هناك قِطَع لا بأس بها في اعتقادي، وتساوي شيئًا على الأرجح. حصل على معظم هذه القطع عن طريق تملُّق سيدة عجوز لاهية كان أبوه رافقها لفترة وجيزة أيام كانت فتاة. كان شديد الافتخار بعملية الاحتيال هذه، متصورًا كما أظن أنها تجعله رأسًا لرأس مع بارونات اللصوصية العظماء السابقين، آل "غوغنهايم" و"بيربونت مورغان" بل وبيرينز. ولعل هذه هي ذات اللوحات التي أدّت إلى لقائه بهيلموت بيرينز فعلًا. لعلهما تصارعا عليها فوق سرير السيدة العجوز في احتضارها، وكلاهما يُضيّق عينيه وهو ينظر إلى الآخر بفم يزمّه التصميم الهائج.

عبر الرسم أيضًا التقيتُ "آنا بيرينز"، أو ربما ينبغي أن أقول التقيتُها مجددًا. كنا نعرف بعضنا بعضًا قليلًا في الصِغَر. يبدو لي أني أتذكر مرة في "وايتووتر" أنّهم أرسلوني إلى الخارج لألعب معها في القرية. ألعب... حلوة! حتى في تلك الأيام كانت تمتاز بمظهر الانعزال، الاستمتاع الخافت عن بُعد، تلك الخصلة التي لطالما أفقدتني شجعاتي. فيما بعدُ، في دبلن، كانت تظهر بين حين وآخر، تُحلّق حول عربداتنا الطُلّابية وهي متّزِنة وصامتة وشاحبة الجمال. كانت كُنيتها "ملكة الثلج"، طبعًا. وقد توارتْ عن أنظاري حتى نسيت أمرها إلى أن، ذات يوم في "بيركلي" – هنا تبدأ الصُدَف – عَثرتُ عليها في إحدى قاعات العرض في شارع "شاتك". لم أكن أعلم أنها في أمريكا، ومع ذلك لم تنتبْني الدهشة. وهذه إحدى مميّزات آنا: إنها تنتمي وبدِقّة إلى أي مكان يصادِف أن تكون فيه. كانت القاعة عبارة عن حجرة بيضاء واسعة وعالية لها واجهة زجاجية. كانت تستند إلى مكتب وفي يدها رزمة ورق تقرأها. ترتدي فستانًا أبيض.

شعرها، وقد بيّضته الشمس حتى صار فضيًا، كان مصفّفًا بطريقة معقّدة وضفيرة واحدة ثقيلة تتدلّى عند كتفها. كان يمكن أن تكون جزءً من العرض وهي تقف هناك ساكنة إلى هذا الحد في الضوء الشاهق الخالي من الظلال خلف الزجاج العاكس للشمس. دخلتُ وبادرتُها بالحديث، ومن جديد تفحّصت بإعجاب ذلك الوجه الطويل الحزين المعوَج قليلًا ذا العينين الرماديتين القريبتين إحداهما من الأخرى والفم الخارج من إحدى لوحات "فلورنسا". تذكرتُ الحبتين البيضاوين المنمنمتين على قصبة أنفها حيث الجلد مشدود بإحكام إلى العظم. كانت ودودة، بطريقتها المتباعدة. تراقب شفتي وأنا أتكلم. على الحوائط ثمة لوحتان أو ثلاث مرسومة بالأسلوب "التقليلي" ذلك الهزلي الشائع يومئذ، لا يكاد يَفرق عراء ألوان "الباستل" فيها عن المساحات الفارغة المحيطة به. سألتُها إن كانت تفكّر في شراء شيء، الأمر الذي أضحكها. أنا أعمل هنا، قالت وهي تُزيح الضفيرة الشقراء عن كتفها. دعوتُها إلى الغداء لكنها هزّت رأسها وأعطتني رقم هاتفها. حين خطوت إلى الخارج في الشارع المُشمس كانت طائرة نفّاثة تمر على ارتفاع منخفض ومحركاتها تجعل الهواء يُخشخش، وثمة رائحة سرو وعادم سيارات ونفحة خافتة من الغاز مسيّل الدموع آتية من جهة الحرم الجامعي. كل هذا حصل قبل خمسة عشر عامًا. غضّنتُ بطاقة الملفّات التي كتبتُ عليها رقم هاتفها وعزمتُ على التخلّص منها. لكني احتفظت بها.

كانت تسكن فوق التلال، في بيت خشبي مسقّف مستوحى من معمار "تيرول" تستأجره من أرملة مجنونة. أكثر من مرة في طريقي إلى هناك نهضتُ لأغادر الحافلة وأعود إلى بيتي وقد أصابني الملل وصرت نصف مغتاظ أصلًا من فكرة نظرة آنا الساخرة التقييميّة

تلك، ابتسامتها المُصمَتة. حين كلّمتها بالكاد قالت اثنتي عشرة كلمة، ومرتين وضعتْ يدها على السماعة وحدّثت شخصًا ما معها في الغرفة. ومع ذلك فقد حلقتُ باهتمام خاص هذا الصباح، وارتديتُ قميصًا جديدًا، واخترتُ كتابًا مثيرًا للإعجاب في نظرية الرياضيات أحمله. الآن، وبينما الحافلة تسلك دربها صاعدةً تلك الطرق الضيقة، داهمني حسّ اشمئزاز. بدوت لنفسي شيئًا خليعًا ومخزيًا بصورة غير واضحة، مكشوفًا ومنكمشًا بلحمي المُدلّل المرشوش بـ"البودرة" وقميصي الأزرق الفاتح والكتاب اللدن الذي تقبض عليه يدي مثل لفّة لحم. كان اليوم غائمًا والضباب يلفّ أشجار الصنوبر. تسلّقت خطًا متعرّجًا من السلالم الرطبة إلى الباب ناظرًا حولي بتعبير اهتمام لا مبالٍ ومحاولًا أن أبدو دون ذنب كما يبدو أني أفعل دومًا حالما أجدني في أرض غير مألوفة. كانت آنا تلبس شورتًا وشعرها مسدول. إن رؤيتها فجأة على الباب هكذا شقراء بلون الرماد، على راحتها، وساقاها الطويلتان عاريتان، سبّبت لي ألمًا في جذر لساني. كان البيت معتِمًا من الداخل. بعض الكتب، صور مطبوعة على الحائط، قبعة خوص على مشجب. كانت قطط الأرملة تركتْ آثارها على السجاجيد والكراسي، رائحة حمضية حادة، نتنة ولكن ليست مزعجة تمامًا.

كانت دافني تجلس في كرسي قماشي ورجلاها مُربَّعَتان، تقشّر البسلة في سلطانية من النيكل. وكانت ترتدي بُرنُس حمّام، وشعرها ملفوف في منشفة. صدفة أخرى كما ترى.

عمَّ تحدثنا يومذاك، ثلاثتنا؟ ماذا فعلتُ أنا؟ لعلني جلست، شربت زجاجة بيرة، فردتُ رِجليّ ومِلتُ إلى الوراء متظاهرًا بالاسترخاء. لا أستطيع أن أبصر نفسي. إني أشْبَه بعين طافية، تشاهد، تسجّل،

تخطّط. ذهبتْ آنا وجاءت بين غرفة الجلوس والمطبخ، تُحضر جبنًا وبرتقالًا وأفوكادو مُقطّعًا. كان يومَ أحد والمكان هادئًا. عبر الشباك شاهدتُ السديم يتحرك وسط الشجر. رن الهاتف وردّت آنا، مديرةً ظهرها تُوشوِش في السماعة. ابتسمتْ لي دافني. كانت نظرتها دون مُستقرّ، وكأنها عبارة عن تَحَسُّس ناعم لما حولها من أشياء. نهضتْ وناولتني السلطانية وما بقي من بسلة غير مقشّرة ثم غابت في الطابق الأعلى. حين عادت كانت بملابسها وشعرها جافٌ وكانت تلبس نظارة. في البداية لم أعرفها، ظننتها ساكنة ثالثة للبيت. ساعتها فقط أدركتُ أنها هي التي كنت أبصرتُها على العشب يومذاك في حفل الأستاذ "شخص ما". شرعتُ في إخبارها بالأمر، بأمر أني رأيتها، لكني غيرت رأيي، لنفس السبب المجهول الذي جعلني أدير لها ظهري دون أن أكلمها تلك المرة الأولى. ردّت آنا على مكالمة هاتف أخرى، توشوش وتضحك بهدوء. وخطر لي أن وجودي بالكاد يَمَسّ يومَهما، أنهما كانتا لتفعلا نفس الأشياء لو لم أكن هناك. كانت فكرة مريحة. لم أكن دُعيتُ على العشاء، لكن بدا مفهومًا أني باقٍ. ولمدّة طويلة بعدما كنا أكلنا جلسنا إلى المائدة. تكاثف الضباب ضاغطًا على الشبابيك. أراهما كلتيهما قبالتي هناك في ذلك الشفق الحليبي، السمراء والفاتحة، وبينهما حالة تواطؤ أو مُزاح سري، وكأنهما تتبادلان نكتة لطيفة غير قاسية على حسابي. كم يبدو كل هذا بعيدًا، بُعد عصر كامل، حين كنا "بريئين" إن كانت هذه هي الكلمة الصحيحة، وأشك أنها كذلك.

أعترف أني كنت مأسورًا بهما، بجمالهما وهدوئهما الواثق، بأنانيتهما اللامبالية. لقد جسّدتا مثالًا ما كنتُ أعرف حتى الآن أني أُضمره. كنت لا أزال أعمل في علومي في تلك الأيام، نيتي أن أصير أحد

أولئك التقنيين الباردين العظماء، أسياد العالم السريين. والآن انفتح أمامي مستقبل آخر، وكأنّ هاتين الاثنتين قد تسببتا في انهيار جدار صخري أمامي كاشفًا – وسط التراب المُدوّم – مسافةً هائلة منيرة. كانتا رائعتين، واهنتين وأنيقتين في نفس الوقت. ذكرتاني بزوجٍ من المُغَامِرات المنتميات إلى القرن المنصرم. كانتا وصلتا إلى نيويورك في الشتاء الماضي، وانجرفتا عبر البلد على مراحل إلى هذا الشاطئ المشمس الأَصْحَر حيث وقفتا الآن وكأنما على أطراف الأصابع وأيديهما متصلة وأذرعتهما ممدودة، والمحيط الهادئ كله أمامهما. فرغم أنهما أمضيتا نحو نصف عام في هذا البيت فقد كانت بصمتهما من الخفة وسرعة الزوال بحيث لم تكد الغرف تُسَجّل حضورهما أصلًا. بدا أنهما دون ممتلكات، فحتى القبعة الخوص المعلّقة على الباب تركها ساكن سابق. ثمة أصدقاء أو على الأقل معارف – أفكر في مكالمات الهاتف تلك – لكني لم أقابلهم أبدًا. كانت صاحبة البيت تهبط عليهما مرة كل فترة، وهي امرأة ذات مزاج مسرحي قاتم بعينين عاطفيتين وشعرٍ شديد السواد ملفوف بعنف في كعكة ومُسَفّد بمشبك خشبي منحوت. كانت تكتسي على طريقة امرأة من الهنود الحمر، مكلّلة نفسها بالخَرَز والأوشحة ذات الألوان الفاقعة. وكانت تندفع في أنحاء البيت شاردة، تتكلم من فوق كتفها – يتبعها كالأثر عطر مسكي ثقيل – ثم تلقي بنفسها على كنبة غرفة الجلوس في وثبة "باليه" وتجلس ساعة تحكي عن آلامها – وهي في معظمها نتيجة ما كانت تشير إليه وفي صوتها بحّة بـ"متاعب مع الرجال" – وفي أثناء ذلك تَسكَر باطراد دامع على الـ"كلفادوس"[32]، وقد احتفظتْ بمخزون منه في خزانة مقفلة في المطبخ. امرأة بشعة لم أستطع أن أتحملها: ذلك الجِلد المدبوغ والفم الملطّخ، كل تلك الهستيريا، الوَحشة المضطرِبة.

لكن البنتين كانتا تجدانها مسلية. كانتا تستمتعان بتقليدها، وتحولان بعض ما تقوله إلى عبارات مأثورة. أحيانًا وأنا أستمع إليهما تحاكيانها ساخرتين، كنت أتساءل إذا ما كانتا تعاملانني أنا بهذه الطريقة، تتقاذفان ملاحظاتي كالكرة بنسخة كوميدية من رزانة صوتي وتضحكان خفيفًا بطريقتهما المُبتَذِلة تلك، وكأن النكتة ليست مُضحِكة حقيقة ولكن فقط سخيفة.

كان رأيهما أن البلد هي الأخرى سخيفة، بالذات كاليفورنيا. وكثيرًا ما استمتعنا معًا ونحن نضحك على الأمريكان. أيامها بالتحديد كانوا يدخلون مرحلة البهجة المقصورة على اللذة، تلك المرحلة المشؤومة التي كنا مررنا بها كأبناء مُذَهَّبين لأوروبا العجوز المرتبكة، أو هكذا اعتقدنا. وكم بدوا لنا بريئين بزهورهم وأعواد بخورهم وتديّنهم المشوّش. وطبعًا كنت أشعر سِرًّا بوخزة ذنب وأنا أسخر منهم هكذا، فقد أسرتْني البلد حال وصولي إلى هنا والآن كأني أشارك في السخرية من مخلوق سعيد سليم القلب، فتاة الحفل السمينة التي كنت أحك جسدي فيها منذ لحظة واحدة تحت ستار المرح الصاخب وبنشوة منتصبة خالية من الكلام.

ربما كان الاحتقار بالنسبة إلينا شكلًا من أشكال التوق إلى الماضي أو حتى الحنين إلى الوطن. فالعيش هناك وسط هذه الألوان الهادئة الخارجة من عُلبة تلوين، تحت قبة من الأزرق الذي لا تشوبه شائبة، كان أشبه بالعيش في عالم آخر، مكان خارج من كتاب قصص. (كنت أحلم بالمطر، المطر الحقيقي الأيرلندي الذي يَدُوم يومًا كاملًا، وكأنه شيء أُخبِرتُ به ولكن لم أره أبدًا.) أو ربما كان الضحك على أمريكا وسيلة دفاع؟ فصحيح أنه أحيانًا ما كان يخطر ببالنا أو ببالي على الأقل

احتمال أن نكون نحن، ولو بدرجة بسيطة، المثيرين للضحك. أليس فينا لمسة من اللامعقول بثيابنا التويد وأحذيتنا العملية ولهجتنا المتطرّفة، بدماثتنا الوقحة؟ أكثر من مرة ظننتني أتبيّن ابتسامة مكتومة تُرعش شفتي شخص يُفترض أننا جعلناه أضحوكتنا دون أن يعلم. وحتى بيننا وبين أنفسنا كانت هناك لحظات صمت وارتباك وقد رفرف بيننا اعتراف غير مكتمل مثل رائحة سيئة تحرجنا. ثلاثة مغتربين يلتقون في هذا الملعب الرائق، ماذا يمكن أن يكون أقرب إلى أجواء الروايات؟ لقد كنا بحق الله مثلّثًا!

كنا مثلثًا. فقد حدث المحتوم ذات أصيل بعد شهر أو نحوه من لقائنا. كنا جالسين في الشرفة الخلفية للبيت نشرَب الجين وندخّن شيئًا له طعم مروّع وأغرب تأثير. كان اليوم حارًا ومغبّشًا وقد حُبست شمس بلون العُملة النحاسية وسط سماء بيضاء. كنت أتفرج على سحابة من الطيور الطنانة تشرب من نبتة زهر عسل جنب سلالم الشرفة. لم تكن دافني ترتدي إلا شورتًا وحمّالة صدر وصندلًا بكعب عال حين قامت تَطرِف عينيها وهي غير متّزنة تمامًا وهامت إلى الداخل. تبعتُها. لم أكن أفكر في شيء سوى أني أُحضر ثلجًا، شيء من هذا القبيل. وبعد حِدّة الضوء في الخارج كنت بالكاد أبصر أي شيء في البيت فأينما ولّيتُ وجدتُ في الهواء ثُقبا مظلمًا وضخمًا. بكسل بدأت أفتّش عن دافني، متتبّعًا صوت الثلج وهو يرن في كأسها من المطبخ عبر غرفة الجلوس إلى غرفة النوم. كانت الستارة مُسدَلَة. وهي تجلس على طرف السرير تُحملق أمامها في العتمة الكهرمانية. فجأة بدأ رأسي يوجعني. أفرغتْ شرابها في جرعة واحدة وكانت لا تزال ممسكة بالكأس حين رقدنا معًا فانزلقتْ خرزة ثلج منه وسقطت في تجويف كتفي. كانت شفتاها

باردتين بليلتين. شرعتُ في قول شيء ما، وضحكتُ بخفة في فمي. بدت ثيابنا ضيقة كالضمادات وأنا أخمشها وأشخر. دون ترتيب صرنا عاريين. مرّت لحظة سكون فزِعَة. في مكان ما قريب ثمة أطفال يلعبون. ألقت دافني يدها على وركي. كانت عيناها مغمضتين، وكانت تبتسم وحاجباها مرفوعان وكأنها تُنصِت من بعيد إلى لحن حلميّ ومضحك بعض الشيء. سمعتُ صوتًا وتطلّعتُ ورائي. كانت آنا تقف على الباب. لمحتُ نفسي كما كانت لتراني، جانبيّ الوامضين ومؤخرتي الشاحبة، فاهي الفاغر كفم سمكة. تردّدتُ لحظة، ثم مشت إلى السرير وعيناها على الأرض كأنها منغمسة في تفكير عميق، وقعدتْ جنبنا وبدأت تتعرّى. رقدنا دافني وأنا متعانقين في هدوء نراقبها. شدّت بلوزتها فوق رأسها وطفت كسبّاحة، طارِحةً شعرها. كان مشبك معدني ترك دمغته في مركز ظهرها. لماذا بدت الآن أكبر منا إلى هذا الحد، متعبةً من فرط خبرتها بل ومستعملة بعض الشيء، وكأنها راشد تشارك بتسامح في لعبة صغار غير مباحة تمامًا؟ كانت دافني بالكاد تتنفّس وأصابعها تقبض بشدة مطّردة على وركي. شفتاها منفرجتان وهي ممتعضة قليلًا تحدّق في لحم آنا العاري، تائهة في ضرب مُبهَم من الذهول. كنت أحس دقّة قلبها، ودقة قلبي. وكأننا في حضرة مراسم تعزٍّ طقوسيّة.

وطقسيًّا كان أمرنا إذّاك فعلًا. لقد جاهدنا معًا وبطيئًا على السرير، ثلاثتنا، وكأننا نقيم الشعائر المُرهِقة لعبادة متروكة منذ زمن طويل، نحاكي صوغ ورفع شيء ما، لنقل إنه ضريح أو معبد ذو قبّة. كم كنا وقورين ومستغرقين، وبأي اعتناء تعاملنا مع لحم بعضنا بعضًا. لم ينبس أحد بكلمة. كانت المرأتان بدأتا بتبادل قبلة عفيفة. ابتسمتا بقليل من الخفر. يداي أنا ترتجفان. كنت شعرتُ بحسّ الإثم

نفسه مرة من قبل، منذ زمن طويل، حين تصارعتُ كطفل مع ابْنتَي عمومة لي على الدرج في الظلام ذات شتاء في كولغرينج: نفس الرهبة وعدم التصديق، نفس الطرب الطفولي الشهواني الموجع. حالمين حفرنا واختطمنا، مرتعشين متنهدين. بين حين وآخر كان أحدنا يتشبث بالاثنين الآخرين بنفاد صبر طفل واتقاده الطمّاع ثم يصرخ بنعومة معدنية وكأنما وجعًا أو أسفًا عاجزًا. مرّت لحظات بدا لي أنهما ليستا امرأتين بل واحدة، مخلوق غريب منعزل ومتعدد الأذرع هو الآن وراء قناع مطليّ بالمينا منغمس في شيء لا يمكنني أن أقترب حتى من معرفة ما هو. في النهاية، والسَوْرة الأخيرة تحتشد في جوفي، نهضتُ متكئًا على ذراعيّ الراجفتين وكعبا دافني مزروعان أسفل ظهري. ونظرتُ إليهما من علٍ وكلاهما تعض الأخرى بنَهَم حنون، الفم المفتوح على الفم، ولوهلة والدم ينبجس في عيني، أبصرتُ رأسيهما يندمجان، الفاتح والداكن، الأصحر والصقيل كنمر أسود. على الفور بدأتِ الهزّة بين فخذي، وسقطتُ فوقهما مبتهجًا وخائفًا.

لكن فيما بعدُ كانت دافني وحدها الراقدة بين ذراعي، تمسك بي في جوفها، بينما نهضتُ آنا ومشت إلى الشباك رافعة ستارة من الخيش بإصبع واحد ووقفت تحملق في ضوء الأصيل الساطع المغبّش. كان الأطفال في لعبهم لا يزالون. هناك مدرسة أعلى التل، هكذا وشوشتْ آنا. ثم ضحكت بهدوء وقالت: "ولكن ماذا أعرف أنا، أسألك"! كانت إحدى عبارات الأرملة المجنونة. فجأة صار كل شيء حزينًا ورماديًا وخربًا. وضعت دافني وجهها على كتفي وبدأت تبكي دون صوت. سأتذكر دومًا أصوات أولئك الأطفال.

كان لقاء غريبًا لن يتكرر. إني أدقّق فيه الآن ليس لأسباب واضحة ولكن لأنه يحيّرني. الفعل نفسه، الجنس الثلاثي، لم يكن لافتًا. أيامها كان الجميع يفعل مثل هذه الأشياء. لا، إن ما لفت نظري ساعتها ويلفته الآن هو السلبية العجيبة للدور الذي لعبتُه أنا في أفعال ذلك الأصيل. كنت الرجل بين ثلاثتنا، ومع ذلك شعرتُ بأني أنا الذي – وإن يكن بنعومة، وبشكل لا يُقاوَم – أُختَرَق. سيقول الحكماء إني لم أكن سوى الوصلة التي تحسّستا طريقهما عليها، اليد على اليد، كلٌ منهما إلى ذراعي الأخرى. لم أستطع أن أتخلّص من الشعور بأن طقسًا دينيًا يقام وأن آنا بيرينز هي الكاهنة ودافني هي القربان بينما أنا مجرد قطعة ديكور. لقد استخدمتاني كذَكَرٍ حجري وكل منهما تنحني وتتلوى وهي تزفر التعاويذ. كانتا...

كانتا تتوادعان. طبعًا. هذا ما خطر لي الآن. لم يكن هذا لقاءَهما بل فراقًا، ومن ثَمّ الحزن والشعور بالخراب، ومن ثَم دموع دافني المُرّة. لم يكن للأمر علاقة بي إطلاقًا.

خيرٌ خير. هذه هي ميزة السجن. عند الواحد من الوقت والفراغ ما يسمح بالوصول إلى قلب الأشياء.

إن وهم انصهارهما معًا ذاك الذي انتابني في نهاية نوبتنا على السرير يومها سيدوم فترة طويلة. وحتى الآن حين أفكر فيهما معًا أرى قطعة عملة مضروبًا على وجهيها بروفيَلاهما التوأمان وهما ساكنتين بقوة الرمز وهما تتطلعان بعيدًا كتصوير نَمَطي لاثنتين من الفضائل، لنقل إنهما الهدوء والجَلَد أو – الأفضل – الصمت والتضحية. أتذكر لحظة معينة حين رفعتْ آنا فمها المخدوش اللامع عما بين رجلي دافني وناظرةً إلي بابتسامة متواطئة، صغيرة وساخرة، مالت جانبًا حتى يمكنني

أن أرى حِجْر الفتاة المستلقية مفتوحًا هناك، مُركّبًا وبريئًا كثمرة فاكهة منصّفة. كان كل شيء حاضرًا كما أرى الآن، في تلك المسافة القصيرة بين التخلي والاكتشاف. مستقبل كامل بدأ هناك بالضبط.

لا أتذكّر أني طلبتُ الزواج من دافني. فبمعنى ما كانت منحتْني يدها بالفعل. وتزوجنا ذات أصيل سديمي حار في أغسطس. كانت المراسم سريعة وبائسة، عانيت من الصداع خلالها دون توقف. شَهِدَ على الزواج آنا وزميل لي من الجامعة. وبعد ذلك ذهبنا أربعتنا إلى البيت فوق التلال وشربنا شامبانيا رخيصة. لم تكن المناسبة ناجحة. قدّم زميلي عذرًا غير مقنع وغادر بعد نصف ساعة، تاركًا ثلاثتنا معًا في صمت مضطرب مُدَوٍّم. أشياءُ دون آخِر سَبَحَتْ في الهواء بيننا دون أن تُقال، مثلَ أسماك زلِقة وخطرة. ثم قالت آنا، مع نفس الابتسامة، إنها تظننا نحن الصغيرين نريد أن ننفرد بعضُنا ببعضٍ. وغادرتْ. فجأة افترسني حَرَج عبثي. قفزتُ وبدأت أَجمَع القناني والكؤوس الفارغة، متحاشيًا عيني دافني. ثمة شمس وسديم في شباك المطبخ. وقفت على الحوض أتطلع إلى أشباح الأشجار الزرقاء-السوداء على منحدر التل، وتجمّعتْ دمعتان كبيرتان سمينتان لا تفسير لهما على طرف جفنيّ، لكنهما لم تسقطا.

لا أعرف إن كنتُ عشقتُ دافني بالطريقة التي يَفهم العالم بها هذه الكلمة، لكني أعرف أني عشقت سلوكياتها. هل سيبدو غريبًا، باردًا، ربما حتى لا إنسانيًّا أن أقول إني لم أهتم حقيقة إلا بما هي عليه على السطح؟ "أف، وفي ماذا يهمّني كيف يبدو!" إن هذه هي الطريقة الوحيدة لمعرفة مخلوق آخر. لا يوجد العمق إلا على السطح.[33] دافني وهي تمشي عبر إحدى الغرف باحثة عن نظارتها، وهي تلمس الأشياء

بخفّة، تقرأ الأشياء بأطراف أصابعها. طريقتها في الاستدارة جانبًا وهي تتطلّع إلى محفظتها ممتعضة وشفتاها مضغوطتان مثلَ عمّةٍ عانس تَستخرج لك شلنًا لتشتري الحلوى. بُخلها، نوبات طَمَعها المفاجئة، الطفولية المُحَبَّبَة. تلك المرة منذ سنين، لا أذكر أين، حين داهمتُها في نهاية حفل واقفةً جوار شباك ترتدي فستانًا أبيض في الضوء المعتم لفجرٍ أبريلي وكانت ضائعة في حلم، حلم أنا أيقظتها منه بفظاظة وقد لعب الخمر برأسي وفقدتُ أعصابي بينما كان يمكن – يا يسوع! – كان يمكن أن أتوارى في الظلال وأرسمها، كل تفصيلة منمنمة ورقيقة، على الحائط الجواني الفارغ لقلبي حيث كانت لتبقى ناصعة كما في ذلك الفجر، حبيبتي الغامضة القاتمة.

بسرعة، وضمنيًا كما هو حالنا دائمًا، اتفقنا على ترك أمريكا. دون تردد تقريبًا هجرتُ دراستي، الجامعة، مساري العملي في المؤسسة الأكاديمية، كل شيء. وقبل أن ينقضي العام كنا أبحرنا إلى أوروبا.

لمحاميّ، أو كما يُصِرّ هو: صديقي ميلشاخلين ماك غيلّا غُنّا، حيلةٌ هي التركيز على ما يبدو تافهًا في طرح قضاياه. إن نوادر طريقته هذه تَذيع في أروقة المحاكم العليا وفي الممرات هنا. التفاصيل، التفاصيل هي هوسه. إنه رجل جسيم ثقيل الحركة لا يجيد استعمال يديه – أمتار وأمتار، حرفيًا، من قماش البِدَل المخطّط – له رأس مربع كبير وشعر أشعث مع عينين منمنمتين مسكونتين. أظن حياةً أمضاها يحشر أنفه في شقوق المآسي البذيئة للآخرين قد أفسدتْ فيه شيئًا. إنه يَنضح بالتوْق الجريح. يقولون إنه مروِّع في المرافعات، لكنه حين يجلس إلى طاولة غرفة الدفاع ذات الندوب هنا، ونظارته النصفية عالقة بذلك الرأس الكبير، مثنيًا على أوراقه يكتب ملاحظات بخط صغير جاهِدٍ وينهج قليلًا ويكلّم نفسه، يذكّرني بشكل لا يقاوَم بصبي سمين من أيام المدرسة كان واقعًا في غرامي دون عزاء محتمل وكنت أجعله يؤدي عني واجبي المدرسي.

ما يشغل ميلشاخلين بعمق في الوقت الراهن هو لماذا ذهبتُ أصلًا إلى "وايتووتر". لكن لماذا لا أذهب إلى هناك؟ أنا أعرف آل بيرينز، أو – يعلم الله – أعرف آنا على أي حال. كنت خارج البلاد لمدة عشر سنين، فقمت بزيارة اجتماعية كصديق للعائلة. ومع ذلك، لا يبدو أن هذا مقنع بما فيه الكفاية. فميلشاخلين يقطّب جبينه ويهز رأسه العظيم ببطء، ودون أن يُدرك يبدأ في تأدية فقرة المرافعة الخاصة به. أليس صحيحًا أني تركت بيت أمي غاضبًا بعد يوم واحد من وصولي إلى هناك؟ ألم يحدث أنْ كنتُ في حالة سُخط حادّ لأني سمعتُ أن مجموعة لوحات أبي بيعتْ لهيلموت بيرينز لقاء ما حسِبتُه مبلغًا زهيدًا؟ ثم أليس واقعًا أن لدي أسبابًا سالفة للشعور بالسخط على الرجل بيرينز وقد سعى لأن

يُديّث أبي في... عندك! قلت. انتظر هنا أيها العجوز. هذا الجزء الأخير لم يتضح إلا لاحقًا. دائمًا ما يبدو خائب الرجاء حين أوقفه وهو مُنطَلِق هكذا. لكن الحقائق هي الحقائق على أي حال.

وصحيح أني تشاجرتُ مع أمي مجدّدًا بالفعل، وخرجت ثائرًا (والكلب يتبعني طبعًا، محاولًا أن يعضّ كعبيّ). لكنّ بينكي بيرينز لم يكن سبب الشجار أو ليس بشكل مباشر على أي حال. في حدود ما أذكر كان الخلاف القديم ذاته: النقود، الخيانة، ذهابي إلى الولايات المتحدة وتركي الولايات المتحدة، زواجي، مستقبلي العملي المتروك، كل ذلك، المعتاد... وكونها باعت حق مولدي، نعم، لقاءَ صفّ من الأحصنة السيسية الدميمة تصورتْ أنها ستجلب لها ثروة تنفق على نفسها منها في وَهَن شيخوختها، الغانية الواهمة الملعونة. كان هناك أيضًا موضوع الفتاة جوان. فبينما أغادر توقفتُ وقلت، وقد وزنتُ كلماتي، إني لا أظنه لائقًا أن تكون امرأة في مكانة أمي في المجتمع – مكانتها! في المجتمع! – لها علاقة حميمة إلى هذا الحد بصبية سائسة. أعترف أن نيتي كانت أن أثير ثورة من تم التعدّي عليه، لكني للأسف أنا الذي انتهى بي الأمر جاحظ العينين. فقد نظرتْ أمي في عيني مباشرة، بعد لحظة صمت، وبلا اكتراث صفيق قالت إن جوان ليست صبية، إن عمرها في الحقيقة سبعة وعشرون عامًا. إنها – مع وقفة هنا لزيادة التأثير – بمثابة ابن لي، الابن الذي لم ألده أبدًا. عظيمٌ – قلت، وأنا أبلع ريقي بصعوبة – أنا سعيد من أجلكما كليكما. واندفعت خارج البيت. على الدرب الخاص، مع ذلك، اضطررت للتوقف والانتظار حتى يخف السخط والاستياء في جوفي قليلًا فأستطيع أن أسترد نَفَسي. أحيانًا أظنني عاطفيًا حتى النخاع.

وصلتُ إلى وايتووتر ذلك المساء. قطعت آخِر مرحلة من الطريق بعربة أُجرة ركبتها من القرية. كان السائق رجلًا طويلًا للغاية وهزيلًا للغاية يلبَس بيريهًا وبدلة أثرية من "الفلانيل"[34] الأزرق. تفحّصني باهتمام في مرآة السيارة وهو بالكاد مهتم بالنظر إلى الطريق من أمامنا. حاولتُ أن أبادله التحديق بطريقة تنذر بالشر لكنه لم يرتدع، فقط -كمن يعرف كل شيء - افترّ عن ابتسامة في جانب واحد من وجهه النحيل بطريقة ودودة تدعو إلى الاستغراب. لماذا أتذكر أشخاصًا كهؤلاء بذلك الوضوح؟ إنهم يُشيعون الفوضى في عقلي، وحين أرفع عيني عن الصفحة يكونون محتشدين حولي في الظلال بصمت وفضول هادئ أو ربما حتى حذر. لعل هؤلاء هم الشهود، الأبرياء الذين رأوا وأتوا دون حقد ليَشهَدوا ضدي.

لا يمكنني الاقتراب من وايتووتر أبدًا دون أن أطلق شهقة إعجاب لا إرادية. إن الدرب ينحرف عن الطريق في قوس طويل عميق دون أشجار، بحيث يبدو أن البيت يدور بطيئًا حالمًا وهو يفتح صف أعمدته المبني على طراز بالاديو على مصراعيه. توقفت عربة الأجرة على الحصى أسفل السلالم الأمامية الضخمة، ومع الصمت المفاجئ حل الإدراك - نعم يا ميلشاخلين، أعترف - بأني ليس عندي سبب منطقي لأكون هناك. جلستُ لوهلة أتطلع فيما حولي بذعر دائخ مثل مُسرنِم أوقظ لتوّه، لكن السائق كان يراقبني في المرآة الآن بترقّب وتركيز فاضطُررت للتظاهر بمعرفة ما أنا بصدده. خرجت من السيارة ووقفت أخبط على جيوبي وأقطّب كشخص مهم، لكني لم أستطع أن أخدعه. كانت ضحكته المائلة تزداد مكرًا حتى أني تصورت للحظة أنه سيغمز لي. قلتُ له بفظاظة أنْ انتظر، وارتقيت السلالم وشعور لا يتزعزع بالاستهزاء يلاحقني.

بعد وقت طويل فَتَحَ الباب رجلٌ ذابل صغير بدا مغتاظًا، كان يرتدي ما ظننته في البداية لباس قاطع تذاكر الحافلة، وبضع خصلات من شعر شديد السواد ملتصقة بجمجمته مثل لَطخات ورنيش. طالعني بقرف عميق. قال: لسنا مفتوحين اليوم.[35] وكان يهمَّ بغلق الباب في وجهي حين تخطّيته برشاقة إلى الصالة. نظرتُ حولي أحكّ يدي بطيئًا وأبتسم، ألعب دور المقيم في الخارج الذي عاد لتوه. آه – قلت – البيت القديم! لوحة "تينتوريتو"[36] الكبيرة أعلى الدرج، تعّج بالشهداء ذوي العيون المجنونة، صرخت في وجهي بنغمتها العالية متعددة الألوان. كان البواب أو أيما كان يتراقص قلِقًا من ورائي. استدرتُ وخيّمتُ عليه، مفترًّا عن ابتسامة لا أزال. وقلت له: لا أنا لستُ سائحًا بل صديقًا للعائلة. هل لي أن أطمع في أن تكون الآنسة بيرينز في البيت؟ فارتبك وهو لا يزال متوجسًا مني وطفق يهرول عبر الصالة باسطًا قدمه الحنفاء في مروره وهو يُملّس بعناية على الشعرات المزيّتة فوق صلعته.

انتظرتُ. كان كل شيء صامتًا باستثناء دقات ساعة حائط ألمانية طويلة تعود إلى القرن السابع عشر. على الحائط إلى جواري ثمة مجموعة من ست لوحات ألوان ماء لـ "بوننغتون"[37]، كان بإمكاني أن أدسّ اثنتين منها تحت إبطي وأخرج على الفور. التقطتِ الساعة نَفَسًا جاهِدًا وصفّرتْ معلِنةً مرور نصف ساعة أخرى، وبعدها في كل مكان حولي – من غُرَف أبعد فأبعد – أَطلقتْ ساعات أخرى أيضًا صفيرها الأحادي المفضّض فبدا وكأن هَزّة متناهية الصغر تَمور بامتداد المنزل. نظرتُ مرة أخرى إلى لوحة تينتوريتو. ثمة لوحة لـ "فراغونار"[38] أيضًا، وأخرى لـ "واتو"[39]. كل هذا ونحن لم نغادر الصالة. ماذا يجري، ما الذي قد حدث حتى يُترك كل هذا دون حراسة هكذا؟ سمعتُ سائق

عربة الأُجرة في الخارج يُطلق بوق السيارة، نفخة صغيرة متردّدة كأنها تُضمر اعتذارًا. لابد أنه يظنني نسيتُ أمره. (حصل فعلًا.) في مكان ما في القسم الخلفي من البيت دوّى باب مغلقًا، وبعد ثانية مسّ وجهي نَفَس بارد يمرّ عبره. تقدّمت والأرض تئن من تحتي عبر الصالة، وبدأتْ رعشة ترقّب ساخنة تكاد تكون شهوانية تنبض وراء عظمة صدري. أنا في داخلي رجل هَيّاب. الأماكن الواسعة المهجورة تقلقني. كانت إحدى شخوص "فراغونار"، وهي امرأة حريرية بعينين زرقاوين وشفَة سُفلية ممتلئة، تُراقبني جانبيًا بما بدا أنه تعبير متأمّل، مرتاع ولكن متحفز. بحذر فتحت الباب. دار المقبض السمين تحت يدي بسلاسة رائعة كمن يضع ثقته فيك. ودخلتُ حجرة طويلة وضيقة ذات سقف عال وشبابيك متعددة. كان ورق الحائط بلون الذهب الباهت. والهواء هو الآخر ذهبي مُخَضّب بضوء المساء الثقيل الناعم. شعرتُ وكأني خطوت مباشرة فوق عتبة القرن الثامن عشر. كان الأثاث شحيحًا، ليس سوى خمس أو ست قطع – كراسي رقيقة بظهر على شكل قيثارة، خُوان مُزَخرَف، وطاولة صغيرة "أورمولو"[40] – موزّعة بدقة بحيث لا تبدو هي بل المساحة المحيطة بها بل والضوء نفسه مرتّبًا. وقفت ساكنًا تمامًا أنصت لا أعرف إلامَ. على الطاولة المنخفضة ثمة "بازل" معقّدة محلول نصفها. وقعتْ بعض القطع على الأرض. حدّقت فيها وهي متناثرة على "الباركيه" مثل بِرَك من شيء انسكب، ومن جديد بدا أن رعشة ضعيفة تمور بامتداد البيت. في أقصى الحجرة نافذة فرنسية[41] بستارة رقيقة من الشاش تتموّج في النسمة. في الخارج كان هناك منحدر طويل من العشب يتراقص فوقه على مسافة متوسطة حصان وحيد أشبه بالأحصنة المرسومة على الأوسمة. على مسافة أبعد ثمة حدود النهر

المتعرّج، والمياه تَزيد في الأقسام الضحلة. ومن بعدها أشجار، ثم جبال مغبّشة، ثم الزرقة المذهّبة اللانهائية للصيف. لفت نظري أن منظور المشهد به عيب ما. لم تكن الأشياء تتباعد كما ينبغي لها أن تفعل بل ظلت مصفوفة أمامي – الأثاث، النافذة المفتوحة، العشب والنهر والجبال النائية – وكأنها لا يُنظَر إليها بل هي التي تنظر متمعنة في نقطة تلاشي هنا داخل الحجرة. استدرتُ إذاك، ورأيتُ نفسي أستدير أثناء استدارتي، كما يبدو لي أني أرى نفسي أستدير لا أزال، وكما أتصور أحيانًا أني سأستدير دائمًا، وكأن هذا عقابي، لعنتي، أن أكون للأبد بصدد تلك الاستدارة اللاهثة المغبّشة باتجاهها.

لقد رأيتم اللوحة في الجرائد، تعرفون شكلها. امرأةٌ تميل إلى الشباب في فستان أسود بياقة بيضاء عريضة تقف ويداها مشبّكتان من أمامها، إحداهما في قفاز والأخرى مختبئة باستثناء الأصابع المثنية دون خواتم. إنها تلبَس شيئًا على رأسها، قبعة أو مشبكًا يشد شعرها بإحكام عن جبينها إلى الوراء. وفي عينيها السوداوين البارزتين انحراف يشي قليلًا بالشرق الأقصى. الأنف كبير، الشفتان ممتلئتان. ليست جميلة. في يدها اليمنى تُمسك مروحة، أو لعلّه كتاب. تقف على ما أظنه العتبة المُضاءة لباب غرفة. يمكن رؤية قسم من أريكة أو ربما سرير بغطاء مُطَرّز. والظلام من خلفها كثيف لكنّ اللغز أنه دون وزن. تحديقها هادئ لا يتوقع شيئًا، مع أن هناك أثرًا للتحدي أو حتى العداء في وضعِيّة فمها. إنها لا تريد أن تكون هنا، لكنها لا تستطيع أن تكون في مكان آخر. المشبك الذهبي الذي يثبّت طرفي ياقتها غالٍ وقبيح. كل هذا رأيتموه، كل هذا تعرفونه. لكنّ ما أطرحه عليكم – ذوّاقي لجنة المحلّفين الكرماء – أنكم وإن كنتم تعرفون كل هذا فإنكم لا تعرفون شيئًا البتّة،

أو لا تعرفون إلا القليل جدًا. لا تعرفون ما لحضورها من جَلَد وشَجْو. هي لم تداهمكم فجأة في حجرة ذهبية ذات مساء صيفي كما داهمتني. لم تحتضنها سواعدكم، ولا رأيتموها ملقاةً في حفرة. لا... فعلًا، لا. لم تَقتُلوا من أجلها.

لقد وقفتُ مكاني أحدق لما بدا أنه فترة طويلة، وبالتدريج تملّكني ضرب من الحَرَج، وعيٌ ساخن وخزي بنفسي، وكأني – كيس اللحم هذا – أنا الذي أتعرّض للتفحص بتركيز متأنٍ وبارد. لم تكن نظرة المرأة "بمكياجها" وحدها تراقبني. كل شيء في الصورة – ذلك المشبك وهذين القفازين والظلام المُنَدَّف في ظهرها، كل نقطة في اللوحة كانت عينًا لا ترمش مثبّتة علي. تراجعتُ خطوة، مشدوهًا قليلًا. كان الصمت يَنْسُل من أطرافه. سمعتُ أبقارًا تخور، سيارة يدار محركها. تذكرتُ عربة الأجرة، واستدرتُ لأذهب. كان ثمة خادمة تقف في النافذة الفرنسية المفتوحة. لابد أنها جاءت لحظتَها ورأتني هناك فتراجعت بارتياع. عيناها متسعتان، وإحدى ركبتيها مثنية وإحدى يديها مرفوعة وكأنما لتصد ضربة. للحظة لم يُحرّك أي منا ساكنًا. لمّعتِ المُنحدر الأخضر من خلفها نَسمة مفاجئة. لم نتكلم. ثم ببطء ويدها لا تزال مرفوعة خطت إلى الخلف عبر النافذة متأرجحةً قليلًا بينما كعباها يبحثان بعماء عن الممر المسفلت في الخارج. شعرتُ بدفقة غيظ وجيزة لا تفسير لها، هاجس ربما، ريح نسيم شارد يسبق العاصفة الآتية. ثمة هاتف يرنّ في مكان ما. استدرتُ بسرعة وغادرتُ الحجرة.

لم يكن هناك أحد في الصالة. ظل الهاتف يرن ويرن بإصرار عنيد. كنت لا أزال أسمعه حين نزلتُ السلالم الأمامية. كانت عربة الأجرة قد غادرت بالطبع. أطلقتُ السُّباب وانطلقت عبر الدرب أَعرُج

على الأرضيّة الحجرية في حذائي الإسباني ذي النعل الرفيع. أبهرتِ الشمس المُنخفضة عيني. حين نظرتُ خلفي كانت الشبابيك مشتعلة، وبدا أنها تضحك ازدراءً بكل ثقلها. بدأتُ أتفصد، الأمر الذي جلب علي البرغش. سألتُ نفسي من جديد ماذا استبد بي فأحضرني إلى وايتووتر. كنت أعرف الجواب طبعًا. رائحة النقود جذبتني كما تجذب رائحة العَرَق هذا البعوض الملعون. رأيتُني كأنما عبر واحد من تلك الشبابيك التي تلوّحها الشمس، أتسلّل هنا وسْط التراب، أشعر بالحر والنقمة – زائد الوزن مطأطئ الرأس مثني الظهر السمين– وبدلتي البيضاء مطوية لدى الإبطين ومرتخية لدى المؤخرة: أضحوكة، نهاية نكتة سخيفة... وعلى الفور غمرني رثاء الذات. يا يسوع! أليس هناك مَن يساعدني؟ توقفتُ وألقيت نظرة مرتبكة حولي وكأن مُحسِنًا يلبد لي وسط الأشجار. كان للصمت نبرة شماتة مكتومة. حين انطلقتُ من جديد سمعت صوت محركات وإذا بليموزين سوداء هائلة تُقبِل عبر المنعرج تتبعها سيارة رياضية حمراء. كانتا تتحركان بإيقاع مهيب والليموزين تطفر خفيفًا على مساعديها. ولثانية ظننتُها جنازة. خطوت على حافة العشب لكني واصلت السير. كان سائق الليموزين، وهو رجل جسيم برأس حليق، يجلس منتصبًا متيقظًا ويداه ملتفتان بخفة على حَزّ عجلة القيادة وكأنها قذيفة يمكنه أن ينزعها من غِمدها ويلقيها بقُدرة مميتة على التصويب. كان جنبَه شخص مُحدَودِب منكمش. وبينما السيارة تمر خاطفة لمحتُ عينًا داكنة وجمجمة منمّشة ويدين هائلتين تستريح إحداهما فوق الأخرى على التواءة عصا. كانت امرأة شقراء تلبَس نظارة داكنة تسوق السيارة الرياضية. في مرورها تطلّعنا أحدنا إلى الآخر باهتمام بليد كغريبَين. طبعًا عرفتُها.

بعد عشر دقائق كنت أكدّ على الطريق رافعًا إبهامي حين سمعتها توقف سيارتها ورائي. وعرفت أنها هي. توقفتُ، استدرتُ. بقيتْ في السيارة ورُسغاها مُشبّكان فوق عجلة القيادة. قامت معركة وجيزة دون كلام لنرى أيّنا سيبادر أولًا. إلى أن قمنا بتسوية: أنا مشيتُ رجوعًا إلى السيارة وهي خرجتْ لتقابلني. قالت: كنت متأكدة أنه أنت. ابتسمنا في صمت. كانت تلبَس بدلة صفراء باهتة وبلوزة بيضاء. كان هناك دم على حذائها. وكان شعرها أكثر صفرة مما أتذكّر. تساءلتُ عما إذا كانت تصبغه الآن. قلت لها إنها تبدو رائعة. كنت صادقًا، لكن الكلمات خرجتْ جوفاء فتورّدتُ. آنا، قلت. وبصدمة خفيفة تذكرتُ كيف سرقتُ ظرف إحدى رسائلها إلى دافني منذ زمن طويل فأخذتُه إلى المرحاض وشددتُ غطاءه وقلبي يخفق حتى أتمكن من لحس الصمغ حيث كانت هي وضعتْ لسانها. تملّكتني الفكرة: أنا أعشقها! ونَدّ عني ما يشبه ضحكة جنونية مذهولة. خلعتْ نظارتها الشمسية وطالعتني باستغراب. تعال قابل أبي، قالتْ. يحتاج من يُرفّه عنه.

ساقتْ بسرعة شديدة وهي تعالج أجهزة التحكّم بتحفّز، وكأنها تبحث عن نموذج ما، عن صيغة سريّة مختبئة وسْط هذه الشبكة من الحركات الصغيرة الحاذقة. أُعجبتُ بها ولعلّني حتى خنعتُ لها قليلًا. تملأها ثقة الأثرياء ضيّقة الصدر. لم نتكلم. خلال لحظة كنا في البيت، وتوقفنا وسط رشاش من الحصى. فَتَحَتِ الباب، ثم وقفتْ ونظرت إليّ لحظة في صمت، تهز رأسها. قالت: فريدي مونتغومري؟ طيبٌ!

ونحن نصعد السلالم إلى الباب الأمامي شبكت ذراعها بخفة في ذراعي. اندهشتُ. أيام كنت أعرفها، منذ كل تلك السنين، لم تكن من أرباب الحميمية الجاهزة. الحميمية، نعم... لكنْ ليس الجاهزة.

ضحكتُ وقالت: يا الله، أظن أني سكرانة قليلًا. كانت ذهبت إلى المستشفى في المدينة بعدما أصيب بيرينز بنوبة خفيفة من نوع ما. وكانت المستشفى في حالة اهتياج. فقد انفجرت قنبلة في سيارة وسط شارع تجاري مزدحم. كانت متفجّرة صغيرة فيما يبدو لكن فعالة بدرجة لافتة. وآنا هامت دون أن يوقفها أحد إلى جناح الضحايا. الأجساد في كل مكان. مَشَت وسْط الموتى والمحتضرين تشعر أنها هي نفسها ممن نجوا. قلت لها: يا الله يا آنا. فضحكت ضحكة قصيرة وقالت: يا لها من تجربة. لحسن الحظ أن "فلين" يحتفظ بزجاجة شراب في "التابلوه". أخذتُ بضع جرعات شافية، والآن بدأت تندم على ذلك.

دخلنا البيت. البواب ذو اللباس الرسمي لم يكن له أثر. أخبرتُ آنا كيف ذهب وتركني أجول على راحتي في المكان فهزّت كتفيها. تتوقع أن الجميع كانوا في الطابق الأسفل يشاهدون أخبار التفجير في التلفاز. ومع ذلك – قلت لها – كان يمكن لأي شخص أن يدخل. فسألتْ: لماذا؟ هل تعتقد أن أحدهم يمكن أن يأتي ويزرع قنبلة هنا. وطالعتْني بابتسامة غريبة ومريرة.

اصطحبتني إلى الصالون الذهبي. كانت النافذة الفرنسية مفتوحة لا تزال. لا أَثَرَ للخادمة. ضَرْبٌ من الحياء جعلني أُنحّي عيني عن الطرف الآخر للحجرة حيث اللوحة تميل قليلًا عن الحائط وكأنها تتنصت. قعدتُ بحذر على كراسي من طراز "لوي الخامس عشر"[42] بينما آنا تفتح الخوان المنحوت بالزخارف اللولبية وتصب جرعتين عملاقتين من شراب الجين. لم يكن هناك ثلج، وكان "التونيك" خامدًا دون غاز، لكني لم أهتم. كنت في حاجة إلى شراب. وما زلتُ محبوسَ النَفَس من فكرة أني واقع في حبها. شعرت بحماس وذهول، وسعادة

سخيفة، مثل طفل مُنِح شيئًا غاليًا يلعب به. قلتها لنفسي من جديد – أنا أعشقها – أختبر وقع العبارة على السمع. الفكرة السامية الفخمة المجنونة بعض الشيء تليق جيدًا بالمحيط. كانت تحتّ الخطى بيني وبين النافذة قابضة على كأسها بيديها الاثنتين. وستارةُ الشاش تنتفخ بكسل على حافّة بَصَري. شيء ما في الهواء نفسه يهتز. فجأة دبّت الحياة في الهاتف على الطاولة المنخفضة إلى جواري فأطلق جلبة كالارتطام. انتزعت آنا السماعة وصاحت نعم، نعم، ماذا؟ ثم ضحكتْ. إنه سائق عربة الأجرة – قالت لي – يبحث عن أجرته. فأخذت الهاتف وكلّمت الرجل بخشونة. كانت تراقبني بتركيز ووعي شَرِه للفكاهة. حين وضعتُ السماعة قالت بنبرة انبساط: "ياه يا فريدي، صرتَ متغطرسًا حقًّا!" فقطّبتُ. لم أكن متأكدًا بمَ أجيبها. كان في ضحكتها ونظرتها الزجاجية مسحة هستيريا. ولكني أنا أيضًا لم أكن هادئًا بالضبط. انظر إلى ذلك، قالت تنظر باغتياظ إلى حذائها المبقّع بالدم. طقطقتْ بلسانها ثم وطرحتْ كأسها وتركت الحجرة بسرعة. انتظرتُ. كل هذا حصل من قبل. ذهبت ووقفت في النافذة الفرنسيّة المفتوحة ويدي في جيبي أعبّ الجين. متغطرس فعلًا... ماذا تقصد؟ الشمس كادت تغرب والضوء يتجمّع في حِزَم من فوق النهر. خطوت إلى الخارج خلال النافذة. نفخ في وجهي مرهم من الهواء الناعم. فكرتُ كم هو غريب أن أكون هنا هكذا، كأسي في يدي، في صمت وهدوء مساء صيفي، بينما في قلبي كل هذ السواد. استدرتُ ونظرتُ إلى أعلى أتفحّص البيت. بدا أنه يطير حثيثًا فوق السماء. أردتُ نصيبي من هذا الغنى، هذا الارتياح المذهّب. من أعماق الحجرة نظرتْ إلى الخارج عينان سوداوان هادئتان لا تريان. كان فلين السائق الخصوصي ذو الرأس الحليق يدانيني من جانب

البيت بتأدّبٍ عَازِفٍ عن الكلام – الأمر الذي أَضمَرَ تهديدًا لسبب ما – يَطفر على أخمص قدمين رقيقتين بما لا يتناسب مع مظهره. وكان يرتِي شاربًا متدليًّا أسود يميل إلى الزُرقة كشارب قاطع طريق، مُشذّب بشدة ومربع من حوافّه بحيث يبدو كما لو أنه رُسم على وجهه الكبير المُتَعَجِّن. أنا لا أحب الشوارب، هل ذكرتُ ذلك لكم؟ ثمة شيء خليع فيها ينفّرني. ولا أشك في أن الطبيب النفساني للسِجن يمكنه أن يفسّر ما يفيده مَقْتي لها، ولا أشك أيضًا في أنه في حالتي سيكون مخطئًا. لدى فلين عيّنة منفّرة بالذات. لقد شجّعتني رؤيته فجأة، رفعت معنوياتي لا أعرف لمَ. فتَبِعْتُه بحماس إلى داخل البيت. غرفة السُفرة عبارة عن كهف مُعتِم مليء بلمعان وبريق الأشياء الثمينة. دخل بيرينز يتّكئ على ذراع آنا، شخصٌ طويل هزيل في أقمشة "تويد" وثيرة وعلى عنقه "بابيون". كان يتحرك على رِسلِه، يقيس خطواته. وكان رأسه المرتعش بعض الشيء أملس ومُقبّبًا بحِدّة مثل بيضة رائعة شُرِّحَت. لابد أن عشرين سنةً مرّت منذ رأيته آخر مرة. أعترف أني أُعجبتُ به بشدّة الآن. كان يغطيه زنجار راقٍ وصقيل لشيء صُنِع بحُبّ مثل إحدى تلك التماثيل البديعة المصنوعة من حَجَر اليَشْم التي كنتُ أتفحصها منذ برهة على سطح المصطلى، يُغويك حجمها بوضعها في جيبك. أخذ يدي وضغطها برفق في قبضته الخانقة مُحملِقًا بعمق في عيني وكأنه يحاول أن يلمح آخَر هناك. فردريك، هكذا قال بصوته اللاهث. تُشبه أمك كثيرًا.

تعشّينا على مائدة مُخَلخَلة في فُسحة شباك عالٍ يُطلّ على الحديقة. كانت فضّة المائدة رخيصة والصحونُ لا يشبه بعضها بعضًا. إن هذا من الأشياء التي أذكرها عن وايتووتر، كيف تُعاش الحياة بحلول مؤقتة في أركان عجيبة، على حواف الأشياء. هذا البيت ليس مخصّصًا

للبشر، كل هذه الروعة لا تتحمّل أفعالهم الرثّة وسطها. شاهدتُ بيرينز يُقطّع شريحة من اللحم الدامي. أَسَرَتْني هاتان اليدان الهائلتان. ولطالما كنتُ مقتنعًا بأنه، في لحظة ما من الماضي، قَتَل شخصًا ما. حاولتُ أن أتخيّله شابًا، في ثياب من الفلانيل وسُترة رياضية يحمل مضرب تنس – "انظر، ها هو بينكي هناك!" – لكنّ ذلك كان مستحيلًا. تحدّث عن التفجير. خمسة قتلى – أم أنهم ستة الآن؟ – نتيجة رطلين فقط من المتفجرات! تنهّد وهزّ رأسه. بدا عليه الإعجاب أكثر من الصدمة. آنا بالكاد نَطَقَتْ. كانت شاحبة. بدت متعبة مشغولة البال. ولاحَظتُ لأوّل مرّة إلى أي مدى شاخت. كانت المرأة التي عرفتُها قبل خمس عشرة سنةً لا تزال هناك، لكنها محشورة داخل هيكل خارجي أكثر رداءة، مثل أحد عشاق "كليمت"[43] المرصّعين بالأحجار الكريمة. تطلّعتُ إلى الغسق الرمادي النوراني في الخارج وأنا مبهوت وبشكل غامض أيضًا فخور بفكرة ما فقدتُه، ما كان يمكن أن يكون. غيوم متراصّة، شريط أخير ساطع من السماء. صَفَّر شحرور فجأة. ذات يوم سأفقد كل هذا أيضًا، سأموت ويكون كله مَرَّ: هذه اللحظة قرب هذا الشباك، في الصيف، على شفير الليل الحَنون. إن هذا مذهل، لكنه حقيقي: سيحدث. سحبتُ آنا عود ثقاب وأشعلتُ شمعة على المائدة بيننا، وللحظة كان هناك إحساس بالتحليق، بالتمايل وسط الهواء المعتم الناعم.

قلت لبيرينز: أمي، ثم كان عليّ أن أسكت وأتنحنح. أمي أعطتك بعض اللوحات فيما أظن. فأدار إليّ نظرة طائر جارح وقال: باعتْ لي. وهو يكاد يوشوش. لم تعطِني، باعتْ لي. ساد صمت وجيز. قال إنه آسف إن كنتُ جئت على أمل رؤية اللوحات من جديد. يتفهّم أني قد أكون متعلّقًا بها. لكنه تخلص منها تقريبًا على الفور. ابتسم مرة أخرى،

برقّة. قال: كان ضمنها لوحة أو اثنتان جميلتان، لكنهما ما كانتا لتجدا في وايتووتر مستقرًا مناسِبًا لهما.

فكّرت: ها أنت ذا يا أبي، هذا كل ما تساويه عينك الذَوّاقة.

كان بيرينز يقول: أردتُ أن أُسدي إلى أمك معروفًا كما ترى. كانت مريضة، إذا لم تكن تعرف. أعطيتها أكثر كثيرًا من قيمة السوق. لا ينبغي أن تُخبرها بذلك طبعًا. كانت تريد أن تبدأ مشروع أعمالٍ ما في اعتقادي. وضَحِكَ. يا لها من امرأة مِقدامَة، قال. ثم ساد صمت آخر. تلهّى بسِكّينه مُستمتعًا، ينتظر. وأدركتُ بشيء من الذهول أنه فكّر ولابد أني جئت لأطالب باسترداد المجموعة. وإذاك طبعًا بدأتُ أتساءل إن كان بَخَسَ أمي حقَّ اللوحات رغم احتجاجاته. أيهجتْني الفكرة إلى حد بعيد. "يا نصّابُ يا عجوز" – هكذا فكّرت، ضاحكًا بيني وبين نفسي – ألستَ مثل بقيّتنا بالضبط! نظرتُ إلى انعكاس بروفيل آنا الضعيف في الشباك من أمامي. وماذا تكون هي أيضًا – بتجاعيدها وشعرها المصبوغ – إلا عانسًا تتقدّم بها الأعوام. الأرجح أن فلين يعمَل لها صيانةً مرة في الشهر أو نحو ذلك، بين غسيل السيارة بخرطوم المياه والذهاب بشاربه إلى الحلاق ليشذّبه. "اللعنة عليكم جميعًا!" صببتُ لنفسي كأس نبيذ مترعة سكبتُ قليلًا منها على مفرش السفرة سهوًا، وسعدتُ لذلك: آهٍ يا للسواد، السواد.

توقعتُ أن أُدْعَى للمبيت، لكنْ بعدما شربنا قهوتنا استأذنتْ آنا ثم عادت بعد لحظة تقول إنها طلبت لي عربة أجرة بالهاتف. استأتُ. لقد قطعتُ كل هذه المسافة لأراهما ولا يقدمّان لي حتى سريرًا. ساد صمت قبيح. كان بيرينز – وقد فتحتُ أنا الموضوع – يتكلم عن الرسامين الهولنديين. هل توهمّت ذلك أم أنه كان يطالعني بابتسامة ماكرة حين

سأل إن كنتُ ذهبت إلى حجرة الحديقة؟ وقبل أن أدرك أن ما يقصده هو الصالون المذهّب كان قد غيّر الموضوع. الآن يجلس ورأسه مرتعش يحدّق ببلادة في نار الشمعة. رفع يدًا وكأنه على وشك أن يتكلّم مجددًا لكنه تركها تسقط على رسلها. اجتاحت الشباك أضواء سيارة وانطلق بوقها. لم ينهض بيرينز. فقط دمدم وقد أعطاني يده اليسرى: سعدتُ برؤيتك، سعدتُ فعلًا.

اصطحبتْني آنا إلى الباب الأمامي. شعرت بأني أَخزيتُ نفسي بطريقة ما، لكن مهما فكرتُ لم أستطع أن أعرف كيف بالتحديد. كان صوت أقدامنا عاليًا جدًا في الصالة، جلبة مضطربة وسخيفة نوعًا ما. قالت آنا: إنها ليلة إجازة فلين، وإلا جعلتُه يوصّلك. فقلت بخشونة إن الحال على ما يرام. كنت أسأل نفسي هل يمكن أن نكون نفسَ الشخصين اللذين تموّجا مع دافني عاريين في السرير ذات أصيل يوم أحد حار في الطَرَف الآخَرَ من العالم. كيف استطعتُ أن أتخيل أني أحبها. يبدو أبوكِ في صحة جيدة، قلتُ. فهزت كتفيها وقالت: الحقيقة أنه يحتضر. على الباب – لا أعرف ماذا اعتراني – تلمّستُ يدها محاولًا أن أقبّلها. خطتْ بسرعة إلى الوراء فكدتُ أقع. انطلق بوق عربة الأجرة مرة أخرى. آنا، قلت، ثم لم أستطع أن أفكّر في شيء أضيفه. ضحكت بكآبة وقالت، مع ابتسامة شاحبة: عد إلى البيت يا فريدي. ثم أغلَقَتِ الباب ببطء في وجهي.

كنت أعرف من سيكون سائق عربة الأجرة طبعًا. لا تنطقْ – قلتُ له بحدّة – ولا كلمة! فنظر إلي في المرآة بعين أسيانة مُتّهِمة بينما نتحرك بثقل عبر الدرب. أدركتُ أني ليس عندي مكان أذهب إليه.

إنه سبتمبر. مكثتُ هنا الآن شهرين. تبدو المدّة أطول من ذلك. للشجرة التي ألمحُها من شباك زنزانتي هيئةٌ باهتة مُتَرَبّة. سُرعانَ ما سوف يتغير لونها. إنها ترتجف كأنما تَرَقُّبًا، وفي الليل يُهيّأ لي أني أسمعها تُخشخش بحماس هناك في الظلام. سماوات الصباح خلّابة، شديدة العلوّ والصفاء. أحب أن أشاهد الغيوم تتكوّم وتتناثر. يا له من عمل ضخم ورقيق. اليوم كان هناك قوس قزح، حين رأيتُه ضحكتُ جهرًا كما لو كان مزحة رائعة عَبَثية. من حين إلى آخر يَمُرّ الناس من تحت الشجرة. لابد أن ثمّة طريقًا مختصرة في هذه الناحية. في التاسعة تأتي فتيات المكاتب بالسجائر وتسريحات الشعر الأنيقة. ثم، بعد قليل، ربات البيوت الحالمات يحملن أكياس مشتريات وأطفالًا. في الرابعة كل أصيل يمر تلميذ متسكع وعلى ظهره حقيبة مدرسة ضخمة كالسَنام. تأتي الكلاب أيضًا مهرولة بسرعة وفي مظهرها تصميم. تتوقف لتعطي الشجرة رشّة سريعة ثم تمضي. حيوات أخرى، حيوات أخرى. مؤخّرًا، ومنذ بدأ الموسم يتغير، بدا أن الجميع – حتى الصبي – يتحركون بوطء أخفَّ، محمولين إلى أعلى بشكل ما. وكأنهم، عبر هواء الخريف الأزرق الزجاجي، طائرون.

في هذا الوقت من العام كثيرًا ما أحلم بأبي. نفس الحلم دائمًا، وإن تنوّعت الملابسات. الشخص الذي يكون في الحلم هو فعلًا أبي، لكنه لا يكون كما عرفتُه أبدًا. إنه أصغر سنًا وأمتن عودًا، وهو بَشوش بِحِسّ فُكاهةٍ سخيف. أصِلُ إلى مستشفى أو مؤسسة واسعة مثلها وبعد الكثير من البحث والتعثّر أجده معتدلًا في السرير وفي يده قَدَحُ شايٍ يعلوه البخار. شعره مُجَعّد بصبيانية، وهو يلبَس بيجامة شخص سواه. عفويًا، ولأني متوتّر وقد قَلِقْتُ إلى هذا الحدّ، أُعانقه بحرارة. فيمتَثِل

لهذا الاستعراض العاطفي غير المألوف برزانة، مُربّتًا على كتفي وضاحكًا قليلًا. إذاك أقعد على الكرسي الملاصق للسرير ويعترينا الصمت لوهلة فلا أعرف بالضبط ما أصنعه ولا أين أنظر. أفهم أنه نجا من شيء ما، من حادث أو سفينة غارقة، أو مرض حُمّيّ. إن رُعُونتَه أو تَهَوّرَه (أبي متهورا) هو ما عرّضه للخطر، وهو الآن يشعر بحماقته وبخجل كوميدي من نفسه. في الرؤيا دائمًا ما كنت المسؤول عن هروبه سعيد الحظ، عن طريق إطلاق صافرة إنذار، طلب عربة إسعاف، إطلاق قارب نجاة... شيء من هذا القبيل. عَمَلي الحاسم هائل وغَير طَيِّع مثل الحب نفسه، دليل إجلال صادق من جانب ابنٍ لأبيه. أصحو مبتسمًا وقلبي يفيض بالحنان. كنت أعتقد أنّ ما أُنقذه منه في الحلم هو الموت، لكنْ مؤخّرًا بدأتُ أفكّر إن ما أفعله هو أني أُلغي البلوى المديدة التي انطوت عليها حياته دفعةً واحدة. والآن ربما علي أن أؤدي مَهَمّة أخرى مشابهة. فاليوم أخبروني أن أمي ماتت.

حين وصلت عربة الأجرة إلى القرية كانت آخر حافلة إلى المدينة قد رحلت، كما أكّد لي سائقي بنبرة حزن مستمتِعة. جلسنا في الشارع العموميّ المعتم جوار محلّ عُدَدٍ حديدية والمُحرّك يُقرقِر. استدار السائق في جلسته رافعًا قبّعته ليحك رأسه سريعًا بإصبع واحد ثم استقر ليرى ما سوف أفعله بعد ذلك. مرة أخرى لفتتْ انتباهي طريقة هؤلاء الناس في التحديق، تلك الصراحة البليدة البهيمية التي يتبدى بها اهتمامهم. الأفضل أن أعطيه اسمًا – إنه "ريك"، مع الأسف – فأنا مُجبَر على صُحبته لفترة طويلة لا أزال. قال لي إنه سيكون مسرورًا بتوصيلي إلى المدينة بنفسه فهززتُ رأسي. المسافة ثلاثون ميلًا على

الأقل، وأنا مدين له أصلًا. في هذه الحالة – قال، بابتسامة متودّدة بغيضة – يمكن لأمه أن تستضيفني حتى الصباح. السيدة "ريك" فيما يبدو تُدير مَشْرَبًا مُلحَقًا به غرفة في الطابق الأعلى. لم تستهوِني الفكرة، لكن الشارع مظلم وصامت بكآبة وثمّة شيء باعث على الاكتئاب بشدّة في منظر تلك الأدوات في واجهة المحل الزجاجيّة و... نعم – قلت بصوت ضعيف ويدي على جبيني – نعم خذني إلى أمك.

لكنها لم تكن هناك، أو كانت نائمة أو شيئًا ما، فقادني عبر الدَرَج الخلفي بنفسه صاعدًا على أطراف أصابعه مثل عنكبوت كبير يَرتجف. كان في الغرفة شباك صغير واطئ وكرسي وسرير بتجويف في منتصفه وكأن جثمانًا رُفِع عنه مؤخّرًا. ثمّة رائحة بول و"بورت"[44]. تمنّيتُ له ليلة سعيدة وانصرف متلكّئًا. آخِر ما رأيتُ منه يدٌ عجفاءُ تَشدّ الباب ببطء لتُغلقه وراءه. تمشّيتُ جيئة وذهابًا مرة أو مرتين بحذر وخشب الأرضية يطقطق. هل عصرتُ يديّ في كرب؟ أتساءل. أصابني الشباك الواطئ والسرير المرتخي بخلل مدوّخ في إدراك النِسَب. تعلّق بالشباك شعاع خافت. إذا ملتُ جانبيًا أبصر أنبوب مدخنة معوجّ و"سِلُوِيت" أشجار. شعرتُ بأني البطل الكئيب لرواية روسية، أمتقع في مَخبأي فوق الحانة في قرية "داش" سنة "نقطة" وحكايتي من أمامي تنتظر أن تُحكى.

لم أَنَم. كانت الملاءات رطبة وبطريقة ما زلقة، وكنت على يقين من أني لست أول من تقلّب وتململ بينها منذ غسيلها الأخير. مشدودًا كزنبرك، حاولتُ أن أرقد بحيث لا يلامسها مني إلا أقل قدر ممكن. كان يُسجّل مرورَ الساعات جَرَسُ كنيسة بعيد في رنّته خمول غريب وفي الخلفية نباح الكلاب وخوار البهائم المعتادان. أغاظني صوت تنهيداتي النَكِدة. من حين إلى آخر كانت تمر حافلة فينزلق صندوق

من الضوء الهندسي بسرعة من السقف إلى الجدران حتى ينسكب في أحد الأركان. كنت أعاني عطشًا صارخًا. وانهالت علي الأحلام الواعية بصور بشعة وبذيئة. مرة وأنا على وشك النعاس أصابني حس مُفاجئ ومرعب بالسقوط، ونهضت من نومي منتَفِضًا. ورغم أني حاولتُ أن أُبعِدها عن ذهني فإنني بقيتُ أعود إلى التفكير في آنا بيرينز. ماذا حصل لها حتى تَحبِس نفَسها في ذلك المُتحَف الموحش دون رفيق سوى عجوزٍ مُحتضر. لكن ربما لم يحصل شيء، ربما هذا كل ما هناك. ربما مرت الأيام واحدًا تلو الآخر دون صوت حتى فات الأوان في النهاية وأفاقتْ ذات صباح لتجد نفسها مُسَمَّرةً إلى نصف عمرها. تخيّلتُها هناك حزينةً ووحيدة، ممسوسةً في قلعتها السِحرية عامًا بعد عام. وجاءت في رأسي أفكار مجنونة من كل نوع، أنا مُحرج من الكلام عنها. وبينما أفكّر في هذه الأشياء كانت فكرة أخرى على مستوى آخر أكثر ضبابية تَغزِل كُرة صوفها الأسود دون توقّف. هكذا تكوّنت خطّتي من تداخل أفكار مرتبكة عن فارس يسعى وراء المغامرات فيُنقذ امرأة ما ويكافأ على ذلك. أؤكد لك يا حضرة القاضي أن هذه ليست محاولة ماكرة لتبرئة نفسي. أنا فقط أريد أن أشرح دوافعي، أقصد أعمَق هذه الدوافع، إذا كان مثل هذا الشيء ممكنًا. فمع مرور الساعات واشتعال النجوم في شباكي الصغير ثم انطفائها بطيئًا من جديد، اندمجتْ آنا بيرينز في ذهني مع النساء الأخريات اللاتي في كَنَفي بشكل ما – دافني، طبعًا، وحتى أمي، حتى الفتاة السائسة أيضًا – لكن في النهاية حين جاء الفجر كانتِ المرأة المرسومة في اللوحة الهولندية المعلّقة في حجرة الحديقة هي التي تحلّق فوق السرير محملقة فيّ، مرتابة ومتسائلة بهدوء. نهضتُ وارتديتُ ملابسي، وقعدتُ على الكرسي جنب الشباك أشاهد ضوء النهار الرمادي

يتساقط على الأسطح ويتغلغل في الأشجار. كان عقلي يسابق نفسه، والدم يَفحّ في عروقي. لقد عرفتُ ما سأفعله. كنت متحمّسًا، وفي الوقت نفسه كان عندي إحساس ارتياع عميق. ثمة حراك في الطابق الأسفل. أردتُ أن أكون في الخارج، في الخارج، أفعل وأكون. شرعتُ في مغادرة الغرفة، لكني توقفت ورقدت على السرير برهة لأهدّئ نفسي، فرُحتُ على الفور في سبات عميق رهيب. كان الأمر كما لو أني ضُربتُ على رأسي. صحوتُ مرتجِفًا. وكأن قلب الأشياء كلها فوّتَ نبضة من نبضاته. وهكذا بدأ اليوم – كما سيكتمل – في أسباب الرعب.

كانت السيدة ريك طويلة ورفيعة. لا، كانت قصيرة وسمينة. لا أتذكرها بوضوح. لا أريد أن أتذكرها بوضوح. بحق الله كم من أولئك المسوخ تتوقعون مني أن أخترع؟ سأستدعيها للشهادة حتى تتمكنوا من أداء المهمة بأنفسكم. في البداية ظننتُها تتألّم، لكنّ ما جعلها تُطأطئُ رأسها وتُجفِل لم يكن سوى خجل رهيب يَعقد لسانها. أطعمتْني سجقًا وسجقًا أسود[45] وشرائح لحم مقدّد في ردهة خلف البار. (لم يتناول هذا الإفطار المشبع سوى الجلاد). ملأ الغرفةَ صمتٌ عويص وأنا أسمع صوت ابتلاعي الطعام. كانت الظلال تتدلّى من الجدران مثل سَعَفٍ من العنكبوت. وثمة صورة ليسوع تُبيّن قلبه يقطر أُنجزت بدرجات كثيفة من القرمزي والأصفر الباهت، وصورة فوتوغرافية لبابا أو آخر يبارك الجَمع من شرفة في الفاتيكان. إحساس قاتم استقر في صدري كالحموضة. ظهر ريك بقميصه وحمّالاته وسأل بحياء مُصطَنَع إن كان كل شيء على ما يرام. عظيم – قلتُ بقوة – عظيم! فوقف وطالعني بابتسامة حنون ونوع من الرضا والافتخار. وكأني شيءٌ ترَكَه يتكاثر في الليل. آهٍ من هذه الحيوات البسيطة المسكينة، وما أكثرها، التي

جرجرتُ آثارَ وَحْلِي عبرها. لم يذكر النقود التي أدين له بها ولو مرة، وحتى على الهاتف اعتذر عن أنه لم ينتظرْني. نهضتُ وتسللتُ من ورائه إلى الباب. قلتُ: سأخرج لحظة على قدميّ، أشم الهواء وأعود. وكنت أشعر بضحكتي الصفراء كشيء لزج يَقطر على وجهي. أومأ، واجتازت جبينه إلى خطم الخروف أدناه وَمضةُ حزن صغيرة. كنتَ تعرف أني سآخذ بعضي وأهرب، أليس كذلك؟ لماذا لم توقفني؟ أنا لا أفهم هؤلاء الناس. قلتُها من قبل. لا أفهمهم.

كانت الشمس تسطع عبر ضباب آخذ في الزوال. ما زلتُ مُبْكِرًا بدرجة مستحيلة. مشيتُ على أحد جانبي الشارع العمومي وعدتُ أدراجي على الآخَر، أرتجف من نفاد الصبر. لم يكن هناك إلا قليلون. من أين جاءت فكرة أنّ أهل الريف يستيقظون مُبكّرًا؟ مرّتْ شاحنة تَجرّ مقطورة فيها خنزير. في آخِر الشارع كان هناك جسر فوق جدول بُني ضحل، استندتُ مُدّة إلى سوره أتفرّج على المياه. كنت أحتاج أن أحلق ذقني. فكرتُ في العودة إلى ريك وطلب شفرة حلاقة منه، لكني – حتى أنا – لست وَغْدًا بما يكفي لمثل هذه الوقاحة. كان النهار يزداد حرارةً بالفعل. وبدأت أشعر بأن رأسي خفيف في الشمس وأنا أشاهد الماء يُخربش ويشهق من تحتي. بعد قليل جاء رجل جسيم مسنّ وبدأ يخاطبني بإخلاص. كان يلبس صندلًا ويحمل عصا غليظة من خشب الدردار، وثمة معطف "ماكينتوش"[46] مقطّع ينسدل على أحد كتفيه وكأنه قماشة "تارتان"[47] لعسكري أيرلندي قديم[48]. كان شعره طويلاً ولحيته ملبّدة. ولسبب ما وجدتُني أتخيل رأسه محمولًا في الهواء على صينية. كان يتحدث بهدوء بصوت جهوري قوي. لم أفهم كلمة مما يقوله – بدا أنه فاقد القدرة على اللفظ – ومع ذلك كان هناك شيء

مؤثّر بشكل غريب في وقفته هناك يستند إلى درداره وإحدى ركبتيه مثنية وعيناه مثبّتتان عليّ وهو يدلي بعهده. شاهدتُ فمه يتحرك وسْط دَغَل لحيته وأومأت رأسي ببطء وجدية. المجانين لا يخيفونني، ولا حتى يصيبونني بالضيق، بل أجد في هذيانهم ما يُسكّنني. أعتقد أن ذلك لأنهم يعتبرون كل شيء – من انفجار نجم "نوفا" وحتى سقوط التراب في غرفة مهجورة – على نفس درجة الأهمية، ومن ثم دون معنى. لقد انتهى من كلامه وظل لحظة يطالعني في صمت، ثم أومأ بوقار. ومع نظرة أخيرة ذات مغزى استدار ومدّ الخطى مبتعدًا فوق الجسر.

أعرف يا حضرة القاضي أني تكلّمتُ عن خُطّة لي، لكنها لم تكن خطة إلا بأوسع معنى. فأنا لم أكن طوال عمري أتقن التفاصيل. في الليل، حين فَقَسَتِ البيضة ورفرف الشيء جناحيه اللزجين الهشّين لأول مرة، قلتُ لنفسي إني مع مجيء النهار وابتداء الحياة الحقيقية من جديد سوف أضحك من هذه الفكرة غير المعقولة. وفعلًا ضحكتُ، وإن كان ضحكي شابَهُ شيءٌ من الفِكْر. وأعتقد، حقيقة أعتقد، أني لو لم أكن عالقًا في تلك الحفرة دون شيء لتزجية الوقت إلا أفكاري القاتمة، لما حدث شيء من ذلك. كنت ذهبت إلى تشارلي فرينش واقترضتُ منه بعض المال، ثم عدتُ إلى الجزيرة فدفعت دَيني للسنيور أغويرا، وفيما بعدُ كنت أخذتُ زوجتي وصغيري ورجعتُ إلى الديار، إلى كولغرينج، لأصالح أمي وأستقر فأُصبح صاحب أرضٍ متواضع مثل أبي، وأعيش، وأكون سعيدًا. آهِ...

ماذا كنت أقول؟ خطتي، نعم. أنا لستُ عَقْلًا مدبّرًا سيادتكم. إن الجرائد، وهي منذ البداية مهووسة – فإنه موسم البلاهات رغم كل شيء، وقد أعطيتُهم قصة رائعة ومستمرة – صوّرتني على حالتين اثنتين

كسفّاح أرعن وكوحش أشقر دقيق وبارد كالثلج بإرادة من حديد. لكني أقسم أنه لم يكن إلا انجرافًا كله، مثل كل شيء سواه. ولعل الفكرة داعبتْني فعلًا في البداية أو أني حكيتُها لنفسي كما لو كانت حكايته وأنا – الأمير الساهد – راقد في بيت الأم ريك المصنوع من كعك الزنجبيل بينما النجوم تتزاحم صامتةً في الشباك. في الصباح نهضتُ ورفعتها أمام عيني في الضوء – الفكرة التي داعبتني – وكانت قد بدأت تجمد فعلًا، تتيبّس. الغريب أنها كانت كعمل شخص آخر، أُعطيتُه أنا لأقيسه وأختبره. ويبدو أن عملية الإبعاد هذه كانت تمهيدًا ضروريًا للقيام بالفعل. فربما يفسّر ذلك الإحساس العجيب الذي اعتراني هناك على الجسر فوق النَهْر المُبقبق. صعبٌ أن يوصف. شعرتُ بأني لا أُشبِه نفسي أبدًا. ما أعنيه أن الرجل الجسيم زائد الوزن بعض الشيء، بشعره الأشقر وبدلته المجعّدة، وهو جالس هنا يقتل الوقت منكدًّا، كان مألوفًا تمامًا لكنْ مع ذلك، في الوقت نفسه، بدا الأمر كما لو كنت أنا – الأنا الحقيقي المفكر صاحب الحواس – حبستُ نفسي بشكل ما في جسد ليس جسدي. لكن لا، ليس هذا هو الموضوع بالضبط. فالشخص الذي في الداخل كان هو الآخر غريبًا عني، بل أغربَ بكثير من المخلوق الجُسمانيّ المألوف. أعرف أن هذا ليس واضحًا. أقول إن الشخص الذي في الداخل كان غريبًا عني أنا، ولكن أي نسخة مني أعني؟ لا، ليس واضحًا أبدًا. لم يكن إحساسًا جديدًا على أي حال. فدائمًا ما شعرتُ بأني – ما هي الكلمة؟ – مُفَرَّغٌ، هذه هي. اليوم مع ذلك كان هذا الشعور أقوى وأبرز من المعتاد. كان بانتر متململًا، يتوق للخروج. لقد حُبِس طوال هذا الوقت وهو يتمتم ويتذمر ويُهدّد في الداخل، وكنت أعرف أنه حين يندفع خارجًا في النهاية لن يكف عن الكلام. شعرتُ بالدوار.

أَدقَعَ أحشائي غثيان رمادي. أتساءل إذا ما كانت المحكمة تقدّر حالتي العصبيّة، ليس فقط يومها ولكن طوال تلك الفترة؟ لقد كانت زوجتي وابني رهينتين لدى أشرار وأنا عمليًا مُفلس، مصروفي ربع السنوي من ميراث أبي الزهيد تبقّى على موعده شهران. وها أنا ذا بعد ليلة مُريعة بعينين حمراوين وذقن نابتة وقد انقطعت بي السبل وسط مكان قصيّ أتدبر أفعالًا مستميتة. كيف يمكن ألا أكون دائخًا؟ كيف لا يجتاحني الغثيان إلى أعماقي؟

مع الوقت شعرتُ بالحياة تَدبّ بَليدَةً من ورائي في القرية. وعدتُ أدراجي عبر الشارع العمومي وعيني على الطريق لئلا أقابل ريك اللحوح أو – الأسوأ – أمه. كان الصباح مشمِسًا وساكنًا، مثقلًا بالندى ومخدِّرًا قليلًا وكأن جِدَّتَه أثملته. ثمّة بقع من الرطوبة على الرصيف. سيكون يومًا بهيًّا. أي نعم بهيّ.

لم أعرف حتى وجدتُه أني كنت أبحث عن محل الأدوات الحديدية الذي أَوْقف ريك عربة الأجرة جواره البارحة. امتدتْ ذراعي أمامي ودفعتِ الباب لتفتحه. دقّ جرس. سيّرتني ساقاي إلى الداخل.

عتمة، رائحة كيروسين وزيت حار، وعناقيد أشياءَ تتدلّى فوق الرؤوس. كان شيخ قصير بدين وأصلع يكنس الأرضية. كان يرتدي "شبشبًا" بفَرو ومعطفَ بيّاعٍ بلون القرفة لم أرَ مثله منذ كنتُ طفلًا. ابتسم وأومأ لي واضعًا مقشّته جانبًا. ومع ذلك ظل ممتنعًا عن الكلام – لا شك أن هذا من آداب المهنة – حتى أخذ وضعه خلف طاولة الخِدمة، منحنيًا إلى الأمام على ذراعيه ورأسه مائل على أحد الجانبين. وفكرتُ إن التأثير لا ينقصه إلا نظّارة بإطار سلكي. أحببتُه مباشرة. بصوت مبتهج كمن يحك يدًا في الأخرى تَحَمُّسًا قال: يومك سعيد يا سيدي.

فتحسّنتْ حالي على الفور. كان مؤدّبًا بالدرجة الصحيحة بالضبط، دون تذلّل مبالِغ ولا إيعاز بالفضول. اشتريتُ كرة من السلك وحزمة ورق تغليف بني. كذلك حبال – أتذكر أنها كانت ملفوفة في أسطوانة ضيّقة مثل عُقدة حبل المَشنقة – من النوع القنّبي الجيد، قوية وملساء، وليس ذلك النوع البلاستيكي الحديث. لم يكن لدي إلا فكرة بسيطة عما أنوي أن أصنعه بهذه الأشياء. الحبل مثلًا كان تَرَفًا خالِصًا. لم أهتم. فأنا لم أشعر بمثل هذه المتعة البسيطة الطماعة منذ سنين أو عقود. وضع البياع بضاعتي بحب أمامي على الطاولة مترنّمًا قليلًا في سرّه وهو يبتسم ويضم شفتيه مستصوبًا اختياراتي. هذا وقت اللعب. في ذلك العالم التمثيلي يمكنني أن أحصل على أي شيء أريده. منشار تلسين بمقبض من الخشب الوردي مثلًا. أو مقابض على شكل قرود مقرفِصة. ذلك الدلو الأبيض المَطليّ بالمينا وعلى أحد جانبيه ظلٌّ رقيقٌ أزرق بلون اللحم المُزرق... آهِ، أي شيء! ثم لمحتُ المطرقة. قطعة محبوكة ومصقولة من الفولاذ المقاوم للصدأ مثل عظمة من فخذ حيوان سريع، لها مقبض أسود مُخملي من المطاط ورأس ومخلب مزرقان. أنا لا أملك أي قدرة على العمل بيدي، لا أظنني أستطيع أن أدق مسمارًا في خط مستقيم، لكني أعترف أني دائمًا ما كنت أضمر رغبة سرية في امتلاك مطرقة مثل هذه. المزيد من الضحك في المحكمة طبعًا، المزيد من القهقهات الفاحشة من جهابذة القاعة. لكنْ يا حضرة القاضي، يا أيها المحلّفون ممن تجيدون استعمال أيديكم بكل وداعة، أنا مصمّم أنها لم تكن إلا رغبة بريئة، أُمنيةً أو توقًا من جانب الطفل المحروم في جوفي – ليس بانتر، لا، ولكن الشبح الحقيقي المفقود لصباي – لامتلاك هذه اللُعبة الرائعة. ولأول مرّة تردّد أبي الروحي في عالم الجِنيّات وتطوّع.

ثمّة "مودلات" أخرى، هكذا تطوّع. ثم أضاف في همس سريع لاهث: أرخص يا سيدي. لكن لا، لا، لم أستطع أن أقاوم المطرقة. كان لابد لي من الحصول عليها. هذه! نعم، تلك الموضوعة هناك وعليها بطاقة. المُستَنَد "أ"، بعبارة أخرى.

خرجت من المحل مترنحًا وصُرتي تحت إبطي، مخدّرًا ومفترًّا مثل تلميذ مدرسة سكران. جاء البياع إلى الباب ليودّعني، بعدما صافحني بطريقة غريبة غامضة. لعله ماسوني يختبرني حتى يعلم ما إذا كنت أنا الآخر عضوًا في الأخوية؟ لكن لا، أُفضّل الاعتقاد بأنه لم يكن سوى رجل مهذّب طيب وحسن النيّة. ثمة كثيرون من هذا النوع في شهادتي.

كنت أشعر بعد هذا الوقت بأني أعرف القرية، بل بأني كنت هنا من قبل، وحتى أني فعلتُ كل هذه الأشياء من قبل. مشيت دون هدف في الصباح الباكر، جلستُ على جسر، ودخلتُ متجرًا لأبتاع أشياء. كان الأمر كما لو كنت رأيت نبوءة في المنام ونسيتُها، وها هي النبوءة تتحقّق. لكن الحقيقة أن شيئًا من حس الحتمية هذا أعدى كل ما فعلتُه يومها. الحتمي، مع ذلك، ليس هو المغفور في معجمي. حقًا لا، فثمة خليط قوي من الدماء الكاثوليكية والكالفينية تسري في عروقي.

خطر لي فجأة، بفرح غير ذي صلة، أنه يوم في منتصف الصيف.

إن هذا بلد رائع، فأي شخص يتكلم بلهجة "أولاد الناس" يستطيع أن يفعل أي شيء. ظننتُ أني متجه إلى موقف الحافلات لأرى ما إذا كانت هناك واحدة ستذهب إلى المدينة، لكني بدلًا من ذلك – المزيد من الحتمية – وجدتني خارج مرآب متهالك في ميدان القرية. كان صبي في "بلوفر" قذر ضيق عليه ببضعة مقاسات يرفع عجلات ويصفّر نشازًا من جانب وجهه. ثمة لافتة صفيح صدئة معلّقة على الحائط فوق رأسه

تعلن: "إيجار سيارات بلايموث". توقّف الولد وطالعني ببلادة. كان قد كفّ عن التصفير لكن شفتيه ظلتا مزمومتين. سيارة، قلت، مشيرًا إلى اللافتة، للإيجار؟ وأدرتُ عجلة قيادة خَفيّة. لم ينطق. فقط امتعض في حيرة عميقة وكأني طلبتُ شيئًا في منتهى العجب. ثم خرجتْ امرأة بدينة ذات صدر كبير من غرفة الحسابات وكلّمته بحدة. كانت تلبَس بلوزة قرمزية وبنطلونًا أسود ضيّقًا على صندل مفتوح بكعب عال. وكان شعرها الأسود كجناح غراب مكوّمًا على شكل "بريوش"[49]، تتدلى حلقات صغيرة منه على الجانبين. تذكرني بشخص ما، لا أعرف من. قادتني إلى الغرفة حيث اندفعتُ تلقائيًا إلى الأمام ما إن تبيّنت، وسْط كتلة بطاقات بريدية لا ذوق فيها معلّقة على الحائط خلف مكتبها، صورة للجزيرة والمرفأ بل والبار الذي قابلتُ فيه راندولف الأمريكي. شيء من شأنه أن يفقدني شجاعتي، نذير شؤم أو حتى ربما تحذير. ومع صدمة أخرى أدركت بمن تذكرني: أم الرضيع الذي كان يصرخ في شقة السنيور أغويرا.

كانت السيارة ماركة "همبر" و"الموديل" كبيرًا وثقيلًا وعاليًا. ليس قديمًا بما يكفي ليكون من الكلاسيكيات الجديرة بالاقتناء، فقط بعيد عن الموضة إلى درجة لا أمل معها. بدا أنها صُنعت لزمن أبسط وأكثر براءة من هذا الزمن، زمن تَسْكنه فصيلة من الأطفال الكبار. كان لتنجيدها رائحة بُرازية خافتة. سُقتُها باتزان على السرعة الثالثة عبر القرية، جالسًا على ارتفاع كبير فوق الطريق وكأني محمول على مَحَفّة. أصدر المحرك ضجة أشبه بالهتاف المكتوم. كنت دفعتُ تأمينًا خمسة جنيهات، ووقّعتُ وثيقة باسم "سميث" (كتبته بحرف "واي" بدلًا من "آي"، وظننتها لمسة جهنمية الذكاء). لم تطلب المرأة

حتى أن تطّلع على رخصة قيادة. كما أقول لك، هذا بلد رائع. كان قلبي خفيفًا بدرجة استثنائية.

وبمناسبة نزهات السياقة. ذهبتُ إلى جنازة أمي اليوم. اصطحبني ثلاثة من رجال الزي المدني في سيارة مغلقة. أعجبني الوضع جدًا. فقد أَسرَعنا عبر المدينة وصافرات إنذارنا تنهق من فوقنا. كأنها إعادة كاملة لحَدَثِ القبض عليّ ولكن بالعكس. كان صباحًا جميلًا، مشمسًا ونضرًا مع دخان باهت في الهواء وأوراق شجر قليلة على الأرصفة بالفعل. شعرتُ بمزيج عواطف بالغ الغرابة: ثمة شيء متقرّح طبعًا، وجع، ولكنْ أيضًا نشوة، وشيء كالفجيعة لا يخلو هو الآخر من حلاوة. كنت أتحسّر ليس على أمي وحدها وربما ليس عليها أصلًا ولكن على الأشياء عامةً. ربما لم يكن سوى حزن سبتمبر المعتاد وقد أَبدتْه الظروف غير مألوف. تحركنا بمحاذاة النهر تحت سماء تراكمتْ فوقها حِزَم من الغيوم الهولندية المنيرة، ثم جنوبًا عبر الضواحي الخضراء. أدهشني البحر كما يفعل دائمًا، إناء من المعدن الأزرق المتحرك، يتصاعد الضوء على شكل رُقاقات عن سطحه. كان المُخبِرون الثلاثة كلهم مدخنين لا تنطفئ السجائر في أفواههم، وكانوا يمارسون عادتهم هذه بكآبة وكأنها جزء من واجبات العمل. عرض علي أحدهم سيجارة فقلت: التدخين ليس من خطاياي. وضحكوا بأدب. بدوا محرَجين، وظلوا يتطلعون بقلق من الشبابيك وكأنهم أُجبروا على الخروج مع قريب لهم مشهور وسيّئ السمعة، فخافوا أن يتعرّف عليهم أحد ممن يعرفونهم. الآن صرنا في الريف، وثمة ضباب فوق الغيطان لا يزال، والأسوجة مندّاة. دُفنتْ في القسم الخاص بالعائلة في المقابر القديمة في

كولغرينج. لم يُسمح لي بمغادرة السيارة ولا حتى فتح الشباك. وسُررتُ سرًا بذلك، فلم يمكنني تخيل نفسي أخرج فجأة هكذا إلى العالم. ركّن السائق السيارة على أقرب مسافة ممكنة من القبر، وجلستُ في جو دخان السجائر الفاسد أتفرج على الدراما القصيرة المبتذلة تتكشّف خلف الزجاج المضبب وسْط الشواهد المائلة. لم يكن هناك الكثير من المشيّعين: خالة أو اثنتان، عجوز كان يعمل لدى أبي في الإصطبل منذ سنين طويلة. كانت الفتاة جوان هناك طبعًا، بعينين حمراوين ووجهها المسكين مبقّع ومنتفخ، ترتدي بلوفر غليظًا وتنّورة معوجة. وكان تشارلي فرينش يقف على مسافة قصيرة من البقية ويداه مشبّكتان في إحراج. أدهشني أن أراه. إن مجيئَه دليل تهذيب بل شجاعة. لا هو ولا الفتاة وجّها نظرهما ناحيتي لكن لابد أنهما أحسا بضغط تحديقي الرطب. بدا لي التابوت صغيرًا بشكل مدهش، فحين أنزلوه إلى الحفرة كان هناك مساحة فائضة. ماما المسكينة. لا أصدّق أنها رحلت. أقصد أن حقيقة الأمر ما زالت لم تستقر في داخلي. وبشكل ما يبدو الأمر كما لو أنها حُزِمتْ وأُرسِلتْ بسرعة حتى تُفرغ مساحة لشيء أهم. وبالطبع لا تفوتني مفارقة الوضع، فلو كنت انتظرت بضعة أشهر لما صارت هناك حاجة إلى... ولكن لا، كفى من ذلك. سيقرأون وصيتها في غيابي، وهذا كما ينبغي أن يكون. آخِرَ مرة رأيتُها تشاجرتُ معها. كان هذا يوم غادرتُ إلى وايتووتر. لم تزرْني في السجن. ولا ألومُها. لم أُحضر لها الطفل حتى لتراه. لم تكن قوية كما تخيلتُ. هل دمّرتُ حياتها هي الأخرى؟ كل أولئك النساء الموتى.

حين انتهت مراسم الدفن مر تشارلي من جنب السيارة ورأسه منكّس. بدا أنه تردّد لكنه غيّر رأيه وواصل المسير. أعتقد أنه كان

ليتحدث معي لولا حضور المخبرين وخالتيّ المتحفّزتين من خلفه، ولولا البشاعة العامة في كل شيء.

إذن أنا أسوق الـ "همبر هوك" مبتعدًا عن القرية وعلى وجهي ضحكة حمقاء. شعرتُ لا لسبب جيد بأني أهرب من كل مشاكلي، وكنت أتصورها تتضاءل في الفضاء والزمن مثل القرية نفسها، خلطة طريفة من الأشياء تَصغُر باطراد. لو كنت توقّفتُ لحظة لأفكر لأدركتُ بالطبع أن ما أتركه ورائي ليس معضلاتي المتداخلة كما أتخيل بهيام وإنما – على العكس – كتلة من الأدلّة واضحةً ودامغةً مثل عيّنة شَعر متلبّد ودماء. أنا هربت من مشرب ماما ريك دون سداد فاتورة بَيَاتي. اشتريتُ عُدّة "لِصّ" في محل عُدَد القرية. والآن عمليًّا سرقتُ سيارة... وكل هذا على بعد أقل من خمسة أميال مما لم يبق إلا القليل حتى يسمّى مسرح الجريمة. ستتفق معي المحكمة في أن هذه بالكاد علامات الإصرار الدقيق والترصّد. (لماذا يبدو نصف ما أقوله وكأنه تصدير ماكر لالتماس بتخفيف الحكم؟) الحقيقة أني لم أكن أفكّر على الإطلاق، لم أكن أفعل ما يمكن أن يسمّى تفكيرًا. كنت سعيدًا بالانسياق عبر الشمس والظل فوق تلك الطرق الخلفية المبرقشة، بِيَدٍ على عجلة القيادة وكوع خارج الشباك، عطور الريف في منخريّ والنسمة تضرب شعري. سينتهي كل شيء على خير. سينحل كل شيء من نفسه. لا أعرف لمَ شعرتُ بكل تلك النشوة. لعله شكل من أشكال الهذيان. على أي حال – هكذا قلتُ لنفسي – هذه فقط لعبة طائشة ألعبها. ويمكنني أن أوقفها متى أردتُ.

وفي غضون ذلك ها هي وايتووتر تتصاعد وراء الأشجار.

كانت حافلة رحلات خالية مركونة لدى البوّابة وباب السائق مفتوحًا بينما السائق مُستلقٍ على سلالم الحافلة يتشمّس. شاهدني وأنا ألف من أمامه إلى الدرب. لوّحتُ له وكان يرتدي نظّارة ملوّنة. سيتذكرني.

فيما بعدُ لم يفهم الشّرطة لماذا لم أُبدِ المزيد من الاحتراز وأنا أسوق سيارة لا تُخطَأ بجسارة هكذا في وضح النهار. لكني كنت أعتقد كما ترى أن الموضوع سيكون بيني وبين بيرينز حصْرًا، ولعل آنا تلعب دور الوسيط. لم أتخيل احتمال حدوث شيء سوقي مثل تحقيق شُرطة ومانشيتات في الجرائد وبقية هذه الأشياء. مجرد معاملة تجارية بين شخصين متحضّرين، هذا ما قصدتُه. سأكون مؤدبًا ولكن حاسمًا، لا أكثر. لم أكن أفكر بمنطق التهديد والمطالبة بِفِدية، بالتأكيد لا. وفيما بعدُ حين قرأت ما كتبه أولئك الصحفيون – "مطاردة منتصف الصيف"، هكذا سموها – لم أتعرّف على نفسي في تقديمهم لي كشخصية فولاذية دون رحمة. دون رحمة، أنا؟ لا، لم أكن أفكر في الشرطة وأنا ذاهب إلى وايتووتر، فقط في السائق الخصوصي فلين، بعينيه الأشبه بعيني خنزير ويديه المُلحِمَتين كيدي ملاكم. نعم، فلين هو الرجل الذي ينبغي تجنّبه.

في منتصف الدرب...

يا الله، هذه التفاصيل المملة.

في المنتصف مفترق طرق. إلى اليمين سهم خشبي مكتوب عليه "البيت" بالطلاء، وإلى اليسار ثمة لافتة تقول "خاص – ممنوع". أوقفتُ السيارة. شاهدوني هناك، وجهًا كبيرًا مغبّشًا خلف الزجاج الأمامي يدقّق النظر في ناحية ثم أخرى. مِثْلَ رسمة في كتيّب وعظي: الآثم يتردد عند مفترق الطرق. اتجهتُ إلى اليسار، وشعرتُ بلَكزة ترقّب في قلبي. فانظروا إلى ظالِمِ نفْسِه يَحيد عن طريق الحق.

لقد طُفتُ بالجناح الجنوبي للبيت، وصففتُ السيارة على العشب ثم مشيت على الخضرة إلى حجرة الحديقة. كانت النافذة الفرنسية

مفتوحة. نَفَس عميق. لم يكن الوقتُ ظهرًا بعدُ. وبعيدًا في المزارع في مكان ما كان جرّار يعمل، ويُصدر أزيزًا دائخًا كأنه صوت الصيف. إني أسمعها ما أزال، تلك الأغنية المنمنمة النائية، أغنية ما قبل خروج الإنسان من الجنة. كنت تركتُ الحبل والمطرقة في السيارة، وأحضرتُ معي السلك وورق التغليف. لَفَتَ نظري فجأة كم هو عبثي هذا الموقف بأسره. فبدأتُ أضحك، وضاحكًا خطوتُ إلى داخل الحجرة.

إن اسم اللوحة، كما يعرف الجميع الآن ولابد، "صورة شخصية لامرأة بقفاز". إن حجمها اثنان وثمانون في خمسة وستين سنتيمترًا. ومن الأدلّة الداخلية – زِيّ المرأة على وجه الخصوص – يقُدّر أن تاريخ إنجازها بين عامي 1655 و1666. لا يخفف سواد فستان المرأة وبياض ياقته العريضة وكُمّيه إلّا مشبك زِينة وبعض الزخرفة الذهبية على القفاز. للوجه قالب شرقي نوعًا ما. (أنا الآن أقتبس من الكتيّب السياحي الخاص بوايتووتر.) وقد نُسبَت اللوحة لـ "رمبرانت" كما نُسبتْ إلى "فرانس هالس" وحتى "فيرمير" لكن الأسلم النظر إليها باعتبارها عملًا عملاقًا مجهولًا[50].

لا يعني شيء من هذا أي شيء.

لقد وقفتُ أمام لوحات أخرى ربما أعظم لكنها لم تؤثّر فيّ كما فعلت هذه. عندي نسخة فوتوغرافية منها على الحائط فوق طاولتي هنا – أرسلتْها إلي، من بين كل الناس، آنا بيرينز – وحين أطالعها يَنعَصر قلبي. ثمة شيء في نظرة المرأة إلي، ذلك التصميم الصامت المتذمّر في عينيها، لا يمكنني الهرب منه أو تخفيفه. أتلوى في قبضة تحديقها. إنها تطالبني بجهد كبير، إنجاز هائل على مستوى التركيز والانتباه لا أعتقد أنني قادر عليه. وكأنها تطلب مني أن أبعثها إلى الحياة.

هي. لا وجود لهي طبعًا. هناك فقط توزيع أشكال وألوان. ومع ذلك فأنا أحاول أن أخترع لها حياة. إنها – لأقُلْ – في الخامسة أو السادسة والثلاثين، مع أن أناسًا بتفكير ضحل ما زالوا يتكلمون عنها باعتبارها فتاة. تعيش مع أبيها التاجر (تبغ، توابل، وفي السر عبيد). تدبّر له أمور المنزل منذ موت أمها. لم تكن تحب أمها. أبوها يشغف بها، فلا أبناء له سواها. إنها كَنزُه، هكذا يُصرّح. تبتكر قوائم طعام، فمعدة أبيها حسّاسة. تراقب المطبخ. تُشرف حتى على مخزن النبيذ الخاص به. تَجرُد بياضات البيت في قائمة خاصة داخل دفتر صغير مربوط في حزامها بسلسلة ذهبية فخمة، مستخدمة شفْرة ابتكرتْها حيث لم تتعلم القراءة والكتابة أبدًا. إنها صارمة مع الخدم، ولا تسمح بأي تبسّط. تَعتَبر كراهيتهم لها احترامًا. ليس البيت كافيًا لامتصاص طاقاتها، لذلك تقوم بأعمال خيرية إضافة إليه. تعود المرضى، وهي عضو في مجلس زوار مأوى فقراء المدينة. إنها نشطة وأحيانًا ضيقة الصدر، وثمة همهمات ضدها من جانب أهل الصدقات، بالذات العجائز. أحيانًا – وعادة ما يكون ذلك في الربيع وبداية الشتاء – تنوء بحِمل كل شيء. لاحِظوا شحوب بشرتها الرطب. إنها عُرضة لعِلَلٍ غامضة. تَخلد إلى سريرها وترقد أيامًا لا تتكلم، بالكاد تتنفس، بينما في الخارج يَقطع ضوء الشمال المفضّض طريقه مشغولًا. تحاول أن تصلي، لكنّ الله قَصي. يأتي أبوها ليعودها في المساء، ماشيًا على أطراف الأصابع. تخيفه فترات الانبطاح هذه. يتذكر احتضار زوجته، صمتَها الرهيب في الأسابيع الأخيرة. لو أنه فقد ابنته كذلك... لكنها تنهض، تُعمِل إرادتها حتى تستطيع، وخلال وقت قصير يكون الخدم قد ذاقوا حِدّة لسانها من جديد. فلا يستطيع أن يسيطر على ارتياحه وقد تنفّس الصُعَداء، يتجلّى ذلك في ضحكات

صغيرة وإشارات شقيّة إلى المحبّة، ضَربٍ من المداعبة المتخبّطة. تطالعه باستياء ضاحك ثم ترجع إلى مَهمّاتها. لا تستطيع أن تفهم الفكرة التي سيطرت عليه: يريد أن تُرسَم لها صورةٌ شخصية. أنا عجوز، هذا كل ما يقوله لها. أنا رجل عجوز، انظري إلي! ويضحك بحرج متحاشيًا عينيها. بورتريه لي – تقول – أنا؟ لستُ موضوعًا جديرًا برسام. فيهز كتفيه، الأمر الذي يفزعها أولًا ثم يُضحكها ضحكًا كئيبًا. كان يمكن له أن يناقضها على الأقل. يبدو أنه يفهم ما يدور بخُلدها فيحاول أن يُصلح الأمور لكنه يرتبك. وبينما تشاهده ينتف كُمّيه قلقًا مضطربًا تدرك مع غُصّة أنه حقيقة شاخ. أبوها، رجل عجوز. للفكرة لمسة كوميديا قاتمة لا تستطيع أن تفسرها. كان يقول، وقد تعصّب مستاءً من نفسه ومنها على حد سواء: لك يدان جميلتان، يدا أمك. سنجعله يُبرز اليدين. وهكذا، لتجاريه ولكن أيضًا لأن الفضول أصابها سرًا، تصاحبه ذات صباح إلى المرسم. أوّل ما يَلفت انتباهها هو البؤس. وَسَخ وبقع ألوان في كل مكان، عظام دجاجٍ قُضمت على صحن ملطّخ، مَبْوَلة غرفة النوم على الأرض في الزاوية. والرسام صنو مقرّه بذلك الثوب القذر، تلك الأظافر. إن له الأنف الأفطس المُنقّر لسكّير. تظن أنها التقطتْ نفحة من نفسه. وتكتشف أن حِملًا قد انزاح عن كاهلها، فقد توقعتْ شابًا ماجنًا يهدد أمانها وليس "خَمُرْجِيًّا" بكرش مثل هذا. لكنه يعود ويثبّت عينيه الصغيرتين البليلتين عليها لحظة بنوع من الحِدّة المجرّدة فتُجفل وكأنها دوهمتْ في دفقة ضوء قوي. لم ينظر إليها أحد أبدًا بهذه الطريقة من قبلُ. هذا إذن ما يعنيه أن يُعرف الإنسان. شيء يكاد ينافي الحشمة. في البداية يوقفها جنب الشباك، لكنْ لا يناسبه ذلك – هكذا يقول – فالضوء خطأ. إذّاك يحرّكها قابضًا على ذراعيها

من فوق ويُمَشّيها إلى الخلف من مكان إلى آخر. تشعر بأنها ينبغي أن تكون ساخطة، لكن يبدو أن شيئًا هنا يوقف ردود الأفعال المعتادة عن العمل. إنه أقصر منها مقدار رأس. يصنع بعض الاسكتشات ويدوّن ملاحظة أو اثنتين عن الألوان، ثم يطلب منها أن تعود غدًا في الساعة نفسها. "والبسي فستانًا أدكن،" يقول. فتكون على وشك الانفجار فيه: "حسنًا..." لكنه يستدير عنها إلى مهمّة أخرى. وصيفتها جالسة عند الباب تعضّ على شفتها وتكتم ضحكتها. تدع اليوم التالي يمر، والذي يليه، فقط لتُخالفه أمره. وحين تعود لا يذكر موعدهما الذي تغيّبتْ عنه. فقط يتطلّع إلى فستانها الأسود – حرير خالص، بياقة عريضة من الدانتيل الإسباني – ويومئ دون اكتراث، ما يغيظها منه إلى درجة تُدهشها وتَصدمها في نفسها. يجعلها تقف أمام الأريكة ويقول: انزعي قُفازك، عليّ أن أُظهر اليدين. وتسمع نبرة الاحتقار المتفكّه في صوته. فترفض. (إنهما يداها هي!) يُصِرّ. فيشتبكان في شجار جاف مختصر أشبه بلعبة مَضَارب والكرة عبارة عن تأدّب جليدي. في النهاية توافق على خلع أحد القفازين، ثم تعود فتسعى إلى إخفاء اليد التي كشفتها. يتنهد ويهز كتفيه، لكنه يُضطر لكبح ابتسامة كما تلاحظ. يسيل المطر على الشبابيك، ومِزق الدخان تطير فوق الأسطح. في السماء ثقب فضيّ هائل. في البداية تتململ إذ تقف هناك ثم يبدو أنها تجتاز حاجزًا ما في صمت فيحل عليها هدوء حُلْمِيّ. وهذا هو الحال يومًا بعد يوم. في البداية يكون هناك اضطراب ثم تأتي الطفرة فيسود صمت ونوع من النعومة، وكأنها طافية بعيدًا، بعيدًا خارج نفسها. يُتمتم في سرّه وهو يعمل. إنه سريع الغضب، يسُب ويطقطق بلسانه ويُصعّد تنهيداتٍ وأنّاتٍ شتى. ثمة مقاطع طويلة محمومة وهو يعمل ملتصقًا باللوحة

فلا ترى إلّا ساقيه القصيرتين الغليظتين وبوطَه القديم المشوّه. حتى قدماه تبدوان مشغولتين. تريد أن تضحك حين يُخرج رأسه من جانب الحامل الخشبي ويُمعن فيها النظر بحدّة، وأنفه الأشبه بحبة البطاطس يرتعش. لا يسمح لها برؤية ما يقوم به، ممنوع حتى اختلاس النظر. ثم ذات يوم تَستشعر اصطدامًا ما دون صوت – اصطدامًا من النوع الذي يتبعه سكون – في جانبه من الغرفة. يخطو إلى الوراء بتعبير اشمئزاز مُجهَد ويده تلوّح دون اكتراث تجاه اللوحة ثم يستدير جانبًا ليُنظّف فرشاته. تتقدّم وتنظر. للحظة لا ترى شيئًا، فإلى هذا الحد هي مأخوذة بحسّ التوقف هكذا والاستدارة. كما لو أنها تَخرج من نفسها على قدميها بطريقة ما. تمر لحظة طويلة. تقول: المشبك مرسوم بعبقرية. ويُفزعها صوتها، كأنّ شخصًا غريبًا هو الذي تكلم، فتستكين. أمّا هو فيضحك، ليس بمرارة ولكن باستمتاع حقيقي وكما تحسّ هي بضرب عجيب من التعاطف. إنه اعتراف بـ... لا تعرف بمَ. تنظر وتنظر. كانت تتوقّع أن يكون الأمر مثل النّظَر في المرآة، لكنّ الذي أمامها شخص لم تتعرف عليه ومع ذلك تعرفه. تجيء الكلمات في رأسها من تلقاء نفسها: الآن عرفتُ كيف أموت. تلبس قفازها وتشير إلى وصيفتها. إن الرسام خلفها يتكلم. شيء ما عن أبيها والنقود بالطبع. لكنها لا تُنصت إليه. إنها هادئة. إنها سعيدة. تشعر بأنها مخدّرة، مُفَرَّغة، قشرة تمشي على قدمين. تنزل الدرج وتعبر الصالة القذرة ثم تخرج إلى العالم المبتَذَل.

لا تنخدعوا: هذا أيضًا لا يعني أي شيء.

كنتُ وضعت السلك والورق بحذر على الأرض، والآن خطوت إلى الأمام وذراعاي مفرودتان. انفتح الباب من ورائي ودخلتْ الحجرة امرأة جسيمة في تنورة توبد وسترة محبوكة. توقّفتْ حين أبصرتْني

هناك بذراعيّ على اتساعهما أمام اللوحة أدقّق النظر فيها بجُنون من وراء كتفي وأنا أحاول أن أخبّئ الورق ولُفافة السّلك على الأرض بقدم واحدة. كان شعرها فضيًّا يميل إلى الزّرقة، ونظارتها مربوطة بخيط حول عنقها وقد امتعضتْ. قالتْ بصوت عال ونبرة غاضبة: "لابدّ أن تظل مع المجموعة، حقيقة لا أعرف كم مرّة عليّ قول ذلك". خطوتُ إلى الخلف. دستة من ذوي الثياب المبهرجة يتزاحمون عبر الباب من ورائها، مشرئبين حتى يمكنهم أن ينظروا إليّ. آسف، سمعتُني أقول بوداعة. ضعتُ. حرّكتْ رأسها بضيق ومدّت الخطى إلى منتصف الحجرة حيث بدأت على الفور تصرخ بصوت مُنغّم متحدّثة عن طاولات "كارلان" وساعات "بيرتو".[51] بعد أسابيع، حين تستجوبها الشرطة وتَعرِض عليها صورتي، ستُنكر أنها رأتني في حياتها. لقد دخل الذين في عُهدتِها يُجرجرون أقدامهم ويتسابقون خلسة حتى لا يكونوا في مرمى بصرها. ثم اتخذوا أوضاعهم وأيديهم مشبّكة أمامهم كأنهم في الكنيسة وراحوا يتطلّعون حولهم ببلادة واحترام. افترّ شخص أشيب في قميص هاواي عن ابتسامة غامزًا في وجهي. وأعترف أني اضطرَبتُ. انعصر فم معدتي وترطّب كفاي. كل النشوة التي شعرتُ بها في طريقي إلى هنا تبخّرتْ، تاركة وراءها حسّ انقباض سافِر. لأوّل مرة حقيقةً لفتتْ نظري شناعة ما أقدمتُ عليه. أحسستُ كأني طفل قاده اللعب بعيدًا في عمق الغابة وها قد حلّ الظلام وثمة شخوص شبحية وسط الأشجار. كانت المرشدة قد انتهت من وصفها لكنوز الحجرة – اللوحة، لوحتي، لم تُعطَ إلا جملتين، كما نُسبت إلى الرسام الخطأ – وخرجتِ الآن إحدى ذراعيها متيبسة فوق رأسها ترشد المجموعة من ورائها وهي لا تزال تتكلم. بعدما غادروا انتظرتُ محدّقًا بثبات في مقبض الباب

متوقعًا أن تعود وتسحبني إلى الخارج بشدّة من تلابيبي. في مكان ما في جوفي كان صوتٌ يئن ناعمًا في فزع ورهبة. هذا شيء لا أظنه وُضع في الاعتبار، وقد أشرتُ إليه من قبل. أقصد كوني هَيّابًا وكم هو سهل تخويفي. لكنها لم تعد، وسمعتُهم يصعدون السلالم متثاقلين. فبدأت أعمل من جديد محمومًا. أراني مثل الشرير في أحد تلك الأفلام القديمة ذات البكرات الثلاث كما يسمونها، كلي ارتجافات وامتعاضات وأنا أهز حاجبيّ دون توقف. أنزلتُ اللوحة عن الحائط، ليس بسهولة، ووضعتها على الأرضية جافلًا من شزرة تلك المرأة الكئيبة. وبدأتُ أقطّع أطوالًا من ورق التغليف. ما كنت لأظن الورق يُصدر كل تلك الضجّة، كل ذلك الخبط والنزع والقطع الذي بدا وكأنه صوت حيوان كبير يُسلَخ حيًّا هناك. وكان الوضع سيّئًا، ارتعشتْ يداي وإبهاماي يعطلانني. وظلّت طيّات الورق ترتد إلى الخلف ملتفّة على نفسها وأنا ليس معي شيء أقطع به السلك وعمومًا اللوحة في إطارها السميك الثقيل أكبر من أن يمكن تغليفها. وَثَبْتُ هنا وهناك على ركبتيّ أكلم نفسي وأطلق صرخات كرب صغيرة. كل شيء يَفسُد. أَقلِعْ عن الأمر، هكذا قلتُ لنفسي. أرجوك أرجوك أقلع عنه الآن والوقت لا يزال يسمح! لكن جزءً آخر مني صرّ على أسنانه وقال: لا، لا تُقلِع يا جبانُ، قم، قمْ على رجليك، اقضِ أمرك. فجاهدتُ حتى نهضت أئن وأُنهنه وقبضت على اللوحة بين ذراعي ثم ترنّحت بها في عماء وأنفي في أنفها باتجاه النافذة الفرنسية. كانت هاتان العينان تحملقان في عيني، وكدتُ أحمرّ خجلًا. بعد ذلك – كيف أعبّر عن الأمر – بشكل ما استشعرتُ وراء هذا التحديق حضورًا آخر يراقبني. توقفتُ، وخفضتُ الصورة، وإذا بها تقف في النافذة المفتوحة تمامًا كما كانت في اليوم السابق، بعينين مفتوحتين عن آخرهما ويدٍ

واحدة مرفوعة. وأتذكر أني فكرتُ بمرارة: هذه هي القَشّة الأخيرة. كنت خارجًا عن شعوري. كيف جرؤ العالم على إلقاء هذه العقبات في طريقي؟ ليس هذا مُنصِفًا، ليس منصفًا أبدًا! طيّبٌ – قلت لها – ها هو، خذي. وزججتُ باللوحة بين ذراعيها ثم أدرتُها ومشّيتها أمامي على العشب. لم تقل شيئًا، وإن فعلتْ فلم أكن منصتًا. لم يكن طريقها على العشب سهلًا، فاللوحة كانت ثقيلة عليها وهي بالكاد ترى شيئًا من حولها. كلما تعثّرتْ كنت أنخسها بين لوحي كتفيها. حقيقة كنتُ غاضبًا جدًا. وصلنا إلى السيارة. وفاحتْ من صندوقها الأشبه بكهف رائحة سمك قوية. كانت هناك الخلطة المعتادة من الأدوات العصيّة على الفهم من رافعة ومفكات وأشياء – أنا لا قِبَل لعقلي ولا يديّ بالميكانيكا، هل ذكرتُ ذلك؟ – مع بلوفر قديم قذر بالكاد انتبهتُ له ساعتها، ألقاه في الركن بعَرَضيّة مخادِعة المهندس الخفي لكل هذه الأمور. أخرجتُ الأدوات وقذفتُ بها ورائي على العشب، ثم حملتُ اللوحة عن ذراعَي الخادمة ووضعتها ووجهها إلى أسفل على حصيرة اللباد البالية. كانت هذه أول مرة أرى فيها ظَهْر قماش الصورة، وفجأة لفت نظري كم هي عتيقة. قبل ثلاثمئة سنةٍ كان القماش قد شُدّ وقُطّع وتُرك مفرودًا على حائط مطلي بالجير ليجف. أغمضتُ برهة وعلى الفور رأيتُ معملًا في شارع ضيق في أمستردام أو أنتويرب وضوء الشمس المدخَّن في الشباك والباعة الجائلون يمرون في الخارج وأجراس كاتدرائية ترن. كانت الخادمة تراقبني. كان لها عينان بنفسجيتان فاتحتان وكانتا استثنائيتين إلى أبعد حد. بدتا شفافتين. فكنتُ إذ أطالعهما أحس أني أرى خلالَ رأسها مباشرة. لماذا لم تَفر؟ وراءها في أحد الشبابيك الكبيرة للطابق العلوي، كانت دستة رؤوس تتزاحم مدقّقة فينا. تبيّنتُ نظارة

المرشدة وقميص الرجل الأمريكي المريع. وأعتقد أني صرختُ جهرًا من شدة الغضب. أَسَدٌ عجوز يزأر في وجه السوط والكرسي، لأن الخادمة جفلتْ وأخذت خطوة إلى الخلف. فقبضتُ على رُسغها بمخلب من حديد ونازعًا الباب حتى انفتح قذفتُها قذفًا على المقعد الخلفي. آهِ، لماذا لم تفرا وأنا أستقر خلف عجلة القيادة أتخبّط وأزمجر لاحظت نفحة شيء ما، رائحة خافتة معدنية وحادة مثل رائحة القروش البالية. كنتُ أراها في المرآة جاثمة من خلفي وكأنها في صندوق زجاجي عميق، مثبّتة بين الباب وظهر المقعد، كوعاها بارزان وأصابعها مفرودة ووجهها مدفوع إلى الأمام مثل بطلة ميلودرامية محصورة في الزاوية. وتفجّر في جوفي إعصار شرس وخانق من نفاد الصبر. نفاد الصبر، نعم. فهذا ما شعرتُ به أكثر من أي شيء، هو وحِسّ فاجع بالإحراج. كنت ميّتًا خِزيًا. لم أكن مكشوفًا إلى هذا الحد في حياتي. كان الناس ينظرون إلي، وهي في المقعد الخلفي، والسياح من فوقنا يتزاحمون على الشباك. لكن كذلك بدا لي أن ثمة جمهورًا آخر من متفرجين أشباح، لابد أنهم كانوا إيعازًا بالحشد الذي سرعان ما سيكتظ حولي مسحورًا ومرعوبًا. أدرتُ المحرك فصرخت التروس. وفي ارتباكي ظللت أستبق نفسي فأُضطَر لأن أعود وأكرّر أبسط المهام. حين أخرجتُ السيارة من فوق العشب وصرنا على الدرب أفلتُّ دواسة التعشيق بأسرع مما يجب فاندفعتِ الماكينة إلى الأمام في سلسلة من الوثبات التي تهتز لها العظام وغطاء المحرك يتقافز إلى أعلى وأسفل مثل مقدمة سفينة والمصدات تخور. لابد أن المتفرجين في الشباك في غاية الاستمتاع الآن. سالت قطرة عرق على خدي. تكاد عجلة القيادة تكون أسخن من أن تُمسك بفعل الشمس، وثمة ضوء يُعمي على الزجاج الأمامي. كانت الخادمة تنبش مقبض الباب. صرختُ

فيها فتوقفتُ على الفور ونظرت إلي وعيناها متسعتان مثل طفل مُوبخ. عند البوابة كان سائق الحافلة ما زال جالسًا يتشمّس. حين رأته حاولت أن تفتح الشباك لكنْ دون جدوى، لابد أن الذراع الذي تفتحه مُعطّلة. فدقّت على الزجاج بقبضتيها. دوّرت عجلة القيادة فتدحرجتِ السيارة إلى الطريق والعجلات تَصِرّ. كنا نتصايح الآن، مثل متزوجين يتشاجران. لكمتْني في كتفي مرارًا، دسّتْ يدًا أمام وجهي وحاولت أن تخمش عيني. انزلق إبهامها في أنفي، حسبتها ستنزع منخري عن وجهي. كانت السيارة تتأرجح في عرض الطريق وطوله. ضغطتُ دواسة المكابح بقدميّ الاثنتين فانقدنا في قوس بطيء متمرّغ حتى اصطدمنا بالسياج. استدرتُ إليها. كانت المطرقة في يدي. نظرتُ إليها فزِعًا. تصاعد الصمت من حولنا كالماء. "لا تفعل،" قالتْ. إنها جاثمة كما كانت من قبل، وذراعاها مثنيتان وظهرها مضغوط في الزاوية. لم أستطع أن أتكلم وقد أصابني ضَربٌ من العجب. لم أكن قد أحسستُ بحضورِ آخرَ في حياتي بمثل هذه المباشَرَة والقوّة الخام. أبصرتُها الآن، أبصرتُها بحقٍّ لأول مرة، شعرها البني الفئراني وبشرتها السيّئة، تلك النظرة المعطوبة حول عينيها. كانت عادية تمامًا، ومع ذلك بشكل ما – لا أعرف كيف – كانت مُشرِقة. تنحنحتْ واعتدلت في جلستها، مُزيحة خصلة شعر كانت قد التصقت بجانب فمها.

قالتْ: "عليك أن تدعَني أذهب وإلا ستتورّط في مشاكل".

ليس من السهل استخدام مطرقة داخل سيارة. حين ضربتُها أوّل مرة توقعت أن أُحس باصطدام الفولاذ بالعظم حادًا وصريحًا، لكنه كان أقرب إلى طَرْق صلصال أو معجون طلاء متجمّد. قفزتْ إلى ذهني كلمة "يافوخ". حسبتُ خبطة واحدة جيدة تكفي لكن – وكما

سيظهر في التشريح الجنائي – كانت جمجمتها صُلْبة إلى درجة لافتة. حتى في هذا الأمر كما ترى كانت سيّئة الحظ. وقعتْ أول ضربة أعلى منبت شعرها مباشرة، فوق عينها اليسرى. لم يكن هناك دم كثير، فقط نُقرة لامعة داكنة الحُمرة وملبّدة بالشعر. ارتعدتْ، لكنها بقيت جالسة بظهر مفرود تتمايل قليلًا وتطالعني بعينين غير قادرتين على التركيز. ربما كنتُ لأكفّ ساعتها لو لم تكن قد ألقت بنفسها عليّ فجأة من المقعد الخلفي تخبِط بعماء وتصرخ. ذُعرتُ. كيف يحصل هذا معي؟ كلُّه غير منصف إلى أبعد حد. وتكدّستْ في عيني دموع رثاء الذات المريرة. دفعتُها عني ولوّحتُ المطرقة خلفيًّا في قوس عريض. أطاحتْ بها قوة الضربة فاصطدمت بالباب ورأسها بالشباك، وسال خيط رفيع من الدم من منخرها وعلى خدها. كان هناك دم على الشباك أيضًا، رَشّاش على شكل مروحة من القطرات المنمنمة. أغمضتْ عينيها وأشاحت بوجهها عني تُصدر صوتًا عميقًا وأجشّ في مؤخرة حلقها. رفعتْ يدًا إلى رأسها بينما أنا ألوّح بالمطرقة من جديد وحين سقطت الضربة على صدغها كانت أصابعها في طريقها فسمعتُ أحدها ينكسر وجفلتُ. كدتُ أعتذر. ياه، قالت، وفجأة وكأن كل شيء في جوفها قد تداعى. انزلقت على المقعد إلى الأرضية.

ساد الصمت من جديد، جليًّا ومفزعًا. خرجتُ من السيارة ووقفتُ وهلة أتنفس. كنت دائخًا. وبدا أن شيئًا حصل لضوء الشمس. أينما نظرتُ كان قاتمًا كأنه تحت الماء. حسبتُ أني سُقت مسافة قصيرة فقط وتوقعتُ أن أرى بوابة وايتووتر والحافلة السياحية والسائق يجرون تجاهي لكنْ أذهلني أن الطريق كانت خالية من الناحيتين وليس عندي أدنى فكرة أين أنا. على أحد الجانبين تَلٌّ شديد الانحدار، وعلى

الآخَر يمكنني أن أرى فوق قِمم أشجار الصنوبر تلالًا متدرّجة على مسافة بعيدة. بدا كل شيء غير معقول بشكل مؤكَّد. وكأنه خلفية رُسمتْ على عجل، بالذات تلك المسافة الملطّخة الوامضة والطريق الملتوية ببراءة إلى بعيد. وجدتُني ما زلت قابضًا على المطرقة. وبتلويحة عظيمة من ذراعي ألقيتها عني وراقبتها وهي تطير متشقلبةً على رِسلها في الهواء من رأسها إلى عقبها في قوس ممتد ساحر، بعيدًا وأبعد فوق قمم الصنوبر. ثم فجأة ملتُ إلى الأمام وتقيّأت البقايا الدّبِقة لإفطار تناولتُه قبل عهد كامل، في حياة أخرى.

زحفتُ عائدًا إلى داخل السيارة، حاجبًا بصري عن ذلك الشيء المهشّم المحشور وراء المقعد الأمامي. كان الضوء على الزجاج سطوعًا متشظّيًا. للحظة ظننتُ الزجاج قد تحطّم حتى وضعتُ يدي على وجهي فاكتشفتُ أني أبكي. كان هذا مشجّعًا. بدت دموعي ليس فقط بشارةً بالندم ولكن أيضًا علامة على دافع أبسط وأكثر سوقية، عاطفة لا اسم لها لكن قد تكون صِلتي الأخيرة والوحيدة التي ستبقى بعالم الأشياء العادية. لأن كل شيء تغير. وحيث أنا الآن، لم أكن من قبل. ارتعشتُ، كل ما حولي ارتعش، وكان هناك ملمس خامل ولزج للأشياء. وكأني أنا وكل هذه الأشياء – السيارة والطريق، الأشجار وتلك المروج البعيدة – خرجنا بجهد لتونا، صامتين ومبهوتين من ثقب في الهواء هو منشأنا. أدرت المِفتاح في قفل الإشعال وأنا أُعد نفسي لصدمة، مقتنعًا بأن شيئًا آخر سيحدث بدلًا من أن يدور المحرك. ستكون هناك ضجة هاتكة مريعة، أو برق من نور. أو سيتدفق على ساقي من تحت لوحة العداد وَحْلٌ لزج. سقتُ على السُّرعة الثانية عبر منتصف الطريق. الروائح، الروائح. للدم رائحة حارة وسميكة. أردتُ أن أفتح الشبابيك

لكني لم أجرؤ، فقد أخافني ما قد يدخل منها. بدا الضوء في الخارج رطبًا وكثيفًا كالغراء. تخيلتُه في فمي، في منخري.

سقت وسقت. وايتووتر على بعد ثلاثين ميلًا أو نحو ذلك فقط من المدينة، لكن بدا لي أن ساعات مرت قبل أن أجد نفسي في الضواحي. لا أذكر من الرحلة إلا قليلًا. أقصد أني لا أتذكر النقل بين السرعات، ولا الإسراع والإبطاء، ولا استعمال الدوّاسات، ولا شيء من ذلك. أراني أتحرك بالفعل وكأني داخل فقاعة من الكريستال، أطير دون صوت عبر طبيعة غريبة تبرق في ضوء الشمس. وأعتقد أني تحركتُ بسرعة شديدة، فأنا أذكر إحساس الضغط في أذنيّ ودويًا متسارعًا بليدًا. فلابد أني سقتُ في دوائر، أجوب الطرق الريفية الضيقة مرة بعد مرة. ثم كانت هناك البيوت، والمُجمّعات السكنية، والمصانع العشوائية، والبقالات كبيرةً كحظائر الطائرات. حدّقتُ عبر الزجاج الأمامي بذهول حالم. كان يمكن أن أكون زائرًا آتيًا من جزءٍ مختلفٍ تمامًا من العالم، لا أكاد أصدّق كم يبدو كل شيء مثل الديار ومع ذلك كم يبدو مختلفًا في نفس الوقت. لم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهب، أعني أني لم أكن ذاهبًا إلى أي مكان، فقط أسوق. والأمر يكاد يكون ضَرْبًا من الاستجمام، أن أنطلق هكذا محرّكًا العجلة بإصبع واحد ومعزولًا عن كل شيء. وكأني طوال حياتي أجاهد لأتسلّق مرتَفَعًا حادًا وصعبًا والآن بلغتُ القمة وقفزتُ إلى السماء مرتاح البال. شعرتُ بحرية هائلة. وعند أوّل إشارة مرور حمراء انساقتِ السيارة بنعومة حتى توقفتْ وكأنها تستسلم للهواء. كنت في مفترق طريقين وسط الضواحي. إلى اليسار كان هناك مرتفع صغير عليه شجرة كستناء وصف أنيق من البيوت الجديدة. كان الأطفال يلعبون على بِساط العشب. والكلاب تمرح. سطعت الشمس. ولطالما أضمرتُ

محبة سرية لمثل هذه الأماكن الهادئة، ميادين مجهولة ولكن عزيزة على أصحابها فيها البناء والفعل والرعاية. أسندتُ ظهري على ظهر المقعد وابتسمتُ وأنا أتفرج على الصغار يلعبون. تحوّل الضوء إلى الأخضر لكني لم أتحرك. لم أكن هناك حقيقةً ولكن ضائعًا في مكان ما، في زاوية من ماضيّ تضيئها الشمس. ثمة نقر مفاجئ على الشباك جنب أذني. انتفضتُ. كانت امرأة بوجه كبير وعريض أشبه بوجه حصان – ذكرتني، يا الله، بأمي – تُدقّق النظر إليّ داخل السيارة وتقول شيئًا ما. أنزلتُ زجاج الشباك. كان لها صوت عال، كان عاليًا جدًا بالنسبة إلي على أي حال. ولم أفهم كلامها. تتكلم عن حادث ما، وتسأل إذا ما كنتُ بخير. ثم مدّت بوزها إلى الأمام وضيّقتْ عينيها من فوق كتفي ففغر فمها وتأوهت. قالت: آه، الطفلة المسكينة! أدرتُ رأسي. ثمة دماء بعرض المقعد الخلفي الآن، أكثر بكثير ولابد من أن يكون ذَرَفَها شخص واحد. للحظة مجنونة اشتعلتْ فيها شرارة أمل ماكرة وانطفأت تساءلتُ إن كان تصادم حدث فعلًا لم ألحظه أو نسيته بطريقة ما، إن كانت مركبة تحمل أناسًا فوق طاقتها ارتطمت بمؤخرتنا وألقت بأجساد من عندها وبكل هذا الدم عبر الزجاج الخلفي. لم أستطع أن أتكلم. كنت اعتقدتُ أنها ميتة وإذا بها راكعة بين مقعدين تتحسس الشباك جوارها. سمعتُ أصابعها تئز على الزجاج. كان شعرها مسدولًا في حبال مدماة، ووجهها قناعَ صلصال مخططًا بالنحاس والقِرمِز. كانت المرأة في الخارج تهذر في أذني حول الهواتف وعربات الإسعاف والشرطة، الشرطة! استدرتُ إليها بنظرة مروّعة. سيدتي، قلتُ بحدة – لاحقًا ستصف لهجتي بأنها "مثقّفة" و"حازمة" – انشغلي بشؤونك رجاء! خطت إلى الخلف تحدّق مصدومة. أعترف أني أُعجبت بنفسي، ما كنت لأظنني قادرًا على مثل

هذه النبرة الآمرة. رفعتُ زجاج الشباك ونقلتُ السُّرعة قبل أن أنطلق ملاحظًا بعد فوات الأوان أن الإشارة عادت حمراء. نبحتْ بحدة شاحنة حِرَفيٌّ آتية من اليسار وخرجت منها صيحة ساخطة. واصلت السياقة. ومع ذلك لم أقطع إلا شارعًا أو اثنين حتى دنت في أعقابي عربة إسعاف فجأة، تموء صافرة إنذارها ويومض ضوءُها الأزرق. ذُهلتُ. كيف أمكنها أن تصل بهذه السرعة؟ الواقع أنها كانت صدفة أخرى من تلك الصدف الفظيعة التي تزخر بها هذه القضية. لم تكن عربة الإسعاف كما سأعرف لاحقًا تبحث عني، ولكنها عائدة – نعم – من موقع حادث سيارة، وثمة – آسف ولكن نعم – امرأة تحتضر في المقعد الخلفي. واصلتُ الحركة مسرعًا ورأسي منكّس حتى أن أنفي يكاد يلامس حز عجلة القيادة. لا أعتقد أنه كان بإمكاني أن أتوقف وقد تملّكني الخوف بهذه الطريقة. حاذتني العربة تتمايل بخطورة وتَصخب مثل دابة كبيرة هائجة. عامل الإسعاف الجالس في مقعد الراكب – شاب قوي البنية بوجه أحمر وسالفين رفيعين – تطلع إلى الشباك الملطّخ بالدماء خلفي باهتمام مهني رائق. تباحث بإيجاز مع السائق ثم أشار إليّ عبر إيماءات معقدة وهو يهز رأسه ويرسم الكلمات بشفتيه أن أتبعهما. اعتقدا أني قادم من حادث التصادم نفسه، أنقل ضحية أخرى إلى المستشفى. تقدماني مندفعين. وسرتُ في إثرهما وقد أربكني القلق والحيرة. لم أر شيئًا إلا ذلك الشيء الكبير المربع الأخرق ينساق إلى الأمام، يُسرع متخبطًا ويثير التراب وهو يتمرغ بثقل على مساعديه. ثم فجأة فرملتِ العربة وانحرفت عبر بوابة واسعة بينما ظهرت ذراع من جانب الشباك تشير لي أن أتبعها. رؤية هذه الذراع الغليظة هي التي أخرجتْني من شلل الخوف السابق. وبشهقة ضحك معتوه واصلتُ السياقة وجلبة صافرة

الإنذار تتضاءل من خلفي مثل شكوى فزِعة، حتى صرتُ حرًا.

دقّقت النظر في المرآة. كانت جالسة منكفئة على المقعد ورأسها متدليًا ويداها مستريحتين والكف إلى أعلى على فخذيها.

فجأة كان البحر إلى يساري، على مسافة من تحتي، أزرق لا يتحرك. سقتُ إلى أسفل تل شديد الانحدار ثم على طريق إسمنتية مستقيمة جوار خط سكة حديد. تراءى إلى يميني فندق زهريّ أبيض أشبه بقلعة والرايات ترفرف من عليه، ضخمًا وفارغًا. طاحت الطريق حتى انتهت وسط مستنقع من الأشجار الخفيضة والنباتات الشائكة. وهناك توقفتُ في وَسَط الصمت الأخير الشاسع. كنت أسمعها من خلفي تتنفس. حين استدرتُ رفعتْ وجه عرّافة مرعبًا ونظرت إلي. همست: ساعدني، ساعد–ني، وأضافت: يا تومي، أو كلمة مثلها، يا حبي. بمَ شعرتُ؟ الندم، الفجيعة، بشاعة الـ.. لا، لا، لا. لن أكذب. أنا لا أتذكر أني شعرتُ بشيء إلا حس العجب ذاك، وكأني في مكان أعرفه لكن لم أتعرف عليه. حين خرجتُ من السيارة كنت أشعر بالدوار، واضطررت للاستناد على الباب لحظة وعيناي مغمضتان بشدة. كانت سترتي ملوثةً بالدماء، فخلعتُها بصعوبة وألقيتُ بها وسْط الشجيرات المعاقة. لم يجدوها أبدًا، لا أعرف لمَ. تذكرتُ البلوفر في الصندوق ولبسته. كانت تفوح منه رائحة سمك وعَرَق وشحم عجلات. التقطتُ مشنقة الحبال وتخلصتُ منها هي الأخرى. ثم حملت اللوحة ومشيتُ بها إلى حيث ثمة سور متدلٍ من السلك الشائك ومَصرِفٌ بماء قليل في قعره وهناك طرحتُها. فيمَ كنتُ أفكر، لا أعرف. ربما كانت إيماءة نكران أو شيء ما. نكران! كيف أجرؤ على استعمال مثل تلك الكلمات. أعطتني المرأة ذات القفاز نظرة أخيرة لا مبالية. لم تتوقع مني ما هو أحسن

من ذلك. ثمة شيء يسقط علي، مطر صامت رقيق يهطل. نظرتُ إلى أعلى في ضوء الشمس اللامع ورأيت غيمة فوق رأسي مباشرة، لطخة رصاصية بالكاد تُرى وسط الأزرق الصيفي. فكرتُ: أنا لستُ إنسانًا. ثم استدرتُ وسرتُ بعيدًا.

–2–

رأيتُ طوال حياتي الراشدة رؤيا تتكرّر (نعم، نعم، الأحلام من جديد!) تأتي مرة أو مرتين في السنة وتتركني مضطربًا لأيام من بعدها. وكما هو معهود هذا ليس حلمًا بالمعنى العادي، فحقيقة لا يحدث فيه كثيرٌ، ولا يُصرّح بشيء. ثمة في الأساس إحساس غير معرّف ولكن عميق ومتزايد بالاضطراب، يتصاعد حتى ينقلب في النهاية إلى هلع تام. منذ زمن طويل فيما يبدو ارتكبتُ جريمة. لا، هذا أقوى مما يجب. فعلتُ شيئًا ما، لا يكون واضحًا أبدًا ما هو بالتحديد. ربما عثرتُ على شيء دون قصد. ربما ذلك الشيء كان جثة حتى، خبّأتُ أمرها حتى كدتُ أنساه. والآن بعد سنين عُثر على الأدلة فجاء اثنان يستجوبانني. إلى الآن لا شيء يرجّح أني متورط بشكل مباشر، ولا يلحق بي أي احتمال شُبهة. أنا مجرد اسم آخر على القائمة. وهما معتدلان، معسولا اللسان، يراعيانني في كلامهما وإن كانا باردَين وضَجِرين قليلًا. الأصغر سنًا منهما يتململ. أردّ على أسئلتهما بأدب ونوع من حس المفارقة، مبتسمًا، رافعًا حاجبيّ. إنها – هكذا أقول لنفسي – أقوى تمثيلية في حياتي، رائعتي في التصنّع. لكن الأكبر سنًا كما ألاحظ يطالعني باهتمام متزايد وعيناه الحصيفتان تضيقان. لابد أني قلتُ شيئًا ما. ماذا قلت؟ أبدأُ في التورّد، لا أستطيع أن أتحكم في حالي. ويتملكني انقباض فظيع. أهذر. ما أقصد به ضحكة صغيرة يتحول إلى شهقة مشنوقة. وفي النهاية تَفرُغ طاقتي وكأني لعبة

ذات نابض فأقعد وأحملق فيهم بعجز لاهثًا. وحتى الأصغر سنًا، الذي يحمل رتبة رقيب، صار مهتمًا الآن. يسقط صمت صاعق ويمتد أطول فأطول حتى تهمّ نفسي النائمة بالفرار فأفزع صاحيًا وأنا مبهوت أتفصّد عَرَقًا. إن الشيء الأبشع في كل ذلك بالأخص ليس احتمال أن أُسحب إلى المحاكم وأوضع في السجن بتهمة لستُ متأكدًا حتى أني ارتكبتُها ولكنْ الحقيقةُ البسيطة المروّعة لكوني قد كُشفتُ. هذا هو ما يعرّقني، وهو ما يملأ فمي بالرماد وقلبي بالخزي.

والآن وأنا متعجّل على الطريق الإسمنتية، وخط السكة الحديد جواري والبحر من بعده، انتابني نفس الشعور بالهوان. يا لي من مغفّل. ويا لِمشاكلي في الأيام، الأسابيع، السنين القادمة. ومع ذلك هناك أيضًا إحساس بالخِفّة، بالطفو، وكأني ألقيتُ عني حملًا سخيفًا. فمنذ بلغتُ ما يسمونه سن الرشد وأنا أفعل شيئًا وأفكر في آخر، ذلك أنّ ثقل الأشياء بدا أكبر بكثير من ثقل الأفكار. ليس ما أقوله أبدًا بالضبط ما أحسه، وليس ما أحسه كما يظهر هو ما ينبغي أن أحسه، مع أن الأحاسيس هي التي تبدو حقيقية وصحيحة ولا مهرب منها. الآن ضربتُ ضربةً لصالح الرجل الجوّاني ذاك البذيء السمين المقهقه الذي طالما قال لي إني أعيش كذبة. لقد اندفع خارجًا أخيرًا، وكان هو، الغول الذي يدبدب في هذا الضوء الليموني بدماء على فروته وأنا مُعلّق فوق ظهره لا حول لي ولا قوة. راح كل شيء، هُجِر، صُفّي من جوهره وفحواه. أن أفعل أسوأ شيء، أسوأ شيء على الإطلاق... هذه سكتي إلى الحرية. فلن أُضطر لأن أتظاهر أمام نفسي أبدًا من جديد بأني شيءٌ غيرُ نفسي. دَوَّرَتِ الفكرةُ رأسي وقلبت بطني الفارغ.

وقعتُ فريسة عدد كبير من المخاوف التافهة. إن هذا البلوفر

كريه الرائحة وضيق علي. ثمة مَزْقٌ صغير في ركبة بنطلوني اليسرى. سينتبه الناس لأني لم أحلق اليوم. ثم إني في حاجة، في توق حقيقي، إلى أن أغسل يدي، أن أغطس حتى الكوعين في رغاوٍ ساخنة كالنار، أن أفتح سدًّا على نفسي، أن أنقع وأشطف وأدعك هذا الجسم... حتى أكون نظيفًا. قبالة الفندق المهجور ثمة مزيج من المباني الرصاصية قد كان ذات يوم محطة قطار. كانت الأعشاب الشيطانية تنمو على رصيف القطار، وكل شبابيك كُشك الإشارات مهشّمة. ثمة لافتة مطلية بالمينا وعليها يد رُسمت عليها بِحُب تشير إلى مركز مراقبة إسمنتي على مسافة حذِرة من الرصيف. كانت حزمة من زهر القسورة البنفسجي مزدهرة عند باب حمام الرجال. دخلتُ حمام النساء، فلا قواعد تُتّبع الآن. كان الهواء باردًا وكاسدًا وثمة رائحة جير حي وشيء أخضر براق ينمو على الجدران. كانت لوازم الحمام خُلعتْ منذ زمن طويل، وحتى أبواب المراحيض لم تعد هناك. كان واضحًا من حالة الأرضية مع ذلك أن المكان ما زال يُستخدم بشكل دائم. في الزاوية ثمة كومة من الأشياء – واقيات ذكرية مستعملة، فيما أظن، مع كرات قطن حائلةِ اللون وحتى مِزَق ملابس – أشحت بعيني عنها بسرعة. حنفية واحدة على ماسورة نحاسية خضراء تَبرُز من الحائط حيث كانت أحواض غسيل اليدين. حين أدرتُ المحبِس كان هناك أنينٌ وصلصلة بعيدان وبعد قليل خرجتْ قطرات صدئة. غسلتُ يديّ بقدر ما أمكنني وجففتهما في ذيل قميصي. لكن حين انتهيتُ وكنت على وشك الذهاب اكتشفت قطرة دم بين أصابعي. لا أعرف من أين أتت. ربما كانت على البلوفر أو حتى في شعري. كان الدم خاثرًا الآن، قاتمًا ولاصقًا.

لا شيء، لا السيارة المُبقّعة ولا الشبابيك المُلطّخة، لا صرخاتُها ولا

حتى روائحُ موتها، لا شيء من هذا كله أثّر فيّ مثلما فعلتْ قطرة الصمغ المائلة إلى اللون البني هذه. دفعتُ بقبضتي تحت الحنفية من جديد، لكني لم أستطع أن أتخلص منها. لقد ذهب الدم لكنْ بقي شيء ما، طوال اليوم كنت أشعر به هناك متعلقًا بقطعة اللحم الطري التي يتفرّع عندها إصبعاي. بقعة سرية رطبة ودافئة.

"أنا خائف من التفكير فيما فعلتُ."

جلستُ فترة على دَكَّة رصيف القطار المكسورة في الشمس. كم كان البحر أزرق وكم كانت الأعلام الصغيرة التي ترفرف وتطقطق على حصون الفندق بهيجة. كان كل شيء هادئًا باستثناء نسيم البحر الذي يترنم في ارتطامه بأسلاك التلغراف. وشيءٌ ما في مكان ما كان يَصر ويدق، يصر ويدق. ابتسمتُ. كان يمكن أن أكون طفلًا من جديد، سارحًا هنا في أحلام يقظتي وسط هذه البيئة الشبيهة بلعب الأطفال. كنت أشم البحر، وطحالب البحر على الدكة، ورائحة القطط في الرمل. ثمة قطار في الطريق، نعم، ثمة توت–توت آتية والقضبان تدندن وترتعش مترقّبة. لا أثر لأحد من الراشدين في أي مكان باستثناء بضعةِ متشمسين سقطوا كالأشجار فوق مناشفهم بعيدًا، على الشاطئ. أتساءل لماذا كان المكان مهجورًا إلى هذا الحد؟ ربما لم يكن، ربما كانت هناك جموع من المصطافين في كل مكان ولم أنتبه لها مع انصياعي المزمن للخلفيات. أغمضتُ عيني وتصاعد شيء ما حالمًا، ذكرى أو صورة، ما لبث أن غاص من جديد دونما يخرق السطح. حاولتُ أن أقبض عليه قبل أن يفوت لكنْ لم يبق إلا لَمحة واحدة: باب فيما أظن، ينفتح على غرفة مُعتِمة، وحسّ غامض بالترقب، بشيء أو شخص على وشك أن يظهر. ثم مَرَّ القطار رعدًا بطيئًا متلاحقًا اهتز له حجابي الحاجز. كان الركاب

مسحوبين إلى أعلى في الشبابيك مثل دمى تحدق في بلادة وهي تُساق من أمامي. خطر لي أني كان ينبغي أن أدير وجهي عنهم، فالجميع شهود محتملون الآن. لكني فكرتُ إنه لا يهم. فكرتُ إني سأكون في السجن خلال ساعات. نظرتُ حولي ورحت آخذ أنفاسًا هائلة، أشرب كفايتي من عالم سرعان ما سوف أفقده. كانت جماعة من الأطفال في الثالثة أو الرابعة ظَهَرتْ في أراضي الفندق. تسكعوا عبر العشب غير المقلّم متوقفين ليقذفوا أحجارًا على لافتة "للبيع". نهضتُ بتنهيدة ثقيلة، وتركتُ المحطة متجهًا إلى الطريق من جديد.

ركبتُ حافلة إلى المدينة. كانت ذات طابق واحد بخط سير لا يتكرر كثيرًا وقد جاءت من مَنطِقة بعيدة. بدا أن ركابها كلهم يعرف بعضهم بعضًا. في كل محطّة حين كان يصعد أحد إلى الحافلة كانت تنطلق الممازحات وعبارات التَهَكُّم الودود. ثمة عجوز بقبّعة وعكاز عَيَّن نفسه مُضيِّفًا في هذا المنتدى المتحرّك. كان يجلس قرب المقدمة خلف السائق، وساقه اليابسة تبرز بعرض الممر، ويحيي كل قادم بشهقة دهشة مصطنعة وهزةٍ من عكازه. يقول: انتبهوا! إنه قادم، ها هو ذا. ويقطّب وجهه بعلامات الخطر وكأنه يحذّر بقيتنا من وصول شخصية رهيبة في حين لا يظهر على الدرج إلا شاب بوجه عِرْسَة تبرز من قبضته تذكرة ربع سنوية مشحَّمة كأنها لسانٌ حائلُ اللون. استثارتِ الفتيات عبارات تودّد كالتي تصدر عن الفرسان، ما كان يجعلهن يبتسمن بتصنُّع، بينما كان من نصيب ربات البيوت الذاهبات إلى المدينة ليتسوقن غمزات وإشارات هزلية إلى طرفه المنتصب. بين حين وآخر كان يدع إحدى نظراته تنزلق علي سريعة ومترددة، غافية بعض الشيء، مثل نظرة

مُمَثِّل مخضرم تعرّف على دائن له في الصف الأمامي. فقد لفت انتباهي فعلًا أن في الوضع كله شيئًا مسرحيًا إلى حد ما. وكان على بقية الركاب سيماء عدم الاكتراث الواعي بذاته لجمهور ليلة الافتتاح. هم أيضًا لهم أدوار يلعبونها بطريقة ما. فوَراءَ الثرثرة والنكت والألفة السلسة بدوا قلقين، يملأ عيونَهم الشك والتعب وكأنهم حفِظوا النص عن ظهر قلب لكن ما زالوا غير متأكدين من اللحظة التي من المفترض أن يتكلموا فيها. راقبتُهم باهتمام عميق. شعرتُ بأني اكتشفت شيئًا ذا فحوى لكن ماذا يكون هذا الشيء أو ما فحواه، لم أكن متأكدًا من الإجابة. وأنا، ماذا أكون بينهم؟ عامل مسرح ربما، واقف في "الكواليس" يحسُد الممثلين.

حين وصلنا إلى المدينة لم أستطع أن أقرر في أي بقعة أخرج من الحافلة، فكما بدا لي لا فضل لمكان على آخر. ينبغي أن أقول شيئًا عن تفاصيل حالي وقتها. كان يجب أن أرتعد من الخوف. ليس في جيبي إلا ورقة خمسة جنيهات وبعض القطع المعدنية أكثرها أجنبية. كان لي شكل ورائحة متشرد. ولم يكن عندي مكان آوي إليه. ليس عندي حتى بطاقة ائتمانية أتحايل بها لدخول فندق. ومع ذلك لم أستطع أن أقلق أو أحمل نفسي على انشغال البال. كنت طافيًا كما بدا لي مذهولًا في حالة انفصال حلمي وكأني أُعطيتُ جَرعة هائلة من المخدّر الموضعي. لعل هذا ما يعنيه أن يصاب الإنسان بالصدمة؟ لا، أظنه فقط اليقين بأن يدًا ستقبض على كتفي في أي لحظة بينما يُدوّي صوت مروع محذّرًا. الآن لديهم اسمي ولابد، وثمة وصف لي تتداوله الأيدي. رجال بعيون جامدة في سترات منتفخة يجوبون الشوارع بحثًا عني. وكون شيئًا من ذلك لم يحدث قد ظل لغزًا بالنسبة إلي. فلا شك أن آل بيرينز عرفوا على الفور مَن كان ليأخذ هذه اللوحة بالذات، ومع ذلك لم ينطقوا. ثم ماذا عن

الأدلة التي تركتُها ورائي كأثر يُقتَفَى؟ ماذا عن الناس الذين رأوني: آل ريك، السنيوريتا في المرآب، الرجل في محل الأدوات الحديدية، المرأة التي تشبه أمي تلك التي وجدتْني جالسًا كالمخبول عند إشارة المرور؟ ما كنت لأحب أن أشجع المذنبين المحتملين سيادتكم، لكن علي أن أقول إن الإفلات بفعلة ما، على الأقل لفترة، هو أسهل من المُسَلَّم به عمومًا. ستمر أيام ذات تأثير – "أيام ذات تأثير"، يا لِبساطة الانزلاق إلى لغة المحاكم – قبل أن يكتشفوا عمّن يفتشون. ولو لم أكن تماديتُ في التهوّر الذي بدأتُ به القصة، لو كنت توقفت وأمعنت النظر، وتدبّرت أمري بدقة، أعتقد أني ما كنت لأصبح هنا الآن ولكن في طقس مشمس تحت سماء مفتوحة أعالج إحساسي بالذنب. لكني لم أتوقف، لم أتدبر. غادرتُ الحافلة وانطلقتُ على الفور في الاتجاه الذي صادَفَ وقابلَني، بما أن مصيري كما كنت مقتنعًا كان ينتظرني في كل مكان، بين ذراعي القانون المفتوحتين. ضبط! أسكنتُ الكلمة قلبي. أراحتني. كان فيها وعد بالراحة. هرولتُ بحذق وسط الجموع، مندهشًا من أن الناس لا يفسحون لي طريقًا في ذعر. في كل مكان حولي جهنم من العجلة والصخب. كان جمع من الرجال العارين حتى خصورهم يحفرون ثقبًا في الطريق بمثاقب هوائية. وكان المرور يزمجر ويجأر بينما ضوء الشمس يبرق كالسكاكين على الزجاج الأمامي للسيارات وسقوفها النابضة. الهواء سديم أزرق سامّ. لقد صارتِ المُدُن غيرَ مألوفة لديّ. ومع ذلك كنت واعيًا بأني حتى وأنا أعاني هنا فأنا في نفس الوقت أرحل بسلاسة إلى الأمام في الزمن. بدا ذلك ضربًا من السِباحة دون جهد. الزمن – هكذا فكرتُ بقتامة – الزمن هو الذي سيُنجيني. هنا "ترينيتي"[52]، البنك، دكان "فوكس" حيث كان أبي يجيء في حجّ سنوي يتعامل معه بطقسية شديدة ليبتاع مخزونه من

السيجار بمناسبة عيد الميلاد. إنه عالمي وأنا طريد فيه. شعرتُ بشفقة عميقة ومحايدة تجاه نفسي وكأني بصدد مخلوق مسكين يُطوّف ضائعًا. سطعت الشمس دون رحمة، عين سمينة مثبّتة في السديم فوق الشوارع. اشتريتُ قالب شوكولاتة والتهمته وأنا أواصل السير. اشتريت طبعة مبكرة من الجريدة المسائية أيضًا، لكن لم يكن فيها شيء. فأسقطتُها على الأرض وهَدّجتُ إلى الأمام. التقطها أحد أطفال الشوارع – إيه، يا أستاذ! – وتبعني بها جريًا. شكرته فافترّ عن ابتسامة، وكدتُ أنفجر في البكاء. وقفتُ مكاني متعطلًا ونظرتُ حولي كالأعمش. هِرَقل حائر. تزاحم الناس من جنبي، وجوه وأكواع. كانت هذه النقطة السفلى فيما أظن، لحظة العجز والرعب البليد هذه. قررتُ أن أسلّم نفسي. لمَ لم أفكر في ذلك من قبل؟ كانت الفكرة مُغوية بطريقة رائعة. تخيلتُ نفسي أُرفَع برفق وأُحمَل عبر سلسلة من الحجرات البيضاء القارّة إلى مكان صمت وهدوء، مكان امتثال مترَف.

في النهاية، بدلًا من ذلك، ذهبتُ إلى مشرب والي.

كان مُقفَلًا. لم أفهم. في البداية فكرتُ بجنون إن للأمر ولابد علاقة بي، إنهم عرفوا أني جئتُ إلى هنا فأغلقوا المكان. دفعتُ الباب مرة بعد مرة وحاولتُ أن أرى من خلال زجاج القوارير في الشبابيك ولكن كل شيء كان مظلمًا في الداخل. خطوتُ إلى الخلف. المحل المجاور هو "بوتيك" موضة وثمة فتاتان شاحبتان، هزيلتان وبيضاوان كزهرتين، تقفان دون حراك تُحملقان في لا شيء وكأنهما جزء من المعروضات. حين تكلّمتُ أدارتا عيونهما المحفوفة بالسواد دون اهتمام إلي. ساعة الراحة، قالت إحداهما. وضحكت الأخرى دون روح. فتراجعتُ متكلّفًا ابتسامة

وذهبتُ إلى المشرب وطرقتُ الباب بقوة متجددة. مر بعض الوقت ثم كانت هناك خطوات متمرّغة وصوت أقفال تُفَكّ. ماذا تريد، هكذا قال والي غاضبًا وعيناه تطرفان في ضوء الشمس الحاد المائل إلى أسفل من الشارع. كان يلبس رداء نوم بنفسجي من الحرير وشبشبًا لا شكل له. طالعني من أعلى إلى أسفل بقرف، ملاحظًا الذقن النابتة والبلوفر القذر. قلتُ له إن سيارتي تعطّلت وأحتاج أن أجري مكالمة هاتفيّة. فأطلق شخيرًا تهكميًا وقال: مكالمة هاتف. وكأن هذا أكثر شيء مستفِز سَمِعَه منذ زمن طويل. هز كتفيه. كاد يَحِلّ موعد فتح المشرب على أي حال. تبعتُه إلى الداخل. كانت سِمّانتاه ممتلئتين وخاليتين من الشعر. تساءلتُ أين رأيتُ مثلهما في الأيام الأخيرة. أضاء لمبة بغطاء زهري خلف البار وقال وهو يلوّح ويزم شفتيه باحتقار: ها هو الهاتف. سألتُ إن كان يمكن أن أحصل على كأس جين أولًا. فتنشّق وقد استراح قلبه الشكاك، وسمح لنفسه بابتسامة نحيلة. حصل لك حادث إذن، قال. وللحظة لم أفهم عمَّ يتحدث. السيارة، قلت. لا، لا. هي فقط توقفتْ. وفكرتُ باستمتاع قاتم: ها أنا أجيب على السؤال الأول ولم أكذب. استدار ليُعِد لي شرابي وبدا كالكاهن في روبه البنفسجي، ثم وضعه أمامي واعتدل على حافة المقعد وذراعاه السمينتان مربعتان. لقد عرف أن وراء الأكمة ما وراءها. رأيتُ ذلك في نظرة عينيه فهي في الوقت نفسه مزدرية وشغوفة. لكن ليس باستطاعته أن يسمح لنفسه بالسؤال. ضحكتُ له وشربت شرابي، وحَصَلتُ على ذرّة استمتاع من مُعضلته. قلت إن القيلولة فكرة جيدة فعلًا، أليس كذلك. فرفع حاجبًا. أشرت إلى روبه. قلت: غفوة وسط اليوم، فكرة جيدة. لم يحسب ذلك مضحكًا. من مكان ما في امتدادات الظلال ورائي ظهر شاب بشعر

متموّج لا يرتدي إلا لباسًا داخليًا. نظر إلي بضَجَر وسأل والي إن كانت الجريدة وصلتْ. فقلتُ له: ها هي، خذ جريدتي، تفضل. لابد أني كنت ألقّها في يدي، كانت مطوية على شكل عصا رفيعة. فتحها بصعوبة وقرأ العناوين محرّكًا شفتيه. أولاد الكلب الذين يفجرّون الأماكن – قال – أولاد كلب مجانين. كان والي ثبّته بنظرة مروِّعة. فألقى الجريدة جانبًا وانصرف يحكّ دبره. رفعتُ كأسي من أجل المزيد من الشراب. قال والي: ما زلنا نحاسَب على الشراب، هل تعرف. نقبل النقود. أعطيتُه خمستي الأخيرة. كانت شَفرة ضوء رفيعة تسللت عبر شق في مكان ما في الشيش واستقرت بميل إلى جواري منغرسةً في الأرضية. راقبتُ ظهر والي الممتلئ وهو يعيد ملء كأسي. تساءلتُ هل يمكنني أن أخبره بما فعلت. وبدا الأمر ممكنًا جدًا. لا شيء – هكذا قلت لنفسي – لا شيء يصدم والي في التحليل الأخير. وكدتُ أصدّق ذلك فعلًا. تخيلته يطالعني بفم معوج وحاجب مقوّس محاولًا ألا يشزُرُني وأنا أحكي قصتي البشعة. رفعتْ معنوياتي قليلًا فكرة الاعتراف. كانت غير مسئولة بطريقة باهرة. جَعَلَتِ الأمر كله يبدو كما لو لم يكن إلا نوبةً من الانفلات الحاد، ممازَحةً تطورتْ في الاتجاه الخطأ. قهقهتُ منتحبًا داخل كأسي. قال والي وهو راض عن نفسه: تبدو في حال سيئة. طلبتُ كأسًا أخرى من الجين، مزدوجة هذه المرة.

بوضوح، في رأسي، قال صوتها من جديد: لا تفعل.

عاد الصبي ذو الخصلات المتموّجة يرتدي بنطلونَ جينز ضيقًا وقميصًا أخضر لامعًا هو الآخر ضيّق. كان اسمه "ساني". ترك له والي مسئولية البار وغادر بمشية بطّة إلى غرفته وروبه يطمو وراءه. صبّ ساني كمية سخيّة من "الكريم دو مينت"[53] في كأس وملأها بمكعبات الثلج

ثم قعد على حافة المقعد طاويًا مؤخرته الصغيرة الضيقة، وتفحّصني دون حماس كبير. قال: أنت جديد. وكأنها تهمة. فقلت: لستُ كذلك، أنت الجديد. وضحكتُ ضحكة صفراء، سعيدًا بنفسي. وسّع لي عينيه وقال: لا تؤاخذني أرجوك. عاد والي مرتديًا ملابسه وقد صفّف شعره بعناية وفاحت منه رائحة دهن الشَعر. تناولتُ كأسًا أخرى مزدوجة. وجهي يصير مشدودًا وكأن عليه قناع طين. كنتُ بلغتُ تلك المرحلة من الثَمَل حيث يستقر كل شيء على نسخة مختلفة من واقعه. ليس سُكْرًا كما بدا ولكن ضرْبًا من الاستنارة يربو على إفاقة بالفعل. دخلتْ جماعة من أرباب المسرح يتقافزون ويصدحون. نظروا إلى مظهري ثم بعضهم إلى بعض. يفيضون مَرَحًا. قال أحدهم: حدّثني عن مشقة العمل. وضحك ساني بصوت مكتوم. أنا فكرتُ: هذا ما سأفعله، سأقنِع أحدهم أن يأخذني معه إلى البيت ويخبّئني. "ليدي ماكبيث"[54] هذه، بـ"المسكرة" والأظافر الحمراء كالدم. أو ذلك الأخ الضاحك في قميص المهرّج، لمَ لا؟ نعم، هذا ما ينبغي أن أفعله، أن أعيش من الآن فصاعدًا وسْط ممثلين، أتدرّب معهم وأدرُس مهنتهم، الإيماءة اللافتة واللفتة الدقيقة. ربما مع الوقت سأتعلم أن ألعب دوري جيدًا بما يكفي، أن أكون مقنعًا بما يكفي، أن أشغل مكاني وسْط الآخرين، الطبيعيين، أولئك الناس في الحافلة... والناس جميعًا.

فقط حين دخل تشارلي فرينش أدركتُ أني كنت أنتظره هو. تشارلي ابن الحلال! لقد فاض قلبي محبةً وشعرتُ برغبة في معانقته. كان يرتدي بدلته المقلّمة ويحمل حقيبة سامسونايت بالية تُعطي إيحاءً بالأهمية. ورغم أنه رآني منذ ثلاثة أيام حاول في البداية ألا يتعرف علي. أو لعله فعلًا لم يعرفني في حالتي السّقيمة المحمومة. قال إنه ظنني

ذهبتُ إلى كولغرينج. قلتُ له إني كنتُ هناك فسأل عن أمي وأخبرته بأمر السَكتَة التي أصابتْها. بالغتُ في الأمر قليلًا، ربما حتى دَمِعتْ عيني. أومأ ناظرًا وراء أذني اليسرى وهو يُصلصل بقطع معدنية في جيب بنطلونه. إذن أنتَ عائدٌ إلى أسفارك من جديد – قال – أليس كذلك؟ هززتُ كتفي. قال والي: سيارته تعطلّت، ألم يحدث. وزَفَرَ ضحكةً صغيرة بغيضة. قطّب تشارلي بما يوحي بالتعاطف. صحيحٌ هذا الكلام؟ قال برفق حالم خالٍ من التشديد. فجأة صرختْ جماعة الممثلين من خلفنا، بِحدّة جعلت الكؤوس ترن، لكنه بدا كما لو أنه لم يسمعهم. لم يرمش. كان أتقن مظهرًا يبديه في أماكن ومناسبات مثل هذه، يُمكّنه من أن يكون في نفس الوقت هنا وليس هنا. وقف منتصبًا جدًا، وفردتا حذائه البروغ مزروعتان إحداهما جنب الأخرى بثبات والسامسونايت مائلة على ساقه. وكانت إحدى قبضتيه على البار – ياه، إني أراه! – والأخرى ممسكةً بكأس الويسكي ومعلّقة في منتصف الطريق إلى شفتيه، تمامًا كما لو كان دخل هنا خطأ ومنعه نبل الطَويّة من الانصراف قبل أن يتناول كأسًا ويتبادل بعض المجاملات مع قاطني المكان من المضطربين. بإمكانه أن يحافظ على ذلك الإيحاء بأنه على وشك المغادرة خلال ليلة شرب كاملة. نعم، تشارلي من التفوق في التمثيل بحيث يمكنه أن يجعلهم جميعًا يبدون مثل قُبّعة معوجة.

كلما شربتُ أكثر زادتْ محبتي له، خاصة وقد أخذ يحاسِب عن كل ما أستطيع أن أشربه من كؤوس الجين. لكن ليس هذا وحده. لقد كنت – وحتى الآن – أحبه من قلبي، أعتقد أني قلتُ ذلك بالفعل. هل ذكرتُ أنه هو الذي حَصَلَ لي على وظيفة في المؤسسة؟ كنا بقينا على اتصال أثناء سنواتي في الجامعة، أو على الأقل هو واصل الاتصال بي.

كان يروق له النظر إلى نفسه باعتباره صديق العائلة الكبير الحكيم الذي يعتني بشؤون ابن البيت الوحيد العبقري مثل عمّ. كان يصطحبني في نزهات تشجيعية. الشاي في مقهى "هايبرنيان" أو رحلة إلى حقول "كوراخ"، والعشاء في مطعم "جاميت" في عيد ميلادي كل عام. لم تكن تلك المناسبات ناجحة تمامًا، كان يشوبها الاصطناع أكثر من اللازم. كنت دائمًا خائفًا من أن يراني أحد معه، وبينما أتلوى وأمتعض كان يمتثل هو لحالة من الحزن المضطرب. وحين نكون على وشك الافتراق تأتي دفقة مفاجئة من الثرثرة الحميمة ليستْ سوى محاولة ضعيفة لإخفاء أننا نتنفس الصعداء كلينا. بعدها نستدير وننسل شاعرين بالذنب. لكنه لم يرتدع. ويوم رجوعي مع دافني من أمريكا اصطحبني إلى "شيلبورن"[55] لنتناول كأسًا واقترح، كما قال هو، أني ربما أحب أن أساعد الإخوان في المؤسسة. كنت لا أزل دائخًا – فقد كنا انتهينا لتونا من عبور شتوي للمحيط على متن شيء بالكاد أفضل من باخرة متجولة – وقد أبدى حياء واستعمل عبارات تَحُط من قدر ما يطرحه بشكل معقد حتى أنه مر وقت قبل أن أفهم أنه يَعرِض علي وظيفة. وباستعجال أكّد إن العمل سيكون مناسبًا لي تمامًا – بل بالنسبة إلى شخص مثلي كما يعتقد لن يكون عملًا أصلًا بل ضربًا من اللعب، علمًا بأن النقود معقولة وفرص الترقية دون حصر – عرفتُ على الفور طبعًا، من طريقته المتذللة الكلبيّة، أن كل هذا بإيعاز من أمي. طَيِّبٌ – قال، كاشفًا لي أسنانه الكبيرة الصفراء في ابتسامة متوترة – ما رأيك؟ في البداية كنت حانقًا، ثم أضحكني الأمر. وفكرتُ: لمَ لا؟

بعد إذن المحكمة سأمر مرور الكرام على هذه الفترة من حياتي. إنه زمن لا يزال مصدر قلق غامض في ذهني، ولا أستطيع أن أقول لماذا

بالضبط. لدي شعور بأني فعلتُ شيئًا يدعو إلى السخرية حين قبِلْتُ هذه الوظيفة. إنها لا تليق بي، طبعًا، لا تليق بموهبتي، لكن هذا ليس كل مصدر إحساسي بالإهانة. ربما كانت هذه اللحظة من حياتي هي التي... لكن ماذا أقول؟ ليست هناك لحظات، لقد قلتُ ذلك بالفعل. ثمة فقط ذلك النزوح البطيء المعتوه الذي لا يتوقف. ولو بقي عندي أي شكوك عالقة حول هذا الأمر فقد أطفأتْها تلك المؤسسة الحكومية بشكل حاسم. كان مقرّها مبنى رصاصيًا ضخمًا من الحجر يعود إلى القرن الماضي، طالما ذكّرتني أطرافه الحادة وأعمدته وزخارفه الملتفّة ومداخنه المسوّدة بعابرة محيطات منتظمة، عتيقة وهائلة. لم يكن هناك من يعرف بالضبط ماذا كان المتوقَّع منا إنجازه. قمنا بفحوص إحصائية وأصدرنا تقارير غليظة مدججة بالرسوم البيانية والخرائط الانسيابية والملاحق المعقدة. كانت الحكومة تتسلّمها بكلمات شكر وقورة ثم تنسى أمرها بانضباط. كان المدير رجلًا جسيمًا متوترًا دائمًا ما تراه يشفط بشراسة من غليون أسود ضخم. وكان عنده حركة عصبية في عين واحدة وشعرٌ يخرج من أذنيه. كان يندفع في أنحاء المكان، دائمًا في طريقه إلى مكان آخر. وكان يقابل كل استفسار أو طلب بضحكة خشنة تستبِق الفشل. جرّب مع الوزير، هكذا يصيح من فوق كتفه وهو يمُدّ الخطى بعيدًا وفي إثره هبات الدخان والشرار. أمرٌ مفروغ منه أن تكون نسب العَتَه عالية بين أعضاء فريق العمل إذن. وقد وجدوا أنفسهم دون مهام محددة كان الناس يتدئون مشاريعهم الخاصة خلسة. كان هناك عالِمُ اقتصادٍ، رجلٌ طويل هزيل بوجه مخضر وشعر هائش، يبتكر منظومة مضمونة للمراهنة على الأحصنة. عَرَضَ عليّ ذات يوم أن يكشف لي أمرها، قابِضًا على رسغي بيد مرتعشة وهو يفُحّ

بإلحاح في أذني. لكن شيئًا ما حدث، لا أعرف ما هو، فتملّكه الارتياب وفي النهاية بات يعزف عن الحديث إلي ويتجنّبُني في الممرّات. كان هذا سخيفًا، فهو عضو في فريق الأحبار الذين عليّ أن أتفاوض معهم حتى يتاح لي استعمال الحاسوب. تلك الماكينة كانت مركز جميع نشاطاتنا. وكان وقت استعمالها مقنّنًا بصرامة حتى أن ساعة تقضيها معه دون انقطاع تُعدّ امتيازًا نادرًا. كان يظل دائرًا طوال اليوم وخلال الليل يئز ويصرصر في تلك الغرفة البيضاء الواسعة في الطابق السفلي. في الليل كان يراعيه ثلاثي غامض يُنذر بالشر: مجرم حرب كما أعتقد وصَبيّان غريبان أحدهما وجهه معطوب. ثلاث سنين أمضيتها هناك. فقط شعرتُ وأشعر، كما أقول، بأني أدعو إلى السخرية قليلًا، بأني محرج. ولم أغفِر لتشارلي فرينش تمامًا أبدًا.

كان الوقت متأخرًا حين تركنا المشرب. الليل مصنوع من الزجاج. كنت سكرانَ جدًا. ساعدني تشارلي في السير. كان قلِقًا على حقيبته، وقد قَبَضَ عليها بشدّة تحت إبطه. كل بضع ياردات كان علي أن أقف لأخبره كم هو طيب. لا – أقول رافعًا إحدى يديّ في إيماءة آمرة – لا، علي أن أقولها. إنك رجل طيب يا تشارلز، رجل طيب. بكيتُ بغزارة طبعًا، وتهوّعتُ دون أن أقيء شيئًا. كل هذا نوع من الطَرَب المتألّق المتخبّط المفجوع. تذكرتُ أن تشارلي يعيش مع أمه، وبكيتُ لذلك أيضًا. ولكن كيف حالها، هكذا صحتُ آسفًا. قل يا تشارلي كيف هي تلك المرأة القديسة؟ لم يكن يرد، كان يتظاهر بأنه لم يسمع، لكني لم أكف وفي النهاية هز رأسه بانفعال وقال: ماتت! حاولتُ أن أعانقه، لكنه سار بعيدًا عني. مررنا بحفرة في الشارع محاطة بنطاق عبارة عن شريط بلاستيكي أحمر في أبيض. كان الشريط يرتعش ويُطقطق في

النسمة. قال تشارلي: هذا مكان السيارة الملغومة التي انفجرتْ أمس. أمسِ! ضحكتُ وضحكت، وركعتُ في الطريق على حافة الحفرة ضاحكًا ووجهي في يدي. أمسِ، آخر أيام العالم القديم. قال تشارلي: انتظر، سأحضر عربة أجرة. وذهب بينما أنا راكع هناك أتمايل إلى الأمام والخلف وأدندن بخفة كأني طفل أحتضنه في ذراعي. كنت متعبًا. إنه يوم طويل. قطعتُ مسافة كبيرة إلى هنا.

صحوتُ في ضوء شمسي متشذّر وهناك صرخة تتلاشى في أذني.

سرير كبير مرتخٍ، جدران بنية ورائحة رطوبة. حسِبتُ أني في كولغرينج، في غرفة نوم أبوي. ولوهلة رقدتُ دون حراك أحدّق في أمواج الضوء المنزلقة على السقف. إذاك تذكرتُ، وأغمضتُ عينيّ بإحكام مخبئًا رأسي في ذراعي. طبّل الظلام. نهضتُ وجرجرتُ نفسي إلى الشباك حيث وقفت مذهولًا بالبراءة الزرقاء للبحر والسماء. بعيدًا في الخليج كانت المراكب الشراعية تُعدّل وِجهتها نحو الريح. تحت الشباك ثمة ميناء حجري صغير. ظهر نورس عملاق ألقى بنفسه بجناحين خفّاقين على الزجاج صارخًا. لابد أنهم يحسَبونكَ ماما، هكذا قال تشارلي من ورائي. كان يقف في الباب، يرتدي مريلة متسخة ويمسك في يده مقلاةً. النوارس، قال. كانت عادتها أن تُطعمها. من خلفه بياض باهر لا يمكن اختراقه. هذا هو العالم الذي علي أن أعيش فيه من الآن فصاعدًا، في هذا الضوء الحارق الذي لا مهرب منه. نظرتُ إلى نفسي فوجدتني عاريًا.

جلستُ في المطبخ الشاسع تحت الشباك الوسِخ الشاسع، وشاهدتُ تشارلي يُعد الإفطار في سحابة من دخان الشحم. لم يكن شكله حَسَنًا في ضوء النهار. كان غائر الوجه رماديَّه، وثمة قشور من صابون الحلاقة الناشف على الفك وأكياس رضوض تحت عينين بلون البلغم. فضلًا عن المريلة كان يلبس سترة صوفية محبوكة على "فانلةِ" شَبَكٍ متسخةٍ وبنطالًا واسعًا. كانت تنتظر حتى أذهب – قال – ثم تلقي بالطعام من الشباك. هز رأسه وضحك. قال: امرأة فظيعة، فظيعة. جاء بصحن فيه لحم مقدد وخبز مقلي وبيضة عائمة ووضعه أمامي. ها هو، قال، أفضل شيء للرأس المتكدر. رفعتُ نظري إليه بسرعة. "رأس

متكدر"؟ هل تلفّظتُ بشيء ليلة أمس، باعتراف سكران؟ لكن لا، ما كان تشارلي ليقول مثل هذه النكتة. لقد رجع إلى الموقد وأشعل سيجارة متلمّسًا الثقاب بارتباك.

انظر يا تشارلي، قلت، لعل الأفضل أن أخبرك. أنا وقعتُ في ورطة.

ظننتُه لم يسمع في البداية، فقد ارتخى وانتابه خواء حالم. كان فمه مفتوحًا يتدلى قليلًا إلى أحد جانبين وحاجباه مرفوعين باعتدال. إذاك أدركتُ أنه يمارس الكياسة. حسنًا، لو لم يرد أن يَعرف فحسنًا فعل. لكني أريد أن أسجّل يا سيدي القاضي أني كنت لأخبره لو كان مستعدًا للإصغاء. الذي حدث أني تركتُ الصمت يمر ثم سألتُه إن كان يمُكنني أن أستعير شَفرة حلاقة وربما قميصًا وربطة عنق. بالطبع – قال – بالطبع، لكنه لم ينظر في عيني. الحقيقة أنه لم يطالعْني إطلاقًا منذ صحوتُ، وإنما تسلل حولي منَحّيًا حدقتيه، متلهيًا ببراد الشاي والمقلاة، وكأنه يخاف أن يتصاعد شيء بشع وبغيض لا يعرف كيف يتعامل معه ما إن يتوقف لحظة. أظنّه شك في شيء ما. ليس أحمقَ. (أو ليس أحمق كبيرًا على أي حال.) لكنْ أعتقد أنه أيضًا كونه لا يعرف كيف يستوعب حضوري. كان يتململ محرّكًا الأشياء من مكان إلى آخر، يودِع الأدراج والخزانات أشياءَ ثم يعود يُخرِجها متمتمًا لنفسه بشرود. لم يكن الناس يجيئون إلى بيته كثيرًا. عاد بعض التقدير الدامع الذي شعرتُ به تجاهه ليلة أمس. يكاد يكون أموميًا كما بدا بالمريلة وفي قدميه شبشب قديم من اللباد. سوف يعتني بي. جرعتُ الشاي وامتقعتُ ناظرًا إلى طعامي المقلي الذي لم يُمَسّ وهو يتخثر على الصحن. انطلق بوق سيارة في الخارج فخلع تشارلي مريلته بصيحة وأسرع إلى خارج المطبخ. سمعته يتعثر في أنحاء البيت. في وقت فاجأني قصره ظهر من

جديد في بدلته والحقيبة تحت إبطه، وكان يرتدي تلك القبعة الصغيرة الشقية التي تجعله يبدو مثل وكيل مراهنات مرهَق. أين تقيم، قال، مقطّبًا باتجاه نقطة جنب كتفي الأيسر. كولغرينج أم...؟ وأنا لم أنطق، فقط نظرتُ إليه مناشدًا فهمهم وأومأ برفق، وبرفق انسحب. فجأة، مع ذلك، صرتُ لا أريده أن يذهب. وحدي، سأكون وحدي! فأسرعتُ وراءه وجعلته يعود ليخبرني كيف يعمل الموقد، وأين أجد مِفتاحًا، وماذا أفعل إذا جاء اللبّان. حيّرتْه استماتتي – كان بإمكاني أن أرى ذلك – وأقلقته بعض الشيء. تبعته إلى الصالة، وكنت لا أزال أكلمه حين خرج بظهره من الباب الأمامي يومئ إليّ حذِرًا بابتسامة ثابتة وكأني... ها! كنت سأقول: مجرم خطير. عدوتُ على الدَرَج إلى غرفة النوم وراقبته وهو يخرج إلى ممر المشاة تحتُ وقد قصّرته زاوية النظر فبدا هزليًا في قبعته وبدلته الواسعة. كانت سيارة سوداء كبيرة تنتظر بمحاذاة الرصيف. بتكتّم كان أنبوبا العادم التوأمان في مؤخرتها ينفخان سديمًا شاحب الزُرقة. كان السائق شخصًا قوي البنية دون رقبة، وقد وثب إلى الخارج بجِذْقٍ وفتح الباب الخلفي. رفع تشارلي عينيه إلى الشباك حيث أنا واقف، وتبع السائق نظرته. رأيتُ نفسي كما حسِبتهما يرياني، وجهًا مغبّشًا يطفو خلف الزجاج بعينين مخدّرتين وذقنٍ غير حليقة: صورة الهارب على أوضح ما تكون. انزلقتِ السيارة بعيدًا بسلاسة مارّة عبر شارع الميناء ثم انحرفت مع زاوية واختفت. لم أتحرّك. أردتُ أن أبقى هكذا وجبيني ملتصق بالزجاج واليوم الصيفي كله في الخارج أمامي. كم بدا كل شيء طريفًا – البحر ذو الحافة البيضاء، والبيوت ذات اللون الأبيض والزهري، واللسان المضبّب على مسافة – طريفًا وسعيدًا مثل عالم صغير من لعب الأطفال معروض في نافذة زجاجية. أغمضتُ

عيني، ومن جديد طفت إلى أعلى من الأعماق شذرة الذكرى تلك – الباب، والغرفة المعتمة، وحس شيء مرتقب – لكنْ هذه المَرة بدا أني أتذكر شيئًا غير ماضيّ أنا.

كان الصمت ينتفخ مثل وَرَم في ظهري.

بتعجّل أحضرتُ صحني وفيه البيضة المقلية وشرائح اللحم المتحول لونها إلى الرمادي من المطبخ، صاعدًا ثلاث درجات في كل خطوة. رجعت وفتحت الشباك وتسلّقته إلى الشرفة الضيقة المبنية من الحديد المطرّق في الخارج. أفزعتني ريح قوية ودافئة كانت تَهُب، وتركتني محبوس النفس لوهلة. انتشلتُ قطع الطعام وقذفتُ بها في الهواء أراقب النوارس وهي تنقضّ على اللُقم الغنية، صائحة بوحشية من الدهشة والطمع. من وراء اللسان انسابت سفينة بيضاء إلى مرمى النظر دون صوت، تتلألأ في السديم. حين انتهى الطعام قذفتُ بالصحن أيضًا في الهواء، لا أعرف لمَ. رميته مثل قُرص فوق الشارع وحائط الميناء. انزلق في الماء لا يكاد يُحدِث رشاشًا. كانت بين أصابعي خيوط من الشحم الفاتر وتحت أظافري صفار بيض. تسلّقتُ إلى داخل الغرفة من جديد ومسحتُ يدي فيّ البياضات وقلبي يخفق من الحماس والاشمئزاز. لا أعرف ماذا أفعل، أو ماذا سأفعل تاليًا. لا أعرف نفسي. صرتُ شخصًا غريبًا لا يمكن التنبؤ بأفعاله، شخصًا خطيرًا حقًا.

استكشفتُ البيت. لم أجئ إلى هنا من قبل. كان مكانًا واسعًا كئيبًا مسكونًا بالظلال بستائر قاتمة وأثاث بني كبير وبُقع قرعاء في السجاجيد. لم يكن وَسِخًا بالضبط لكنْ كان فيه حسٌّ شيء بائت، وكأن الأشياء تُركتْ واقفة في نفس أماكنها أطول مما ينبغي. وكان للهواء ملمس رمادي بليد، وكأن الخُلاصة الحيّة قد استُهلكت حتى نفدت منه

منذ زمن طويل. ثمة رائحة رطوبة وشايٍ مغلي وجرائدَ قديمةٍ وفي كل مكان نفحة مسطحّة نوعًا ما وسُكَرِيّة بعض الشيء حسبتُها وميض روح ماما فرينش. أظن المحكمة ستنفجر مقهقهة لو قلتُ إني رجل نيِّق، لكنها الحقيقة. كنت أشعر بشيء من الضيق أصلًا قبل أن أبدأ أقلّب في أشياء تشارلي خائفًا مما يمكن أن أجده. إن أسراره الصغيرة الحزينة ليست أبشع من أسراري، ولا أسرار أي شخص آخر، لكن كلما أزحتُ حجرًا هنا أو هناك فاندفعتِ الأسرار هاربةً من أمامي كنت أرتعش وأشعر بالخزي عني وعنه. تماسكتُ مع ذلك، وصبرت. وفي النهاية جُزيتُ خيرًا. كان هناك مكتب سكرتارية في غرفة نومه استغرق مني فتحه عنوة بسكين مطبخ عشر دقائق من العمل الشاق وأنا مقرفِص على كعبي أتفصد خرزًا من الكحول الصِرف. في الداخل وجدتُ بعض الأوراق النقدية ومحفظة بلاستيكية تملأُها البطاقات الائتمانية. كانت هناك رسائل أيضًا... من أمي وليس سواها، كُتبت قبل ثلاثين أو أربعين عامًا. لم أقرأها، لا أعرف لمَ، بل أعدتُها إلى مكانها بوَرَع هي والنقود وحتى البطاقات، وأغلقتُ المكتب من جديد. أثناء خروجي تبادلتُ ابتسامة خزي مع انعكاسي في مرآة خزانة الثياب. ذلك الألماني – ماذا كان اسمه – كان على حق: المال هو سعادة مجرّدة[56].

كان الحمّام على حافة الطابق الأول، وهو عبارة عن حجرة خشبية بسقف مائل ملحقة بالمبنى من الخارج فيها سخان غاز يَضخ الماء الساخن إلى بانيو عملاق بأرجُل على طراز الأقدام المخلبية. انحنيتُ على الحوض وكشطتُ ما يوازي يومين من الذقن النابتة بشفرة تشارلي المرصعة بالصابون. كنتُ فكرتُ في إطلاق لحيتي بُغية التنكّر، لكني كنتُ فقدتُ ما يكفي من نفسي بالفعل فلم أرد لوجهي

هو الآخر أن يختفي. كان لمرآة الحلاقة سطح فضي مقعر تقافزتْ فيه ملامحي المُكبّرة وتمايلتْ بطريقة مقلقة – الفك العريض المجدور، منخر واحد أسود بشعر، مُقْلة عين منفردة تدور – وكأنها مخلوقات تَلُوح في شباك غواصة. حين انتهيتُ دخلتُ البانيو ورقدتُ مُغمِضًا عيني بينما الماء يسقط كشلال من السخان. كان هذا جيدًا، فهو عزاء وعقاب حارق في نفس الوقت. لو لم يكن الغاز نفد مع مرور الوقت لبقيتُ هناك طوال اليوم ربما، تائهًا عن نفسي وكل شيء آخر في ذلك الظلام الضريحي الهادر. حين فتحتُ عيني كانت أمامي نجوم منمنمة تنفلتُ وتتفجّر. مشيتُ بخطى خفيفة وأنا أقطر إلى غرفة تشارلي، وأمضيتُ وقتًا طويلًا أقرر ماذا ألبَس. في النهاية اخترتُ قميصًا أزرق داكنًا من الحرير وعُقدة لربطة العنق منقوشة بالأزهار تفتقر إلى الحشمة نوعًا ما ليكمّله، كذلك جوربًا أسود طبعًا – هو الآخر حرير، فتشارلي ليس من النوع الذي يبخل على نفسه – ثم بطلونًا داكنًا فضفاضًا ولكنّ قَصّته جيدة وهو من طراز عتيق بما يكفي لتكون موضته عادت من جديد. في الوقت الراهن سأستغني عن الملابس الداخلية، فحتى القاتل الهارب له مبادئه ومبادئي تمنعني من استعمال اللباس الداخلي لرجل آخر. كم بدتْ ثيابي أنا غريبة وهي ملقاةٌ على أرضية غرفة النوم وكأنما في انتظار أن يُرسم حولها بالطباشير. لقد جمعتُها في حزمة ودون أن أنظر إليها حملتها إلى المطبخ وحشرتها في كِيس زُبالةٍ بلاستيكي. ثم غسلتُ ونشّفتُ ملحقات الإفطار. وكنت واقفًا في منتصف الأرضية وفي يدي منشفة مطبخ متسخة حين صعد أمامي وجهها المُدمى بسرعة خاطفة مثل شيء في مدينة الملاهي فاضطررتُ للجلوس مختنقًا ومرتجفًا. فقد ظللتُ أنسى كما ترى، أنسى أمرها تمامًا لفترات طويلة إلى حد بعيد. لعل

ذهني كان في حاجة إلى استراحات حتى يستطيع العمل. ومُنهَكًا تطلعتُ في أنحاء المطبخ الكبير الرطب. تساءلتُ إذا ما كان تشارلي سينتبه لأنّ هناك صحنًا ناقصًا. لماذا قذفتُ به في البحر، لماذا فعلتُ ذلك؟ لم يكن النهار انتصف، وقد فتح الوقت بُلعومه الأسود في وجهي. دخلتُ إحدى الغرف الأمامية – ستائرُ شَبَك، مائدة سفرةٍ شاسعة، بومةٌ محنّطةٌ وراء زجاج – ووقفتُ عند الشباك أتطلع إلى البحر. كل ذلك الأزرق في الخارج كان مخيفًا. ذرَعتُ الأرضية، توقفتُ وأخذتُ أنصت وقلبي في حلقي. ماذا كنت أتوقع أن أسمع؟ لم يكن هناك شيء سوى الأصوات النائية لحيوات أخرى تدق وترن متناهية الصغر مثل صوت محرّك يَبرُد. تذكرتُ أيامًا مثل هذا اليوم في طفولتي، أيامًا غريبة وخاوية. كنت أطوف أنحاء البيت الصامت بخفة فأبدو لنفسي وكأني شبح ما، بالكاد موجود أصلًا، ذكرى أو ظل نسخة أكثر صلابة من نفسي – نعم! – تعيش بطريقة رائعة في مكان آخر.

لابد أن أسكت. أنا ضجِر من نفسي ومن كل هذا.

الوقت. الأيام.

واصِلْ، واصِلْ.

القرف، نعم. هذا شيء لدي فيه خبرة. دعني أقول كلمة أو كلمتين عن القرف. فها أنا أجلس عاريًا في زي السجن الخاص بي، لفائف من الشحم الشاحب كأنه لحم طعام أُسِيْئ تعليبه. أنهض وأتمشى على رجلي الخلفيتين كحيوان حبيس أذرف نِدَفًا خفيّة من قشور جلدي أينما تحركتُ. يعيش السوس علي، يمتص عرقي، يغرس خطمه في مسامي ويجرع المخاط الذي يجده تحتها. ثم هناك الجلد المشقق، الشروخ،

البثور. الشَعر، فكّر فقط في الشَعر. وهذا ليس إلا السطح. تخيل ما يحدث في الداخل، المضخة البنفسجية ترتج وتبقبق، الرئتان ترفرِفان. وفي أسفل، في الظلام، مصنع الصمغ يعمل دون توقف. إنها جِيفَة حيّة زلقة بالسيلان، ليست ناضجة بما يكفي للدود. آه، يجب أن...

اهدأ يا فردريك، اهدأ.

جاءت زوجتي لتزورني اليوم. ليس هذا استثنائيًا فهي تأتي كل أسبوع. كمحبوس احتياطي لا قيد على عدد الزيارات المسموح لي بها، لكني لم أخبرها بذلك وإذا كانت تعرف فهي لم تقل شيئًا. نُفضّل الوضع هكذا. فحتى حين تكون في أكثر حالاتها اعتيادية، تظل ساعة زيارة يوم الخميس طقسًا عجيبًا إن لم يكن خارقًا للطبيعة. يقام ذلك الطقس في حجرة مربعة كبيرة وعالية بشبابيك صغيرة مصفوفة عاليًا قرب السقف. يمنعنا عن أحبابنا فاصلٌ من "الأبلكاش" والزجاج – أداة قبيحة فعلًا – ونتحدث معهم بأفضل ما نستطيع عبر تعريشة معقَّمة من البلاستيك. هذا الوضع الذي عمليًا يُعد حَجْرًا صِحّيًا هو فرض جديد المقصود منه أن يمنع دخول المخدرات – هكذا قيل لنا – لكني أعتقد أن غرضه الحقيقي أن يمنع خروج تلك الفيروسات المثيرة التي بدأنا نفرّخها هنا مؤخّرًا. في الحجرة لمسة من إحساس حديقة الأسماك، بذلك الحائط من الزجاج المخضر والإضاءة المرتفعة تنزح نازلةً من علٍ، والأصوات التي تصل إلينا عبر الشَبَك البلاستيكي وكأنها نُفخت فقاقيعَ عبر الماء. نجلس نحن النزلاء وأكتافُنا محنية متكئين بكآبة على أذرعنا المربعة، شاحبين ومتورمين بعيون زائغة مثل قشريات دون سكن تربض في قعر حوض السمك. ويوجد زوارنا في عُنصُرٍ غير العنصر الذي نوجد نحن فيه، فتبدو معالمهم أوضح من معالمنا وحضورهم في عالمهم أكثف

من حضورنا. أحيانًا ما نلتقط نظرة في عيونهم، مَزيجًا من الفضول والشفقة مع نفور خافت أيضًا، توجع قلبنا. لابد أنهم يستشعرون قوة تَوْقِنا. يسمعونها أو يكادون، أغنية عرس البحر: نغمة أسى رفيعة كإبرة تتذبذب في الزجاج الذي يفصلنا عنهم. إن انشغالهم بمحنتنا ليس فيه ما يريح، بل هو يَزيد من كربنا. هذه هي أكثر لحظات أسبوعنا حنانًا. نرغب في الهدوء والوقار، الأصوات الخافتة. فدائمًا ما نكون متوترين، خائفين من أن تصنع زوجة أو رفيقة أحد منا جلبة، أن تقفز وتصيح، أن تضرب بقبضتها على الفاصل، تبكي. حين يحصُل مثل هذا شيء يكون بغيضًا، بغيضًا حقًا، وفيما بعدُ يصبح الشخص الذي حصل له محطّ خشيتنا وتعاطفنا وكأنه ابتُلي بحالة وفاة.

لا خوف من أن تصنع دافني جلبة. إنها تحافظ على اتزان جدير بالإعجاب في كل الأوقات. اليوم مثلًا حين أخبرتني بأمر الصغير كانت تتكلم بهدوء ولا تنظر إلي، مُبدِيةً ذلك المزاج الذاهل الذي اعتدته منها. أعترف أني اغتظتُ منها، لم أستطع أن أداري غيظي. كان ينبغي أن تُعلمَني بأنها ستُجري له الاختبارات بدلًا من أن تقدّم لي التشخيص دون سابق إنذار هكذا. لقد نظرتْ إلي باستغراب ورأسها مائل إلى أحد جانبين، تكاد تبتسم وهي تقول: هل أنت مندهش؟ فأشحت بوجهي غاضبًا ولم أجب. بالطبع لم أكن مندهشًا. كنت أعرف أن فيه شيئًا معطوبًا، دائمًا ما كنت أعرف، وقد أخبرتها بذلك قبل أن تكون مستعدة للاعتراف به بزمان. فمنذ البداية كانت هناك الطريقة التي يتحرك بها، مرتابًا ومهتزًا على ساقيه الصغيرتين العجفاوين. وكأنه يحاول أن يُسقط شيئًا كبيرًا يستحيل التحكم فيه طُرح في ذراعيه، ناظرًا إلى أعلى في حيرة وتضرّع مثل مخلوق يتطلع عبر حفرة في الأرض. أين أخذتْه – قلتُ – أي

مستشفى، ماذا قالوا بالضبط؟ هزت كتفيها. قالتْ إنهم كانوا في غاية اللطف والتعاطف. تحدث الطبيب إليها لفترة طويلة. إنه مرض نادر جدًا، متلازمة شخص ما – سويسري أو سويدي، نسيتُ اسمه بالفعل – ولكن ماذا بهم. لن يتكلم بطريقة طبيعية أبدًا. لن يفعل أي شيء بطريقة طبيعية فيما يبدو. ثمة شيء خطأ في مخه، شيء ما ناقص، قطعة ضرورية. لقد شرحتْ لي الأمر بالكامل، مُردّدة ما قاله الطبيب، لكني لم أنصت إلا بنصف أذن. كان نوع من الإرهاق حلّ بي، نوع من الخمول. اسمه "فان"، هل ذكرتُ ذلك؟ فان. عمره سبع سنين. حين أخرُج سيكون – ماذا – فوق الثلاثين؟ يا يسوع، في نفس عمري الآن بالتقريب. طفل كبير، هكذا سيقول عنه الناس بنبرة لا تخلو من المحبة في كولغرينج. طفل كبير.

لن أفعل. لن أبكي. إذا بدأتُ الآن فلن أتوقف.

في الأصيل اقتحمتُ مكتب تشارلي من جديد. أخذتُ بعض النقود وغامرتُ بالذهاب إلى كشك الجرائد في الميناء. وكم كانت غريبة وساخنة نشوة الحماس التي شعرتُ بها وأنا أخطو إلى داخل المكان. ارتج بطني، وبدا كأني أخطو ببطء في مادة ثقيلة ومقاوِمة. أظن جزءً مني كان يتمنى – لا، يتوقع – أن أنجو، وكما يحدث في حكاية شعبية سينقلب كل شيء سحريًا إلى عكسه فتختفي الساحرة الشريرة وتُرفع اللعنة وتُفيق العذراء من نومها المسحور. وحين أمسكتُ بالجرائد بدا لوهلة كما لو أن للسحر مفعولًا حقيقيًا، فأنا على الأقل لم أر فيها إلا مزيدًا من أخبار التفجير وتبعاته. اشتريت ثلاث طبعات صباحية وواحدة

مسائية، منتبهًا – أم أن هذا فقط في ذاكرتي الآن؟ – إلى النظرة الجامدة التي رمقتني بها الفتاة ذات الوجه المُحبّب الواقفة وراء طاولة الخدمة. ثم أسرعتُ عائدًا إلى البيت وقلبي يدق بسرعة حصان يعدو، وكأنّ ما أقبض عليه تحت إبطي هو مواد إباحية منتقاة. في الداخل من جديد، تركتُ الجرائد على مائدة المطبخ وجريتُ إلى الحمام حيث تسبب توتري في أن أبول على قدمي. بعد بحث طويل محموم وجدتُ زجاجة جين بقي ربعها وتناولتُ جرعة وافية من عنقها. حاولتُ أن أجد شيئًا آخر أعمله لكن لا فائدة. وبخطوات ثقيلة عدت إلى المطبخ وجلستُ ببطء إلى المائدة وفتحت الجرائد أمامي فإذا بها هناك: بضع فقرات في إحدى الطبعات الصباحية محشورة تحت صورة لأحد الناجين من التفجير وهو مربوط بالضمادات وقد نهض في جلسته على سرير المستشفى. في الطبعة المسائية كان هناك موضوع أكبر مع صورة للأولاد الذين كانوا يلعبون في أراضي الفندق. هم الذين وجدوها. كانت هناك صورة لها هي أيضًا، تحدق بعينين صارمتين وسط خلفية مغبّشة. لابد أنها انتُزعتْ من صورة جماعية في زفاف أو رقصة، فقد كانت ترتدي فستانًا طويلًا قبيحًا بياقة معقدة وتمسك شيئًا لعله باقة زهر في يديها. كان اسمها "جوزفين بيل". كان هناك المزيد في الداخل: صورة أرشيفية لبيرينز وأخرى لمنزل وايتووتر، مع مقال عن مجموعة مقتنيات بيرينز تملأه الأخطاء الإملائية والتواريخ المحرّفة. أُرسِل صُحُفي إلى المنطقة الريفية ليتحدث إلى السيدة "بريدجيت بيل"، أمها. كانت أرملة. ثمة صورة لها تقف بدون كياسة أمام بيتها الريفي، امرأة جسيمة بوجه ملتهب ترتدي مريلة وسترة محبوكة قديمة، تتطلع إلى الكاميرا بنوع من الهلع البليد. كانت "جوزي" ابنتها فتاة طيبة، هكذا قالت، فتاة مهذبة، ماذا يمكن

أن يدفع أي شخص لقتلها؟ وفجأة عدتُ إلى هناك. رأيتها جالسة في وَسَخ دمِها تنظر إلي وفُقاعة من الريالة الزهرية على شفتيها. مامي، هذا ما قالته، كانت هذه هي الكلمة ولم تكن تومي. في هذه اللحظة فقط أدركت. مامي، قالت. ثم: يا حبي.

أعتقد أن الوقت الذي أمضيته في بيت تشارلي فرينش كان أغرب فترة في حياتي، أغرب حتى وأقل إرباكًا من أيامي الأولى هنا. في عتمة تلك الغرف المائلة إلى اللون البني، مع كل ذلك الضوء البحري البراق في الخارج، شعرتُ بأني مقطوع الصلة بكل شيء. انقسم الوقت إلى وقتين: وقت الساعة الذي يتقدم ببطء بالغ، ثم تلك العجلة المحمومة في داخل رأسي حيث بدا أن النابض الرئيس تعطّل فانطلقت كل التروس تدور بجنون خارج السيطرة. قمتُ بنوبات حراسة بامتداد المطبخ لما بدا أنه ساعات متصلة، وكتفاي منحنيان ويداي في جيبي، أُخطّط بعنف دون أن أنتبه لأن المسافة تقصر بانتظام كل مرة إلى أن أُجبر على وقوف راجف في النهاية فأحدّق فيما حولي حيرانَ مثل حيوان أخطأ طريقه إلى شبكة صيد. كنت أقف جنب الشباك في غرفة النوم الكبيرة في الطابق العلوي وظهري مضغوط في الحائط أُراقب الشارع لفترة طويلة حتى أنسى أحيانًا ما هو الذي أترقّبه. كان المرور قليلًا في هذه المنطقة المنعزلة، وسرعان ما بدأتُ أتعرف على المارّة الدائمين: الفتاة ذات الشعر البرتقالي من البيت المجاور، مندوب المبيعات ذو المظهر المُداهِن وربما المشبوه يحمل صندوقَ عيّناتِه، الأجساد الشائخة تُمشّي كلابها "البَغ"[57] أو تدلف إلى المحلات في نفس الساعة من كل يوم. على أي حال لن يكون هناك لَبْسٌ في هُوية أولئك الآخرين، القاتمين، حين يجيئون من أجلي. على الأرجح لن أراهم قادمين. سيحوّطون البيت، ويكسرون الباب ركلًا، ويكون ذلك أوّلَ علمي بمجيئهم. لكني كنت أقف هناك مع ذلك، أراقب وأراقب، أقربَ إلى عاشق ولهان من رجل هارب.

كل شيء تغيّر، كل شيء. لقد تغرّبتُ عن نفسي وكل ما كنت أحسَبني عليه. حياتي حتى الآن ليس لها إلا كثافة رؤيا عديمة الوزن.

كنت حين أفكر في ماضيّ وكأني أفكر فيما كان عليه شخص آخر، شخص لم أقابلْه في حياتي لكني أحفظ تاريخه عن ظهر قلب. بدا كل شيء عبارة عن قصة خيالية زاهية التفاصيل. ولم يكن الحاضر أكثر صلابة. كنت أشعر بأن رأسي خفيف وأنا متطاير، واقع على زاوية من كل شيء. كانت الأرض من تحتي مشدودة بإحكام مثل ترامبولين، وعلي أن أبقى ثابتًا تحسبًا للاندفاعات غير المتوقعة، الوثبات والقفزات. وفي كل مكان حولي هذا الهواء الأزرق الفارغ.

لم أستطع أن أفكر مباشرة فيما فعلتُه. كان ذلك ليُشبِه محاولة التحديق بثبات في ضوء يُعمي. لقد كان أكبر وأشد سطوعًا من أن أتأمّله. كان عصيًا على الفهم. وحتى الآن حين أقول "أنا فعلتُه"، لا أكون متأكدًا أني أعرف ماذا أعني. لا، لا تسئ فهمي. لا رغبة عندي في التأرجح، في تقديم خطوة وتأخير أخرى وردم الأدلة بأوراق شجر ميتة. قتلتُها، أقر بذلك طواعيةً. كما أعرف أني إذا ما عدتُ إلى هناك اليوم فإنني سأفعلها من جديد، ليس لأني أريد أن أفعلها لكنْ لن يكون أمامي خيار. ستكون الحال كما كانت وقتها بالضبط: العنكبوت، وضوء القمر بين الأشجار، وكل ذلك، البقية كاملة. ولا بإمكاني قولُ إني لم أنتوِ قتلها، فقط ليس واضحًا في ذهني متى بدأتُ أنتويه. كنت مشوّشًا، نافد الصبر، مغتاظًا. هاجمتْني فلوّحتُ بيدي تجاهها، تحولت التلويحة إلى ضربة صارتْ فاتحة لضربة ثانية – ذروة تلك الأولى، أم أني أقصد حضيضها؟ – وهكذا إلى آخره. لا توجد لحظة في هذه العملية يمكنني أن أقول عنها بثقة ها هي، تلك هي اللحظة التي قرّرتُ فيها أنها ينبغي أن تموت. قررتُ؟ لا أظن في الأمر قرارًا. لا أظن في الأمر حتى تفكيرًا. لقد رأى الغول السمين الرابض في جوفي فرصة فانقض عليها هائجًا متخبِّطًا.

كان عنده حسابات يصفّيها مع العالم وكانت هي في تلك اللحظة عالمًا بما يكفي بالنسبة إليه. لم يكن بوسعي أن أوقفَه. أم أنه كان بوسعي؟ إنه أنا في النهاية، وأنا هو. ولكن لا، كانت الأشياء تجاوزتِ احتمال إيقافها. ولعل هذا هو جوهر جريمتي وإثمي، أني تركتُ الأشياء تصل إلى هذه المرحلة، أني لم أكن متيقظًا بما يكفي، لم أكن منافقًا بما يكفي، فتركتُ بانتر لشئونه ومن ثم سمحت له – على نحو مميت – بإدراك أنه حر، أن باب القفص مفتوح، أن لا شيء محرّمًا وكل شيء ممكن.

بعد ظهوري الأول في المحكمة قالت الجرائد إني لم أُبد أي أمارة ندم حين قُرئتْ علي الاتهامات. (ماذا كانوا يتوقعون، أن أبكي، أن أمزق ثيابي؟) لكن بطريقتهم المغفّلة، لا يخلو كلامهم من حقيقة. إن الندم يشير إلى توقّع الغفران، وأنا كنت أعرف أن ما فعلتُه لا يُغتَفَر. كان يمكنني أن أتظاهر بالندم والأسى، الذنب، كل ذلك. ولكن بأي هدف؟ فحتى لو شعرتُ بمثل هذه الأشياء بصدق في أعمق أعماق قلبي، هل كان ذلك ليغير أي شيء؟ لقد فُعِلَتِ الفعلة، ولا يمكن أن تُلغيها صيحات الكرب والاستتابة. كانت حاصلة، نعم، منتهية، كما لم يحصل أو ينتهِ أي شيء في حياتي من قبل. ومع هذا – كان يمكنني أن أرى ذلك على الفور – لن تكون لها نهاية. أنا مسئول، هكذا قلتُ لنفسي، بكل ما تحمله الكلمة من وزن. فبقتل "جوزي بِلّ" دَمَّرتُ قِسمًا من العالم. هشمّتْ ضربات المطرقة هذه مُجمَّعًا من الذكريات والأحاسيس والاحتمالات – هشّمت حياةً، باختصار – لا يمكن استبداله ولكن لابد من أن يُستبدل بطريقة ما. على جريمة القتل سيُقبَض عليّ وأُسجن. لقد عرفتُ ذلك بهدوء ويقين لا يوفّرهما إلا شيء لا علاقة له بالموضوع. إذاك سيقولون إني سدّدت ديني، مقتنعين بأنهم عن طريق دفني في الحائط حيًا يحققون

توازنًا ما. وسيكونون على حق بحسب قوانين القصاص والانتقام. لكنّ ذلك التوازن سيكون على أحسن الفروض شيئًا سلبيًا. لا، لا. إن المطلوب ليس موتي الرمزي – لقد أدركتُ ذلك وإن لم أفهم ماذا يعني – ولكن أن تُعادَ هي إلى الحياة. ليس أقل من ذلك.

ذلك المساء حين عاد تشارلي دسّ رأسه بحذر من وراء الباب وكأنه خائف من أن يكون على حافته دلو من الماء. شزرتُ إليه وأنا أتمايل. كنت أتيتُ على الجين وانتقلتُ على مضض إلى الويسكي. لم أكن سكرانَ بالضبط لكن في ضرب من النشوة المخدّرة وكأني عدتُ لتوي من زيارة مطوّلة إلى طبيب الأسنان تعذّبتُ فيها بشكل باهر. ووراء السَكرة الجديدة كان الخُمار القديم لابدًا ينتظر فرصته. كان جلدي ساخنًا وجافًا في جميع أنحاء جسدي، وشعوري بعينيّ أنهما محترقتان. في صحتكَ! صحتُ، ورنّت مكعبات الثلج في كأسي. كان تشارلي يُطلق نظرات جانبية إلى ثيابي. قلتُ: أتمنى ألا يزعجك الأمر. لم أتوقع أن يكون مقاسنا واحدًا. فقال: نعم، بالطبع... فقد انكمشتُ في شيخوختي. وضحك ضحكة قُبُور. كان واضحًا عليه أنه كان يتمنى أن يجدني قد رحلتُ حين يعود إلى البيت. تبعتُه إلى الصالة حيث خلع قبعة وكيل المراهنات ووضعها مع حقيبته السامسونايت على شمّاعة من سنديان الرَخاخ[58]. دخل إلى غرفة السفرة وصبّ لنفسه كأسًا متواضعًا من الويسكي أضاف إليه رشة من الصودا قليلة الغاز من زجاجة بغطاء لولبي. تناول رشفة وقد وقف قليلًا وكأنه معطّل وإحدى يديه في جيبه يقطّب باتجاه قدميه. كان حضوري يتضارب مع طقوسه المسائية. أعاد الزجاجة إلى مكانها دون أن يعرض علي المزيد. وتهادينا

عائديَن إلى المطبخ حيث ارتدى تشارلز مريلته وبدأ ينقّب في الخزانات والرفوف المضببة عن مكونات يَخْنَة. وبينما يعمل كان يتكلم بشرود من وراء كتفه، وسيجارة تتدلى من جانب فمه المعوج وقد أغلق إحدى عينيه بشدة في وجه الدخان. كان يُخبرني بأمر عملية بيع قام بها، أو لوحة اشتراها أو شيء من هذا القبيل. أظنه كان يتكلم فقط خوفًا من الصمت المرتقب. على أي حال لم أكن أستمع له جديًا. شاهدتُه يُبقبِق القسم الأكبر من قنينة "بوميرول"[59] قيمتها خمسون جنيهًا في اليخنة. وسقطت في الإناء بوصة من رماد السيجارة أيضًا. حاول دون جدوى أن يصطادها بملعقة، مُطقطِقًا بحنق. قال: لك أن تتخيل ما يعنيه لي أن أفترق فعليًا عن لوحة! فأومأتُ برصانة. إنّ ما كنتُ أتخيله في الحقيقة هو تشارلي في قاعة عرضه الضيقة ينحني ويعصر يديه ويتذلل أمام غانيةٍ في فراء تفوح منها رائحة البودرة والعرق وقد أعطاها بعلها النقود لتشتري لها لعبة تبرق في عيد ميلادها. اكتأبتُ فجأة، وفجأة تعِبت.

غَرَفَ اليخنة، ساكبًا بعضها على الأرض. لا يُجيد استخدام المعدات، عادة ما تكون خدّاعة في يديه، تتقلقل وتنزلق وتسقط عنها الأشياء. حملنا صحنينا إلى غرفة السفرة وجلسنا إلى المائدة تحت النظرة الزجاجية العُضال للبومة المحنّطة. شربنا بقية البوميرول، وجلب تشارلز قنينة أخرى. ظل يتجنّب عيني محولًا الأمر إلى عملية معقدة، مبتسمًا وهو ينظر إلى الأرض، الأثاث، المساعر وراء قضبان المصطلى، وكأنّ الأشياء اليومية تعرِض نفسها لعنايته فجأة وقد صارت ساحرة وغير متوقّعة. كانت الشمس المنحسرة تلمع بقوّتها الكاملة علي من خلال الشباك العالي الواقع وراء ظهري. لليخنة طعم الفِراء المحروق. نحّيت صحني جانبًا واستدرتُ أتطلع إلى المِيناء. في زجاج

الشباك شَرْخ يومض. شيء ما دفعني إلى التفكير في كاليفورنيا، شيء له علاقة بالضوء، باليخوت الصغيرة، وبحر المساء المذهّب. كم أنا متعب، متعب. كان يمكن أن أستسلم الآن هنا، أن أنزح وسْط الغسق الصيفي هذا بسيطًا كنسمة، مجهولًا، دون خطة، حُرًّا. هرس تشارلي عقب سيجارة مخضّلًا على طرف صحنه. هل رأيتَ ذلك الخبر عن بينكي بيرينز في الجريدة، قال. فصببتُ لنفسي جرعة أخرى من النبيذ. قلت: لا، ما الأمر يا تشارلز؟

بالمناسبة، ماذا كنت لأفعل في هذه القصة كلها بدون عزاء الشراب وتأثيره قاتل الإحساس؟ يبدو لي أني تخطيّتُ تلك الأيام عبر سلسلة اندفاعات من حالة اتزان مخمورة وجيزة إلى أخرى، مثلَ مُلاحَقٍ يفر عبر خط متعرّج من الأحجار التي يُعبَر عليها فوق هاوية وقد صارت لزجة أيضًا. وحتى الألوان، أزرق الجين وأحمر البوردو، أليست شعارات قضيتي، الألوان التي تُلحِقها المحكمة باعترافي؟ الآن وقد أفقتُ إلى الأبد أستعيد ليس هذا الوقت وحده ولكن حياتي كلها باعتبارها فُسحةً من نشوة الخمر ليست سعيدة على وجه الخصوص، كنت أعرف أن عليّ أن أفيق منها آجلًا أو عاجلًا بصداع بغيض. الآن، أي نعم، الآن جاء على أبشع صوره وقت الخُمار.

كانت بقية ذلك المساء كما أتذكّرها عبارة عن تتابُع من الصدمات البارزة المكتومة مثل السقوط على دَرَج في المنام. إذاك عرفتُ أن أبي كان يؤوي عشيقة. ذُهلتُ في البداية ثم سَخِطتُ. كنتُ أنا حجّة تغيّبه إذ يكون معها، التمويه الذي لجأ إليه. بينما أجلس لساعات في مؤخرة السيارة فوق نادي اليخوت في دن لايره في آصال أيام الأحد، كان هو يضاجع امرأته الفاخرة. كان اسمها "بينيلوبي"[60]، بينيلوبي بحق الله!

أين التقيا، أردتُ أن أعرف، وهل كان هناك عُشّ غرام سري حيث يُسكِنها، مخبأ مرصّع بورد على العتبة ومرآة في سقف الحمام؟ هز تشارلي كتفيه. لا، قال، كانا يأتيان إلى هنا. في البداية لم أستوعب الأمر. هنا؟ صحتُ. هنا؟ لكن ماذا عن...؟ هز كتفيه من جديد. يبدو أن مامي فرينش لم تكن تمانع. أحيانًا كانت حتى تدعو الحبيبين لمشاركتها الشاي. هي وبينيلوبي تبادلتا نقوش التريكو. قال تشارلي: كانت تعرف كما ترى، لكنه توقّف ومرّر إصبعًا بسرعة على ياقة قميصه من الداخل. انتظرتُ. كانت تعرف أني معجب بـ... بدولي، أخيرًا قال بينما أنا أترنح ترنّحًا. قبل أن أتكلم استطرد فأخبرني إن بينكي بيرينز هو الآخر كان يطارد أمي، إنه كان يدعوها وأبي إلى وايتووتر ويلهي أبي بالشراب حتى لا ينتبه لعينيه البذيئتين ويديه السارحتين. ثم كانت أمي تعود وتحكي لتشارلي عن الأمر فيضحكان معًا. الآن هز رأسه وتنهد. قال: بينكي المسكين. وجلستُ مرتاعًا، تائهًا في خيالاتي وجاهدًا لأُمسك كأس نبيذي مستقيمةً. أحسستُ كما لو أني طفل يسمع لأول مرة عن أفعال الآلهة. لقد تزاحموا في رأسي النابض، أولئك الجبابرة الخطّاءون العِتاق بمؤامراتهم وخصوماتهم وغرامياتهم المستحيلة. كان تشارلي موضوعيًا تمامًا، بين الحنين والاستمتاع. كان يتكلم بالأكثر وكأني لستُ هناك، ويرفع عينيه بدهشة خفيفة بين الحين والآخر إلى الصراخ أو الشخير الذي ينُمّ عن ذهولي. وأنت، قلتُ، ماذا عنك أنت و...؟ لم أستطع أن أنطق الكلمة. فنظر إلي بطريقة في نفس الوقت ممازحة وماكرة.

خذْ – قال – أكمل القنينة.

أظنه قال لي المزيد عن أمي، لكني لا أتذكر ما هو. الذي أتذكره هو أني كلّمتها لاحقًا تلك الليلة، وقد تربّعتُ على أرضية الصالة في

الظلام، الدموع في عيني والهاتف في حِجري مثل ضفدع كبير. بدتْ نائية بدرجة مهولة، صوتًا منمنمًا يلعلع في أذني كالصفيح من وسط خلاء يطن. قالتْ: فريدي، أنت سكران. وسألتْ لمَ لم أَعُد لأسترد حقيبتي إن لم يكن لشيء آخر. أردتُ أن أقول لها: كيف أرجع إلى البيت الآن يا أمي؟ صَمَتنا لوهلة، ثم قالت إن دافني كلّمتها متسائلة أين أنا وماذا أفعل. دافني! لم تكن خطرت على بالي طوال أيام. عبر الباب الواقع في آخِر الصالة راقبتُ تشارلي وهو يتلهّى في المطبخ، يخبّط الطناجر والمقالي متظاهِرًا بأنه لا يحاول أن يسمع ما أقوله. تنهّدتُ، وتحولتِ التنهيدة إلى أنّة رفيعة صغيرة. قلتُ: ماما، لقد ورّطت نفسي في مشكلة كبيرة. كان هناك تشويش على الخط، أو لعله في رأسي، مثل أجنحة عديدة تخفق بشدة. ماذا؟ قالت. لا أستطيع أن أسمعك... ماذا؟ ضحكتُ، وسالت دمعتان كبيرتان على جانبي أنفي. صحتُ: لا شيء، لا شيء. انسي الأمر. ثم قلت: اسمعي. هل تعرفين مَن تكون بينيلوبي، أو من كانت؟ هل دريتِ بأمرها؟ لقد صَدَمتُ نفسي. لماذا قلتُ مثل هذا الشيء، لماذا أردتُ أن أجرحَها؟ صمتتْ لوهلة، ثم ضحكت. تلك الغانية، قالت. طبعًا دريتُ بأمرها. كان تشارلي جاء إلى الباب، ووقف بخِرقة في يد وصحن في الأخرى يراقِبني. كان الضوء وراءه فلم أستطع أن أرى وجهه. مرت لحظة سكون أخرى. أنت تقسو على نفسك يا فريدي، هكذا قالت أمي أخيرًا بذلك الصوت النائي المدوي. أنت تُصعّب الأشياء على نفسك أكثر من اللازم. لم أعرف ماذا كانت تقصد. وما زلت لا أعرف. انتظرتُ لحظة لكنها لم تُزِد وأنا لم أستطع أن أتكلّم. ستكون هذه آخِر كلمات نتبادلها على الإطلاق. وضعتُ السمّاعة برفق، ونهضتُ بشيء من الصعوبة. كان تشارلي منحنيًا على الحوض يغسل الصحون بسيجارة

متدلية من شفتيه وكُمّاه مشمّرين والصديري الذي يرتديه مفتوحًا من الخلف. السماء في الشباك الذي أمامه درجة باهتة من اللون النيلي. فكرتُ إني لم أرَ شيئًا بهذه الروعة في حياتي.

تشارلي، قلتُ وأنا أتمايل. أحتاج إلى سُلفة.

دائمًا ما كنتُ بكّاءً، لكن الآن صارت أي لمحة طيبة تجعلني أنفجر كرضيع. حين جلس من فوره إلى مائدة المطبخ وكتب لي شيكًا – ما زال عندي: الخربشة العنكبوتية السوداء، التوقيع الذي لا يمكن قراءته، بصمة إبهام باليخنة في الزاوية – حاولتُ أن أُمسك بيده المنمشة، أظنني نويتُ أن أقبّلها. خطب خطبة صغيرة، لا أتذكرها الآن. جاءت على ذكر أمي ودافني كذلك. أظن حتى اسمَ بينيلوبي ذُكِر فيها. أتساءل إذا ما كان سكرانَ. ظل يلُوح في بؤرة نظري ثم يخفت من جديد، لكني شعرتُ بأن ذلك ليس تأثير عينيّ المغبّشتين بقدر ما هو نوع من التردّد من جانبه. ياه يا تشارلي، كان ينبغي أن تلتفت إلى بذرة الشك التي استشعرتَها. كان ينبغي أن تطردني ليلتها، حتى وأنا مُغَيَّب وبلا قدرة على الدفاع عن نفسي.

الشيء التالي الذي أذكره هو كوني على ركبتيّ في المرحاض أقيء سيلًا حديديًا من النبيذ الممتزج بخيوط ليفية من اللحم وقِطَع الجزر. إن منظر هذه الأشياء وهي تدفُق إلى الخارج ملَأني بالعجب وكأنه ليس قيئًا ولكنْ شيئًا غنيًا وغريبًا، غدير معدنٍ خام من منجم أحشائي. ثم هناك انطباع بكل شيء يتمايل، بظلام وامض والأشياء فيه تدور من جنبي وكأني ألفّ وألف ببطء على أرجوحة دوارة مُخلخَلَة من الزجاج. في المرحلة التالية كنت راقدًا على ظهري فوق السرير الكبير المضطرب في الطابق الأعلى، أرتعش وأتفصّد. ثمة ضوء موقَد، والشباك عبارة

عن صندوق من الظلام العميق الوامض. رحتُ في النوم، وبعد ما بدا أنه لحظة صحوت من جديد والشمس في عيني. كان البيت صامتًا من حولي لكنّ هناك رنةً رفيعة متواصلة بدا أني أحس بها بدلًا من أنْ أسمعها. كانت الملاءات كتلةً متشابكة مخضّلة. لم أرد أن أتحرك، شعرتُ بأني هَشّ كالكريستال. حتى شعري بدا أنه قابل للكسر، كومة من الشعيرات المنتصبة تنتفض بالكهرباء الإستاتيكية. كنت أسمع الدم يجري في عروقي سريعًا وثقيلًا كالزئبق. وجهي متورِّم وساخن وأملس بطريقة غريبة إذا ما لامسته: وجه دمية. حين أُغمض عيني كان شكل قرمزي ينبض ثم يتلاشى ويعود ينبض على جفني من الداخل، مثل الصورة التي تعلق بالعين إثر انفجار قنبلة في السواد. كانت نغمة رنين أذني تتغير حين أَبلع ريقي. غفوتُ، وحَلَمْتُ بأني طافٍ في بُحَيرة ساخنة. حين صحوتُ كنا في الأصيل. في الشباك كان الضوء الكثيف الهادئ الخالي من الظلال يسطع من الماضي. كان فمي جافًا ومتورمًا، وبدا أن رأسي معبّأ بالهواء. لم أعرف مثل هذه الحالة من الكرب الشهواني منذ الطفولة. لم يكن مرضًا في الحقيقة بل نوعًا من الاستراحة. رقدتُ لفترة طويلة بالكاد أتحرك وأنا أراقب النهار يتحول وأسمع أصوات العالم الصغيرة. على رِسلِه خَفَتَ ضوء الشمس الوَقِح، وانقلبتِ السماء من "الليلكي" إلى "الموف"، وظهرتْ نجمة وحيدة. ثم فجأة كان الوقت متأخرًا وأنا راقد في دوار ناعس في ظلام الصيف الناعم وما كنت لأندهش إذا ما ظهرتْ أمي شابة ومبتسمة ترفل في الحرير وإصبعها على شفتيها لتقول لي تُصبِح على خيرٍ في الطريق إلى سهرتها. لم تكن ماما التي أتت مع ذلك ولكن تشارلي. لقد فتح الباب بحذر فأزّ مَفصِله ونظر إلي وقد أدار عنق السلحفاة الذي بين كتفيه. وأنا قفلتُ عيني فانسحب

برفق ونزل الدرج يُصدر صريرًا. وفي ذهني رأيتُ بابًا آخر وظلامًا آخر – شذرة الذكرى تلك التي ليست لي، ومن جديد – وانتظرتُ محبوسَ النَفَس حتى يظهر أحد ما. لكن لا شيء.

أعتبر نوبة الحمى الوجيزة هذه علامة انتهاء فترة بارزة أوليّة من حياتي كقاتل. في صباح اليوم التالي كانت حرارتي انخفضتْ. ورقدتُ في كتلة الملاءات المتشابكة الرطبة وذراعاي مفرودتين فقط أتنفس. شعرتُ بأني كنت أخوض بهياج عبر مياه تصل إلى خَصري، والآن أخيرًا وصلتُ إلى الشطّ متعبًا وكل أطرافي ترتجف ولكنْ أكاد أكون في سلام. لقد نجوتُ. عدت إلى نفسي. وخارج الشباك كانت النوارس تصيح باحثة عن مامي فرينش، تعلو وتهبط بأجنحة صلبة مفرودة باتساع وكأنها مثبّتة فوق قضبان مطاطية. نهضتُ مرتعشًا وعبرتُ الغرفة. ثمة ريح وشمس، والبحر يشهق أزرقَ غنيًا محفوفًا بالمخاطر. إلى أسفل في الميناء الحجري الصغير كانت اليخوت تتقافز وتلتف، تشد حبال مراسيها. استدرتُ عنها. كان في المشهد المرِح الساطع شيء كأنه يوبّخني. لبستُ روب تشارلي ونزلت إلى المطبخ. الصمت في كل مكان. في الضوء الصباحي الهادئ كان كل شيء دون حراك وكأنما تحت تأثير سحر. لم يكن بوسعي التفكير في الطعام. وجدتُ في الثلاجة زجاجة "أبوليناريس"[61] مفتوحة أتيتُ عليها. كانت خامدة وفيها طعم معدنٍ خافت. جلستُ إلى المائدة وأسندتُ جبيني إلى يدي. كان ملمس جلدي رمليًا، وكأن الطبقة السطحية قد تغضنت حتى صارت نوعًا من التراب العالق. بقايا إفطار تشارلي ما زالتْ على المائدة، وثمة رماد سجائر مسكوب وطبق فنجان مليء بالأعقاب المهروسة. كانت الجرائد التي اشتريتُها يوم الخميس محشورة في سلّة

الزُبالة. اليوم السبت. لقد فاتني – كم – يومان، نحو يومين من الأدلّة المتراكمة. بحثتُ عن الكيس البلاستيكي حيث وضعتُ ثيابي، لكنه راح. لابد أن تشارلي تركه في الخارج للزبالين، ولعله في مَقلَبٍ ما الآن. تشنّجتُ برعب زاحف فوثبت وذَرَعتُ الأرض وكل يد من يدي ممسكة بالأخرى تمنعها من الارتعاش. لابد أن أفعل شيئًا، أي شيء. جريتُ إلى الطابق الأعلى وانجرفتُ من غرفة إلى أخرى مثل مَلِك مجنون، وذيل الروب يرفرف من ورائي. حلقتُ، محدقًا إلى نفسي في مرآة عين السمكة. ثم ارتديتُ ثياب تشارلي من جديد، واقتحمت مكتبه لآخذ نقوده ومحفظة بطاقاته الائتمانية ونزلت الدَرَج أقطع ثلاث سلالمَ في كل خطوة وخرجتُ عاصفًا إلى العالم.

ثم توقفتُ. كان كل شيء في مكانه: المراكب في الميناء، الشارع، البيوت البيضاء على الساحل، اللسان، تلك الغيوم الصغيرة على خَطّ الأُفق. ومع ذلك كان كل شيء مختلفًا بشكل ما عما توقعتُ أو عما توقع شيء ما في داخلي لعله حسّ فارق بالترتيب الذي ينبغي أن تكون عليه الأشياء. حتى أدركتُ – طبعًا – أني أنا الموجود في غير مكاني.

دخلتُ كشك الجرائد وفي صدري نفس انقباض الخوف والحماس الذي شعرتُ به أول مرة. حين أمسكتُ الجرائد انمسح الحبر على يدي، وانزلقتْ قطع العملة في أصابعي المتعرّقة. الفتاة ذات الحبوب رمقتني مرة أخرى. كانت لها نظرة مميَّزة، وكأن شيئًا قد لطّخها، بدا أنها تتجاوزني وتستوعبني في نفس الوقت. لم تبلغ حيضها. عرفتُ من طريقتها، تلك اللمسة المتوترة القابلة للانفعال. أدرتُ لها ظهري وتفقّدتُ الجرائد. مر ما يكفي من الوقت ليتشعّب الخبر مثل بقعة من أسفل الصفحات الأولى إلى أعلاها بينما تتقلص

تقارير التفجير وقد مات من مات من المصابين. كانت هناك صورة للسيارة، تبدو مثل فرس نهر جريح وقد وقف إلى جوارها عسكريّ بارد وثمة مخبر يرتدي بوطًا مطاطيًا ويشير إلى شيء ما. أُجريتْ مقابلة مع الأولاد الذين وجدوها. هل يتذكرونني، ذلك الغريب الشاحب يحلم على الدكة في المحطة المهجورة؟ يتذكرونني بالفعل. لقد أعطوهم وصفًا لي: رجل مسن بشعر أسود ولحية كثة. كانت المرأة التي لقيتْني لدى إشارة المرور واثقة من أني في بداية العشرينات من عمري، مهندمُ الملبس بشارب وعينين ثاقبتين. ثم كان هناك سُيّاح وايتووتر الذين رأوني أغادر بانلوحة، وريك وأمه طبعًا، والصبي الأبله والمرأة في المرآب حيث استأجرتُ السيارة. وفي كل وصف من أوصافهم كانت تتجلى نسخة أخرى أكثر أسطورية مني حتى تضاعفتُ وصرتُ عِصابةً من السفّاحين ذوي الشوارب يُسرعون هنا وهناك يحملقون ويصدرون أصواتًا مهدِّدة مثل كورال من قاطعي الطريق في أوبرا إيطالية. كدت أضحك، لكني أُحبطتُ. نعم، فعلًا أحبطت. هل أردتُ أن أنكشف، أن أرى اسمي مفرودًا بحروف عملاقة على كل صفحة أولى؟ أظنني أردتُ ذلك فعلًا. أظنني كنت أتوق في أعماقي إلى الوقوف أمام لجنة محلَّفين وكشف كل أسراري الوَسِخَة الصغيرة. نعم، أن أنكشف ويُنقَضّ علي فأُضرب وتُنزَع عني ثيابي لأوضع أمام الجموع العاوية، كانت هذه أعمق وأحرّ رغباتي. ولكن – ياه! – ألا تتوقون إلى ذلك أيضًا في قلوبكم أيها المحلفون النبلاء؟ أن ينفضح أمركم؟ أن تُحسوا بيد ثقيلة تَسقط على أكتافكم وتسمعوا صوت السلطة المدوي يقول لكم إن المباراة انتهتْ! باختصار، أن يُنزع عنكم القناع... اسألوا أنفسكم. أنا أعترف – أعترف! – بأنّ الأيام التي مرت وأنا أنتظر أن يعثروا علي كانت أكثر الأيام التي عرفتُها أو يمكنني

أن آمل في معرفتها إثارة. مُريعة، نعم، لكنْ مثيرة أيضًا. لم يبدُ العالم متزعزعًا إلى هذا الحد أبدًا، ولا مكاني فيه على هذا القدر من القلقلة الآسرة. كان عندي وعيٌ ملتهب وشَبِق بنفسي كشيء كبير دافئ ورطب ملفوف في ثياب شخص آخر. في أي لحظة يمكن أن يَقبضوا عليّ، ربما يراقبونني الآن حتى، يتمتمون في سماعاتهم ويشيرون إلى القنّاصين على السطوح. في البداية سيكون هناك رعب، ثم وجع. وحين ينفد كل شيء، كل ذرة كرامة وادعاء، يا لِهذه من حرية، يا لها من خِفّة! لا – ماذا أقول – ليس خفة ولكن نقيضها: الثقل، الجاذبية، إحساس أنك مغروس في الأرض بإحكام. إذاك أخيرًا أكون أنا وليس تلك الشخصية المنتحَلة التي أمثّل أني هي طوال حياتي. أكون حقيقيًا. أكون، من وَسَطِ كل الأشياء، إنسانًا.

أخذتُ الحافلة إلى المدينة ونزلت في شارع كنت أسكنه منذ سنين أيام كنت طالبًا، ومشيت بمحاذاة سور الحديقة في الريح الدافئة تحت الأشجار الشائطة والحنين يملأ قلبي. وقف رجل بقبعة وعينين فظيعتين متسختين يُلوّح بقبضته في الهواء ويَصرخ بالسباب البذيء في السيارات التي تمر. حسدتُه. كان بودي أن أقف وأصيح هكذا، أسكب كل ذلك الغضب والألم والسُخْط. واصلت السير. خرجتْ ثلاث بنات في ثياب خفيفة يتقافزن ويضحكن من إحدى المكتبات، ولوهلة انجرفتُ وسْطهن وأسناني الجانبية مكشوفة في ضحكة مخيفة. وحش بين إلهات الحُسن الثلاث. في محلّ جديد برّاق اشتريتُ سُترة وبنطلونًا وقميصين مع بضع ربطات عنق وملابس داخلية وفي إيماءة تبجُّح قبعة أنيقة لا تخلو من بهرجة. ظننتُني لاحظتُ زيادة في الاهتمام حين أخرجتُ بطاقات ائتمان تشارلي – يا الله، هل يعرفونه، هل يتسوّق

هنا؟ – لكني أخذتُ رُقيّ لهجتي إلى مداه ووقعت باسمه بسرعة واثقة فاستكان الجميع. لم أكن قلِقًا حقًّا. في الحقيقة كنت أشعر بالحماس والسعادة بشكل مضحك وكأني صبي في فسحة تسوّق عيد ميلاده. (لماذا يمنحني فعل شراء الأشياء المجرد كل هذه المتعة البسيطة؟) بدا أني أسبح بامتداد الشارع، منتصبًا أقطع الهواء مثل فرس البحر. أظنني كنت محمومًا لا أزال. كان الناس الذين أمشي بينهم غريبين عني، أغرب من المعتاد أقصد. وشعرتُ بأني لم أعد من نَفْس فصيلتهم، بأنّ شيئًا حصل منذ آخر مرة قابلتُ فيها كتلة منهم معًا، تعديلًا وقع في، حدثًا منمنمًا وسريعًا بشكل مذهل ولكن شديد الوطأة في مسار تطور الأنواع. مررتُ من خلالهم مثل لقيط، مثل شيءٍ أنتجتْه الطبيعة وهي تتسلّى. لقد أصبحوا خارج مجالي، لا يمكن أن يَمَسّوني. هل يمكنهم حتى أن يروني أم أني الآن خارجُ نطاق بصرهم؟ ومع ذلك بأي تَكَالُبٍ كنت أتفرج عليهم، بأي جوع وعجب! كانوا يندفعون من حولي بما يشبه خطى متعثرة وعيون باهتة وهم حيارى كأنهم لاجئون. ولقد رأيتُني برأس يعلو ويهبط وكتفين مرتفعين عنهم، متنكرًا ووحيدًا أضمر سري الضخم. إنني حلمهم الذي لا يعرفونه ولا يعترفون به، "موسبرغر"[62] الخاص بهم. وصلتُ إلى النهر، وتمهّلتُ على الجِسر بين المتسولين وبائعي الفواكه والحلي الرخيصة، متطلعًا بإعجاب إلى الضوء الذي تغبّشه الريح فوق المياه ومتذوقًا الهواء المالح على شفتي. البحر! أن أكون بعيدًا، هناك، فوق قامات دون عدد من المياه، ضائعًا في الزُرقة.

دخلتُ – بهذه البساطة كان كل شيء فعلًا – دخلتُ بارًا واشتريتُ شرابًا. كانت كل رشفة مثل شظية معدن، باردة وملساء. كان المكان أشبه بكهف، شديد الظلام. وضوء الشارع يبرق أبيضَ عبر الباب

المفتوح. كان يمكن أن أكون في مكان ما في الجنوب، في أحد تلك المرافئ الرطبة المتعَبة التي كنت أعرفها جيدًا. في الخلف، في مكان مضاء وكأنه خشبة مسرح، كان جماعة شباب برؤوس حليقة وبوطات كبيرة بأربطة يلعبون البلياردو. الكرات تَصرّ وتطقطق والشباب يسبّون برفق. كان كأنه مشهد من أعمال "هوغارث"[63]. جماعة من الجراحين دون أغطية رأس – مثلًا – منكبّون على مائدة التشريح. كان الساقي بذراعين مربّعين وفم مفتوح يتفرج على سباق الأحصنة في تلفاز موضوع عاليًا على رف في الزاوية من فوقه. جاء شاب مسلول في معطف قصير ووقف جنبي يزفر ويتململ. استشعرتُ من التوتر النابع منه أنه يُعِدّ نفسه لشيء ما، ولوهلة أمتعني القلق. يمكن أن يفعل أي شيء، أي شيء. لكنه فقط تكلّم. وبنبرة سُخْط مريرة قال: أنا عشتُ هنا ثلاثة وثلاثين عامًا والجميع خائفون. رمقه الساقي باحتقار ضَجِر ثم استدار عائدًا إلى التلفاز. كانت أحصنة زرقاء تعدو في صمت فوق حَلْبَة خضراء فاقعة. أنا نفسي خائف، هكذا قال الشاب وهو مستاء الآن. وانتابه تشنج هائل فانحنى كتفاه وهبط رأسه وألقى إحدى ذراعيه إلى الخلف وكأن شيئًا عضّ عنقه. إذاك استدار وخرج متعجلًا يضُم معطفه عليه. تبعته تاركًا نصف شرابي. كان الضوء في الخارج ساطعًا يعمي. عثرتُ عليه وكان ابتعد مسافة بالفعل، يهرول عبر الجموع وقد ضم كوعيه إلى جانبيه وراح يأخذ خطوات صغيرة ضيقة وسريعة، رشيقًا كراقص. ما كان لشيء أن يوقفه، فحتى في أكثر تكتلات الأجساد كثافة كان يجد منفذًا على الفور فيدير نصفه الأعلى وكأنما على محور بحِذْقٍ ويفوت عابرًا دون أن يغيّر خطوته. كنا لنصبح ثنائيًا متميزًا إذا ما فكر أحد في الربط بيننا، هو في معطفه الضيق البالي وأنا في قبعتي الفخمة أمسك

بحِزمة غالية من أكياس التسوق. بالكاد تمكنتُ من مسايرته، وبعد دقيقة أو اثنتين كنت أَنهج وأعرق. كان لدي حس لا تفسير له بالبهجة. ذات مرة توقف ووقف يحدّق في نافذة عرض لصيدلية. انتظرتُ متلكئًا عند محطة حافلات وأنا أتابعه بطَرَف عيني. كانت هيئته من الانكباب وبدا أن ارتجافه من الجِدّة بحيث ظننتُه سيفعل شيئًا عنيفًا، يستدير ويهاجم شخصًا ما ربما أو يكسر نافذة العرض ركلًا وتضرب قدماه الأرض وسط الكاميرات وعروض الماكياج. لكنه كان فقط ينتظر أن تمر رعشة أخرى انتابتْه. هذه المرة حين ألقى بذراعه إلى أعلى ارتفعتْ ساقه هي الأخرى وكأن الكوع والركبة يربطهما سِلْك خفيّ، وبعد ثانية سقط كعبه على الرصيف بفرقعة ترن. تطلّع حوله بسرعة ليرى ما إذا كان أحد لاحظ ما جرى، وهزّ نفسه خفيفًا بشكل عابر وكأنما ليوحي بأن نوبة التشنج السابقة كانت هي الأخرى مقصودة، ثم انطلق من جديد مثل كلب "ويبت"[64]. أردتُ أن ألحق به، أردتُ أن أكلّمه. لم أكن أعرف ماذا سأقول. لن أعبر عن تعاطف معه، بالتأكيد لا. لم أكن أُشفق عليه، لم أر فيه ما يستحق شفقتي. لا، هذا غير صحيح. لقد كان مثيرًا للشفقة. مسكين هذا المخلوق المشوّه المجنون. لكني لم أشعر ناحيته بالرثاء، لم ينفطر قلبي عليه بهذه الطريقة. إن ما شعرته هو – كيف أقول ذلك – نوع من الاحترام الأخوي، حسّ قويّ وداعم يربو على البهجة بالتوحّد معه. بدا أسهل شيء في العالم أن أسير إليه الآن وأضع يدي على كتفه النحيل وأقول: يا شريك الألم، يا صديقي الغالي، رفيق التعاسات! وهكذا أصابني الإحباط والكدر في الزاوية التالية حين وقفتُ وناظرًا حولي في الجمع المتزاحم أدركتُ أني فقدتُ أثره. تقريبًا على الفور، مع ذلك، وجدتُ بديلًا: فتاة طويلة سمينة بكتفين كبيرين ومؤخرة

كبيرة وساقين كبيرتين أنبوبيتين تنتهيان بقدمين متناهيتي الصغر مثل القدمين الأماميتين لخنزير حُشِرتا في حذاء أبيض بكعب عال. كانت خارجة من الكوافير، شعرها مقصوص على الموضة بطريقة صبيانية بدت ممسوخة عليها. كان لون قفاها المُشعِر ما زال درجةً غاضبة من الأحمر جراء مجفّف الشعر، بما فيه طيّة لحم بدا أنها تحمر خجلًا لها. يا لِجرأتها وحزنها وهي تطأ الأرض ثقيلةً بحذائها القبيح. وأعتقد أني كنت لأتبعها طوال اليوم إن لم أفقدها هي الأخرى بعد فترة. كان هدفي التالي رجلًا بعلامة ضخمة على شكل حبة فراولة على عنقه، ثم امرأة منمنمة تجر كلبًا منمنمًا في عربة أطفال دمية، ثم شابًا يتقدم إلى الأمام بعزم وكأنه لا يرى أحدًا وعلى وجهه نظرة ثابتة وهو يهز ذراعيه ويزمجر لنفسه. في شارع مشاة مزدحم حوطتني فجأة جماعة بنات غجريات، اللاتي كانت أمي لتسميهن "فاجرات كبيرات"، بشعر أحمر ونمش وعيون استثنائية زجاجية خضراء. كن يدفعنني بتضرع عدواني، ينتفن كُمي ويتأوهن. وكأن سربًا من طيور برية كبيرة ولحوحة قد انقضّ علي. حين حاولتُ أن أُبعدهن أسقطتْ إحداهن القبعة عن رأسي بينما انتزعتِ الأخرى ببراعة الكيس الذي يحتوي على سترتي الجديدة. هربن وهن يتدافعن ويضحكن بصوت حاد وكعوبهن الملتهبة الحمراء طائرة. أنا أيضًا ضحكتُ، والتقطتُ القبعة من الرصيف متجاهلًا نظرات المارة الذين وجدوا استمتاعي فيما بدا غير لائق. لم تعنني السترة – في الحقيقة تَنَاغَمَ ضياعها بشكل غامض ولكن لائق مع ضياع سابِقتِها المهملة – لكني كنت لأحب أن أرى إلى أين ستذهب تلكم البنات. تخيّلتُ كوخًا بسقف مائل من مِزَق القماش وقِطَع الحديد المطلي بالزنك على بقعة مترّبة من الأرض الخراب، مع كلب يتضور جوعًا ورُضّع بأنوف

يسيل منها المخاط وعجوز شمطاء سكرانة تميل على إناء يتصاعد منه البخار. أو ربما هناك "فاغين"[65] ينتظرهن في مكان ما، متواريًا في ظلال عمارات شاغرة حيث ضوء الصيف يداعب الشيش وذرّات التراب تتطاير تحت أسقف عالية ومخالب جرذ تخمش الصمت وراء كعب الحائط الخشبي، يخمش ويسكت ثم يخمش من جديد. هكذا واصلتُ سِكّتي سعيدًا لفترة قصيرة أحلم بحيوات أخرى حتى لمحت عملاقًا بوجه حليبي وساقين مطاطيتين يضرب الأرض بعكازين من أمامي، وانطلقتُ وراءه في مطاردة نهِمة.

ماذا كنت أفعل، لماذا أتبع هؤلاء الناس... أي استنارة أبحث عنها بهذه الطريقة؟ لم أكن أعرف، ولا اهتممتُ. كنت متحيّرًا وسعيدًا، مثل طفل سُمح له بالاشتراك في لعبة كبار. وقد واصلتُ الأمر لساعات، أقطع الشوارع والميادين جيئة وذهابًا بإصرار سكير دائخ وكأني أرسُم علامة ضخمة معقدة على وجه المدينة حتى يقرأها شخص ما في السماء. وجدتُني في أماكن لم أعرف من قبل بوجودها، أزقّة متعرجة ومساحات واسعة مهجورة تظهر فجأة، شوارع سدّ تحت جسور سكك حديد حيث كانت سيارات مصفوفة تتشمس مسطّحةً في دفء المساء، تبرق سقوفها ذات ألوان لعب الأطفال. أكلتُ "هامبورغر" في مقهى بجدران زجاجية وكَرَاسٍ بلاستيكية ومنافضَ من ورق الألومنيوم حيث الناس يجلسون وحيدين يقضِمون طعامهم مثل أطفال خائفين هجرهم أهاليهم. مات ضوء النهار مترفّقًا تاركًا غروبًا مقلّمًا بالأحمر والذهبي يلطّخ السماء، وبينما أنا ماشٍ كان الأمر كما لو كنت تحت سطح نهر عريض يحترق. كانت جموع المساء في الشوارع، بنات في بنطلونات ضيّقة وكعوب عالية وشباب مفتول بقصات شعر خطرة. في الغسق

الحار الضبابي بدت الشوارع أوسع وكأنها ثنائية الأبعاد بشكل ما بينما السيارات تنطلق عبرها صقيلة كالفقمات في بريق الصوديوم الباهر. عدتُ إلى بيت تشارلي متأخرًا وقدماي تؤلمانني، ساخنًا ومُبَهْدَلًا وقبعتي معوجة، ولكن ممتلئًا بحس إنجاز مبهم. وتلك الليلة حَلَمتُ بأبي. كان نسخة مصغرة من نفسه، طفلًا ذابلًا بشارب يرتدي بدلة ملّاح ويقود عقيلة كبيرة وطويلة بعينين داكنتين من يدها وهي ترتدي ثيابًا إغريقية وتاجًا من الآس وتطالعني بابتسامة شهوانية غافرة.

لقد أصابتني صدمة. جاء محامي يزورني اليوم جالبًا خبرًا غير عاديّ. أنا عادة أستمتع بطريقة كئيبة باجتماعاتنا الصغيرة. نجلس إلى طاولة مربعة في حجرة صغيرة دون تهوية خالية من الشبابيك. طلاء الجدران رصاصي بلون خزانات الملفات. ويهبط علينا الضوء من شريط أنابيب نيون فوق رؤوسنا مُغريَلًا مثل ضباب يحمل حُبيبات رفيعة. تُصدِر اللمبة أزيزًا ضعيفًا متواصلًا. يكون ميلشاخلين في البداية ممتلئًا بالطاقة، ينقّب في حقيبته ويقلّب أوراقه ويتمتم. إنه أشبه بدُبّ كبير قلِق. يَجهد حتى يجد أشياء يحدثني بها: جوانب جديدة للقضية، نقاط قانونية مجهولة يمكنه أن يثيرها، احتمالات حصولنا على قاض متعاطف... أشياء من هذا القبيل. يتحدث بأسرع مما ينبغي متعثرًا في كلماته وكأنها أحجار. حتى يتسلل إليه جو المكان بالتدريج مثل العطن فيمتثل للصمت. يخلع نظارته النصفية ويجلس ناظرًا إليّ وعيناه ترفان. له طريقة في ضغط قصبة أنفه بين إصبعين وإبهام تقرّبه إلى قلبي بدرجة غريبة. أشعر بالرثاء تجاهه. أعتقد أنه يحبّني بحق. وهذا يحيّره وفي ظني يزعجه أيضًا. يعتقد أنه يخذلني حين تنفد قوة دفعه هكذا ولكن في الحقيقة لا شيء بقي حتى يقال. كلانا يعلم أني سآخذ مدى الحياة. وهو لا يفهم رزانتي في وجه مصيري. أقول له إني اعتنقتُ البوذية فيبتسم بحذر غيرَ متأكد مما إذا كانت نكتة. أُسلّيه بحكايات عنَ حياة السجن، وأعزّزها بتقليد أشخاص. أقلّد مدير السجن بشكل مقنع جدًا. حين يضحك ميلشاخلين لا يكون هناك صوت، فقط اهتزاز بطيء في الكتفين وابتسامة ممدودة لامعة.

بالمناسبة، يا لها من صياغة غريبة: أن آخذ مدى الحياة. نادرًا ما تعني الكلمات ما تعنيه فعلًا.

اليوم عرفتُ على الفور أنه مستثار من شيء ما. ظل يَشد ياقة قميصه ويتنحنح، يخلع نظارته ويعود يلبسها من جديد. ثمة نظرة مبقّعة في عينيه. لقد تردد ودمدم بكلام عن مفهوم العدالة واجتهادات المحاكم وغير ذلك من الهذيان. كان حزينًا ومرتبكًا وهو يحرك مؤخرته الكبيرة على كرسي السجن وينظر في كل مكان إلا إليّ حتى أني بالكاد امتنعتُ عن الضحك. لقد أنصتُ مع ذلك حين بدأ يتمتم شيئًا عن احتمال أن أُقرّ بالذنب، هو الذي أنفق كل هذا الوقت والجهد في البداية على إقناعي بأن أدفع بالبراءة. الآن حين سألته عن الأمر – وأعترف أني فعلتُ بحدة – انحرف عن الموضوع فورًا بنظرة قلقة. تُرى ما خطبه؟ كان ينبغي أن أُلحَّ في الأمر حتى أعرف. كإجراء تضليلي غطس في حقيبته وأخرج نسخة من وصية أمي. لم أكن سمعتُ محتواها وكنت كما هو مفهوم طبعًا شديد الاهتمام بالأمر. لاحظتُ أن ميلشاخلين لم يجد هذا الموضوع أسهل كثيرًا من الموضوع السابق. سعل كثيرًا، وقطّب، وقرأ علي كلامًا عن الهدايا والعهود والتركات الفرعية فمر وقت قبل أن يصل إلى لُبّ الموضوع. ما زلتُ لا أصدق. الغانية العجوز تركت كولغرينج للفتاة السائسة، ما اسمها، جوان. هناك بعض المال لدافني ولتعليم فان، لكن لي أنا لا شيء. ولعلني لا ينبغي أن أندهش، لكني مندهش. لستُ ابنًا صالحًا، لكني ابنها الوحيد. كان ميلشاخلين يطالعني بعطف. أنا آسف، قال. فابتسمتُ وهززت كتفي مع أن ذلك لم يكن سهلًا. ساد صمت غريب. إذاك ناولني الوثيقة بما يشبه الحنان، فنظرتُ إلى التاريخ. كان عمرها سبع، ثماني سنوات. لقد حرمتْني ميراثي منذ زمن طويل، قبل أن أجيء لألطّخ سمعتها وسمعة العائلة. تذكرتُ بوضوح صادم الطريقة التي طالعتْني بها ذلك اليوم في المطبخ في كولغرينج،

وسمعتُ من جديد قوقأة الضحك الصاخب. حَسَنٌ، أنا سعيد أنها استمتعت بمزحتها. إنها مزحة جيدة. أجد قلبي خاليًا من المرارة بشكل مدهش. أبتسم مع أنه يبدو على الأرجح أني أُجفل. هذه مساهمتها في دورة الدروس الطويلة التي لابد لي من تعلُّمها.

نهض ميلشاخلين كعادته وهو في أكثر حالاته مرحًا، في محاولة لإخفاء الانفراجة التي تصاحب لحظات المغادرة. راقبتُه يكافح حتى يلبس معطفه الكحلي ويعقِد كوفيته الصوفية الحمراء حول رقبته. أحيانًا لدى وصوله تُصدِر ثيابه نفحات وشظايا من هواء الخارج فأشتمها بمتعة مختَلَسة وكأنها أغلى العطور. كيف الحال في الخارج، هكذا قلت الآن. فتوقف وأخذ يرمش في وجهي متوجسًا. أظنه حسبني أطلب منه صورة عمومية وكأني نسيتُ شكل العالم. اليوم، قلت، الطقس. فصفا جبينه وهز كتفيه. قال: رمادي، فقط رمادي كما تعلم. ورأيته على الفور، مع غصة: آخِرَ الأصيل في نوفمبر، ولمعة بليدة على الطرق المبتلة، والأطفال يتسكعون في الطريق إلى بيوتهم من المدرسة، والغربان تتقلّب وتُحوّم عاليًا على خلفية من الغيوم الشعثاء، ولمعة السماء الباهتة من وراء الأغصان العارية المسودة. هذه هي الأوقات التي كنت أعشقها، لحظاتُ المُناخ غير المرتّبة، حين تقوم أعمال العالم الشاسعة هادئة بشكل تلقائي وكأنّ لا أحد هناك ليلاحظ أو يهتم. أراني طفلًا هناك أتلكأ عبر تلك الطريق المبتلة أركل حجرة أمامي وأحلم حلمًا هائلًا بالمستقبل. كانت هناك سكة كما أذكر تخترق الغابة على بعد ميل أو نحو ذلك من البيت، أعلم أنها لابد أن تؤدي إلى كولغرينج في النهاية. كم كانت الظلال خضراء والدرب عميقًا، وكم بدا الصمت متململًا هكذا. كلما مررتُ من هناك آتيًا من مفترق الطرق كنت أقول لنفسي: المرة

القادمة، المرة القادمة. لكن في المرة القادمة دائمًا ما أكون متعجلًا أو يكون الضوء في طور التلاشي، أو فقط لا أكون في مزاج يسمح بارتياد سكة جديدة، فألتزم مساري العادي عبر الطريق. وفي النهاية لم آخذ تلك السكة السرية أبدًا، والآن طبعًا فات الأوان.

لي زمن أقوم بعمليات حسابية في رأسي – يلهيني الأمر عن الأشياء الأخرى – وقد اكتشفتُ لدهشتي أني لم أُمض أكثر من عشرة أيام في بيت تشارلي، من يوم منتصف الصيف أو ليلته للدقة وحتى آخر أيام يونيو. هذه عشرة أيام فعلًا، أليس كذلك؟ "وفي سبتمبر ثلاثون يومًا"، أبريل، يونيو... نعم، عشرة. أم أنها تسعة؟ هي تسع ليالٍ بالتأكيد. ولكن متى ينتهي اليوم وتبدأ الليلة أو العكس؟ ولماذا أجد الليلة كيانًا ذا جوهر قابل للقياس أكثر من اليوم؟ لم أُجِد مثل هذه الأشياء أبدًا، فكلما كانت الأرقام أبسط حيّرتْني. على أي حال عشرة أيام بالتقريب، أكثر أو أقل قليلًا، هي طول إقامتي عند تشارلي فرينش الذي لم أقصد أن أخون طيبتَه وكرم ضيافته. بدت الفترة أطول من ذلك. بدت أسابيعَ وأسابيع. لم أكن بائسًا هناك. أقصد أني لم أكن أكثر بؤسًا مما كان ليجعلني أيُّ مكان آخر. بؤس! يا لها من كلمة. مع مرور الأيام أصابتني ململة متزايدة. شاطت أعصابي، وانعقدت أحشائي على ألم دائم. صرتُ أعاني من نوبات نفاد صبر مفاجئة وعنيفة. لماذا لم يأتوا من أجلي، ماذا يفعلون؟ استأتُ من صمت آل بيرينز على وجه الخصوص، وكنتُ متأكدًا أنهم يلعبون معي لُعبة قاسية. لكن طوال الوقت، خلف كل هذه الاضطرابات، بقي حس البلادة المسطح المتواصل. أُحبطتُ وشعرتُ بالخذلان. أقل ما كنت أتوقعه من البشاعات التي ارتكبتُها أن تُغيّر حياتي، أن تُحدِث أشياءَ مهما كانت بشعة، أن يحصُل على

إثرها تسلسل أحداث مثيرة توقف القلب، إنذارات ونوبات ذعر مفاجئ وحالات فرار على الشَعرْة. لا أعرف كيف مرّرتُ الأيام. كنت أصحو كل صباح على فَزَع معذّبَ وكأن نقطة نقية من الألم المُقطّر سقطتْ على جبيني. كان ذلك البيت الكبير العتيق بروائحه وعنكبوته خانقًا. شربتُ كثيرًا بالطبع، لكن ليس بما يكفي لأجعل نفسي معدوم الحس. يعلم الله أني حاولتُ أن أبلغ السلوان، وصببتُ الخمر في جوفي حتى تخدرتْ شفتاي وصارت ركبتاي بالكاد تنثنيان ولكن لا فائدة. لم أستطع أن أهرب من نفسي. وبترقب عاشق شغوف انتظرتُ المساءات حين أرتدي قبعتي وثيابي الجديدة – قناعي الجديد – وأخطو بحذر إلى الأمام. "دكتور جيكل" مرتعد يتلوى ويجاهد في جوفه ذلك المخلوق الآخر الرهيب، يشتهي الخبرة.[66] شعرتُ بأني حتى الآن لم أكن طالعتُ العالم العادي من حولي، الناس والأماكن والأشياء. كم بدا كل شيء بريئًا، بريئًا ومشئومًا. كيف أعبّر عن كتلة العواطف المتشابكة التي كانت تتخبط في داخلي وأنا أجوس في شوارع المدينة تاركًا قلبي الوحشي يأخذ كفايته من المناظر والأصوات الاعتيادية؟ إحساس القوة، مثلًا. كيف أنقل ذلك الإحساس؟ كان ينبع ليس مما فعلتُه ولكن من حقيقة أني فعلته ولا أحد يعرف. كان السر، السر نفسه، هو ما يُرقّيني فوق ذوي العيون البليدة الذين أتحرك وسْطهم بينما يموت اليوم الطويل فتوقَد أعمدة الإنارة وينزلق المرور نحو ديار المارّين تاركًا سديمًا أزرق كدخان الطلق الناري على الهواء الداجي. ثم كان هناك ذلك الشيء المتواصل، الحماس الساخن مثل حرارة مرتفعة في الدم. في هذا الحماس نصف خوفي من أن أنكشف ونصف توقي إلى ذلك معًا. في مكان ما كما كنت أعلم، في صالات انتظار ومكاتب متهالكة يملأها الدخان، ثمة رجال لا وجوه لهم

يُجمّعون الأدلة ضدي بدقة مضنية. كنت أفكر فيهم ليلًا وأنا راقد على سرير أم تشارلي المتكتل. غريب أن أكون موضوع مثل ذلك الاهتمام المدقّق، غريب وليس مزعجًا تمامًا. هل يبدو ذلك منافيًا للبديهة؟ لكني كنت في بلد آخر الآن، وهناك لا تنطبق القواعد القديمة.

كان النوم صعبًا طبعًا. لعلني لم أرد أن أنام، خائفًا مما سألاقيه. في أحسن الفروض كنت أنتزع ساعة مضطربة أو اثنتين من الظلام الذي يسبق الفجر، لأصحو متعبًا بوجع في صدري وحرقة في عيني. كان تشارلي هو الآخر ساهدًا، في كل الأوقات كنت أسمع صريره على الدرج وخشخشته للبراد في المطبخ والرنين المتشنج لمثانة الرجل العجوز التي يُفرغها في الحمام. لم ير كل منا الآخر إلا قليلًا. كان البيت كبيرًا بما يكفي لنكون كلانا هناك في نفس الوقت ويشعر كل منا أنه بمفرده. منذ ليلة السُكر الأولى وهو يتجنبني. وبدا أنه لا أصدقاء له. لم يرن الهاتف أبدًا، ولا جاء أحد إلى البيت. لذلك اندهشتُ وأصابني قلق بغيض حين عدتُ ذات مساء من جولات تسكّعي عبر المدينة لأجد ثلاث سيارات سوداء كبيرة مصفوفة في الشارع، وعسكري في الزي الرسمي يتلكأ صحبة رجلين مستَنفَرين يرتدي كل منهما معطفَ مطر من المُشَمّع عند حائط الميناء. حرصتُ على المرور من أمامهم على رِسلي كأي مواطن صالح خرج يتمشّى في آخِر اليوم، مع أن قلبي كان يدق كمطرقة وكفي مبتلان، ثم انسللتُ من الخلف ودخلتُ عبر الإصطبلات المعدّلة[67]. في منتصف طريقي عبر الحديقة الأشبه بالدَغَل تعثّرتُ ووقعتُ فقطعتُ يدي اليسرى على شجيرة ورد تُركتْ حتى صارت برّية. وقرفصتُ على العشب منصتًا. رائحة التُربة، رائحة أوراق الشجر، إحساس الدم الغليظ على يدي المجروحة. الضوء الأصفر في شباك المطبخ حوّل

الغسق من حولي إلى أزرق حنون. ثمة امرأة غريبة في الداخل ترتدي مريلة بيضاء وتعمل عند الموقد. حين فتحتُ الباب الخلفي استدارت بسرعة وأصدرت صرخة صغيرة ثم قالت: يا ألطاف الله، من أنت؟ كانت امرأة مسنة بباروكة محنّاة وطقم أسنان على غير مقاسها وأداء غير منتظم. كان اسمها، كما سأكتشف بعد قليل، "مادج". إنهم جميعًا في الطابق الأعلى، قالتْ لتصرفني، واستدارتْ من جديد إلى مقاليها المتصاعد منها البخار.

كانوا خمسة، أو ستة إذا ما حسبنا تشارلي، مع أنه بدا لي في البداية أن هناك ضِعفَ هذا العدد. كانوا في حجرة صالون كبيرة وكالحة في الطابق الأول، يتقافزون ويتفادون بعضهم بعضًا مثل لقالق عصبية ويثرثرون كما لو كانت مسألة حياة أو موت. من خلفهم كانت أضواء الميناء تومض، وعلى مسافة في السماء كان قالب ضخم من الغيم بلون الأردواز ينغلق وكأنه غطاء لآخر مسحة من نار الغروب الخابية. لدى دخولي توقّفتِ الثرثرة. كان بينهم امرأة واحدة فقط، طويلة ورفيعة بشعر أحمر كَفَرو الثعالب ووجه أبيض بالغ الحِدّة. أبصرني تشارلي الواقف وظهره إليّ أولًا في نظراتهم المستديرة. كان يلبس بابيونًا. طيب، هكذا سمعتُ نفسي أقول له بنبرة عَتَب ودود. أما كان يمكن أن تخبرني؟ كانت يداي ترتجفان. مرت لحظة من الصمت المتردد، ثم انطلق الكلام من جديد. واصَلَتِ المرأة مراقبتي. كان لونها الشاحب مع شعرها الفاقع وعنقها الطويل الأهيف يجعلها تبدو فزِعة بشكل دائم وكأنها في لحظة ما من الماضي أُخبرتْ بسر صادم وما زالتْ لم تستوعبْه تمامًا. وبينما يتمتم معتذرًا، كان تشارلي وضع يدًا شائخة مرتعشة تحت كوعي وبدأ برفق ولكن بحسم يخرجني من الحجرة وظهري إلى الباب.

تحول الخوف الذي كنت شعرتُ به من قبل إلى حنق. شعرتُ برغبة في أن أناوله لكمة تَبعَج له شعره ذاك الأشبه بخوذة قاض روماني. كان يقول: قل لمادج، قل لمادج أن تضع لك شيئًا تأكله، وسأكون معك بعد قليل. كان قلقًا إلى درجة أني ظننته سيبكي. وقف على السلّمة العليا وراقبني وأنا أشق طريقي إلى أسفل وكأنه خائف من أن أعود أصعد جريًا إذا ما رفع عينه عني، فلم يستدر ويعود إلى ضيوفه في الصالون حتى وصلت إلى أسفل سالمًا وتوجهتُ إلى المطبخ.

كان المطبخ يملأه البخار. وبدت مادج وقد اعوجت باروكتها أكثر سخونة وانزعاجًا من ذي قبل. هذا المكان، قالتْ بمرارة. بحق الله! إن علاقتها بتشارلي – وكما عبّرتْ هي عن الأمر بطريقة موحية وجذابة – أنها امرأته الموسمية. تجيء حين يكون هناك حفل عشاء أو شيء من هذا القبيل. كان هذا مثيرًا. حفل عشاء حقًا! ساعدتُها بفتح النبيذ، وجلستُ إلى المائدة بقنينة كاملة لي. كنتُ شربتُ نصفها حين طُرق الباب الأمامي بصوت عال جعل قلبي يدق بقوة من جديد. خرجتُ إلى الصالة، لكن تشارلي كان يجلجل متعجلًا على الدرج. حين فتح الباب رأيتُ زوج معاطف المشمّع يحرسون طريق رجل قوي البنية وامرأة طويلة أنيقة يخطوان خطو الملوك إلى داخل الصالة. "ماكس"، هكذا قال تشارلي وتقدم بحماس متخبّط. أما المرأة فتجاهلها. صافحه ماكس بإيجاز ثم استرد يده ورفعها إلى أعلى بسرعة يملّس على جبينه المنخفض المقطّب. يا يسوع، قال. ليس بيتك بعيد بما فيه الكفاية! ظننتنا لن نصل أبدًا. تحركوا باتجاه الدرج، تشارلي وماكس في المقدمة والمرأة وراءهما. كانت ترتدي فستانًا أزرق قبيحًا وعِقدَ لؤلؤ ثلاثيًا. نظرتْ بامتداد الصالة والْتقطت عيني فظلتْ تطالعني حتى أشحتُ

عنها. كانت مادج خرجت من المطبخ وأخذت تُحوّم عند كتفي. وشوشتْ: ها هو بسلامته، والمدام كذلك.

انتظرتُ برهة بعدما صعدوا، وحين عادت مادج إلى طبيخها تبعتُهم وتسلّلتُ إلى الصالون من جديد. كان تشارلي وماكس والسيدة ماكس يقفون لدى أحد الشبابيك يطالعون المنظر الطبيعي بإعجاب بينما الآخرون يتقافزون ويوقوقون ويحاولون ألا يحملقوا تجاههم بشكل مكشوف. جمعتُ ملء ذراع من القناني الموضوعة على سطح المصطلى وجُلتُ بينهم أعيد مَلء كؤوسهم. كان للرجال مظهر متحمس ومُبالَغ في تنظيفه، قلِقٌ بعض الشيء، مثل مظهر أولاد المدارس وقد شبوا عن الطوق يرتدون بدلًا زرقاء في أول نزهة لهم مع الكبار. هذا باستثناء أخ عجوز بأنف مثل برتقالة بدمها وبُقع على صديريّه من الأمام، وقف جانبًا بمفرده تمامًا شاردًا وكئيبًا. حرَص الآخرون على تجاوزي بنظرهم، لكنه أفاق على الفور، جاهزًا للثرثرة. ما رأيكَ أنت على أي حال – هكذا قال بصوت مرتفع – هل سنربح، هل نربح؟ سنربح، رددتُ بشجاعة، وغمزتُ له بشدّة. فرفع حاجبيه وخطا خطوة إلى الخلف، مع ذلك، ناظرًا إلي بشكّ. قال: والله لا أعرف الآن. فهززتُ كتفي ومررتُ بفتور. كان تشارلي لمحني وأخذ يبتسم بإصرار قلق. أشرب الفودكا، قالت السيدة ماكس ببرود حين عرضتُ عليها الجين. كان انتباهي منصبًّا على زوجها. كان له مظهر ملتهب ومفروك وكأنه تعرّض لفترة طويلة إلى ضوء وجو من نوع أكثر خشونة بكثير مما عرفه أي واحد في الحجرة في حياته. وحركاته أيضًا، هيئة جسده وطريقته المترفّقة المدروسة في توجيه نظرة أو رفع يده إلى جبينه، كلها تحمل بصمة فريدة موزونة بوعي مسرحي. كان صوته بطيئًا وأجش، وكانت طريقته في الكلام عنيفة

بشكل مثير للإعجاب بل وحتى، بمعنى ما، مُغوٍ. كان صوت رجل يتقدّم بعناد إلى الأمام عبر غابة من العقبات الصغيرة. تخيّلتُه يَطحن أشياءَ دون اكتراث تحت قدميه، أزهارًا أو حلزونات أو أمشاطَ أقدام أعدائه. خيرٌ يا تشارلي – هكذا كان يقول – أمازلتَ تشتري بثمن رخيص وتبيع غاليًا؟ فتورّد تشارلي ونظر إلي. أنت مُحقّ، قالت السيدة ماكس، لمَ لا تُحرج الجميع! كانت تتكلم بصوت عالٍ، بتشديد بليد، ولم تنظر إليه. كانت كمن يتقاذف الملاحظات من فوق كتفه مع حليف متهكّم يستمع إليها هناك. هو أيضًا لم ينظر إليها. كان يمكن للصوت الذي تكلم أن يكون دون جسد. ضحك بخشونة وقال: هل حصَلتَ لي على الشَغلة الهولندية بعدُ؟ فافتر تشارلي معذَّبًا وهز رأسه دون أن يقوى على النطق. بدأ جفنه الأيسر يرِفّ وكأنّ فراشة تَحتَه دبّت فيها الحياة بشكل فجائي. هممتُ بتقديم الويسكي لكنه وضع كف يده فوق كأسه بسرعة. ماكس هو الآخر أشار لي أنْ أبتعد. كانت المرأة ذات الشعر الثعلبي جاءت في ظهري. يدك، قالتْ. لقد قطعتَها. وللحظة وقفنا جميعًا في صمت، ماكس والمدام، تشارلي و"ثعلبة" وأنا، نتأمل الخدش المطرّز على مفاصل أصابعي. نعم، قلتُ. وقعتُ على شجيرة ورد. وضحكتُ. كان نصف قنينة النبيذ ذاك نفذ إلى رأسي مباشرةً. كان تشارلي ينقل ثقله خلسة من قدم إلى أخرى، خائفًا كما حسِبتُ من أن أكون على وشك أن أفعل شيئًا مُفزِعًا. ولاحظتُ لأول مرة إلى حد يخافني. تشارلي المسكين. ثمة يَخْتٌ مضاء ينساب صامتًا عبر الميناء الأسود كالحبر. قال ماكس بكآبة: منظر بديع.

في غرفة السفرة كانت البومة المحنطة تتطلع من ناقوسها الزجاجي إلى الجمع بتعبير اندهاش هلِع بعض الشيء. كانت باتش،

أقصد مادج الآن في حالة رُهاب. حملتُ لها الصحون والصواني أطرحها على السفرة بإيماءات نادل مبالِغة. أعترف أني كنت مستمتعًا. كان رأسي خفيفًا وأنا أفيض بفرح مهووس مثل طفل في لعبة ارتداء أزياء. بدا أني أتحرّك وكأنما بفعل سحْر. لا أعرف كيف تمكّنت من ذلك لكنْ لفترة، لساعة أو ساعتين، وأنا أتصرّف كما لو كنت مُستخدَم تشارلي، أُطلِق سراحي من نفسي ومن الأهوال التي تطاردني دون هوادة لها أيام. حتى أني اخترعتُ لنفسي تاريخًا وأنا أتحرك، أقصد أني – كيف أعبر عن ذلك؟ – وقعتُ على طريقة ليست طريقتي لكنها لم تبدُ أقل أصالة أو على الأقل معقولية من حقيقتي. (حقيقتي!) صرتُ "فردريك الذي لا غنى عنه"، رجل السيد فرينش الشهير. لولاه لما تمكن ذلك الأعزب العجوز صاحب المال والجهامة من البقاء على قيد الحياة. كان أنقذني من ظروف غير مواتية وأنا شاب – أقوم على البار، مثلًا، في أحد مشارب وسط البلد المشبوهة – والآن أنا مخلص له ووفيّ إلى حد الشراسة. كنت أتنمر عليه أيضًا بالطبع. أحيانًا ما أكون بغيضًا حقًا حين يستضيف أناسًا في بيته. (هل هي غيرة عشيق؟ هكذا كان المعارف يتكهنون، لكن لا – كانوا يستقرون في النهاية – فتشارلي ليست هذه ميوله. ألا تذكرون تلك المرأة ذات الوجه الأشبه بوجه حصان في الريف، حب حياته المفقود؟) بالفعل كنا مثل أب وابن مع فارق أنه ما من ابن راسخ إلى هذا الحد، وما من أب يغفر إلى هذه الدرجة تصرفات ابنه الغريبة. أحيانًا يصبح من الصعب تحديد من السَيّد ومن الخادم. الليلة مثلًا حين انتهى الطبق الرئيس، أقعدتُ نفسي وسط الضيوف وصببتُ كأسًا من النبيذ وكأن ذلك أكثر شيء طبيعي في العالم. ساد صمت، وقطّب تشارلي، ودحرج كسرة خبز على مفرش السفرة متظاهرًا بأنه يفكر في شيء آخر. كان ماكس يحدّق

بطريقة مؤذية من الشباك إلى أضواء الميناء بينما يتململ أتباعه من حوله ويطالع بعضهم بعضًا بترقب. وأخيرًا حملتُ كأسي ونهضت قائلًا: حسنٌ، أظن الأفضل أن ننسحب نحن السيدات، واندفعتُ اندفاعًا إلى خارج الغرفة. في الصالة طبعًا استندتُ إلى الحائط وضحكتُ. ومع ذلك كانت يداي ترتجفان. هيبة خشبة المسرح فيما أظن. يا لِلمُمثل الذي فقده العالم في شخصي.

ماذا سأفعل الآن؟

صعدتُ إلى صالون الطابق الأعلى. لا، دخلتُ المطبخ. مادج: الباروكة، الأسنان المستعارة، المريلة البيضاء... لقد خَبَرتُ هذا كله من قبل. في الخارج مرة أخرى. وجدتُ ثعلبة في الصالة. كانت هامتْ خارج غرفة السفرة. تحت الدرج مكان مظلم، وهناك التقينا. ميّزتُ وجهها في العتمة وعيناها تراقباني وهي جادة وخائفة. لماذا أنتِ حزينة؟ قلتُ. وللحظة لم تَدرِ ماذا تصنع بيديها فوضعتْهما خلف ظهرها وثنت إحدى ركبتيها وحرّكت كتفيها ووركيها برهةً مثل تلميذة مدرسة تلعب دور المرأة اللعوب. مَن قال إني حزينة، قالت. لستُ حزينة. وحسِبتُها ستبكي. هل أبصرتْهما فيّ، الرعب والخزي، هل أبصرتهما منذ البداية؟ فقد تَعَمّدَتِ البحث عني، كنتُ أعرف ذلك. مددتُ يدي وراءَها وفتحتُ بابًا فخطونا فجأة على أرضية خشبية فارغة في غرفةٍ فضاءَ. ثمة رائحة، جافة وقريبة إلى البصل، هي رائحة غرفة عُلّيَّة معينة في كولغرينج. انطبع على أحد الجدران متوازي أضلاع من ضوء القمر وكأنه مرآة مكسورة. لا زلتُ أحمل هذه الصحون الملعونة. وضعتُها على الأرض عند أقدامنا، وبينما أنا منحنٍ لا أزال لمستْ كتفي وقالتْ شيئًا لم أفسّره. ضحكتْ بخفة مندهشة كما بدا، وكأنها لم تتوقّع نبرة صوتها. لا شيء، قالت.

لا شيء. ترتعش في حضني. كانت عبارة عن أسنان وأنفاس وأصابع متشبّثة. أمسكتُ رأسي بكلتا يديها وكأنها ستسحقُه. كانتْ خلعتْ حذاءها ركلًا، وقد جلجل حيث سقط. رفعتْ قدمًا وراءها وضغطت بها الباب، وظلتْ تضغطه. كان فخذاها باردين. بكت، وسقطتْ دُموعها على يدي. عضضتُ حلقها. كنا مثل... لا أعرف. كنا مثل رسولين التقينا في مكان مظلم لنتبادل أخبارًا بشعة. يا الله، قالت، يا الله. وضعت جبينها على كتفي. كانت أيدينا ملطخة بكلينا. عادت الغرفة وضوء القمر والرائحة القريبة إلى البصل. لا فكرة سوى وجهها الأبيض، شعرها. سامحيني، قلت. لا أعرف لمَ ضحكتُ. على أي حال لم تكن ضحكة بالمعنى المفهوم.

يا لِسَكينة الأيام الآن، هنا في نهاية العام. جالسًا في الحِصن الذي تنطوي عليه هذه الغرفة الرَصاصِيّة أحيانًا ما أتخيل أني وحيد تمامًا، أنّ لا أحد حولي لأميال وأميال. يكون الأمر أشبه بالوجود في المخزن العميق لسفينة رمادية ضخمة. الهواء ثقيل وساكن، يضغط داخل أذني وعلى عيني وجِذر جمجمتي. لقد حُدّد موعد للمحاكمة أخيرًا. أعرف أن هذا ينبغي أن يحشد قواي الذهنية، يمنحني هِمّة وما إلى ذلك، يجعلني متحمسًا أو خائفًا. ولكنه لا يفعل. لقد حدث شيء ما لإحساسي بالوقت. صرتُ أفكر بِلُغَة الدهور. لن تُسجِّل لديّ أيام وأسابيع دراما المحكمة التافهة هذه إلا وخزة إبرة. لقد أصبحتُ من أرباب مدى الحياة.

مرة أخرى اليوم أثار ميلشاخلين أمر الإقرار بالذنب. تركتُه يهذي فترةً، ثم ضِقتُ به وقلت له إني سأستغني عن خدماته ما لم يكف

عن المداراة ويُخبرني بما يجول بخاطره أيًا كان. كنتُ أدّعي السذاجة في هذا الأمر، فمنذ زيارته الأخيرة وقد عرفت طبعًا أنه يلمّح إلى احتمال تسوية. أنا أفهم من الأحاديث التي مررتُ بها هنا أنه بالكاد يَصدُر حُكمٌ لم يتمّ تسويته مُسْبَقًا مع الدفاع. عندي فضول لأعرف ماذا ستُريد مني المحكمة. الآن وأنا أراقب ماك العجوز المسكين يتلوى ويعرق بدا لي أني فهمتُ. إنه تشارلي طبعًا، يريدون إنقاذ شيء من سُمعة تشارلي. (كيف تخيلتُ أن تشارلي يَفرُق معهم مقدار حَبّة تين، أو سمعته؟) سأفعل كل ما أستطيع من أجله، هذا مفروغ منه، وإن بدا لي أن الأوان قد فات الآن. طيب يا ماك – قلتُ، رافعًا إحدى يدي – سأقِرّ بالذنب، وماذا بعد؟ حدجني بإحدى نظراته التي تأتي من فوق النظارة. قال: تكون القضية محسومة، أليس كذلك؟ كان القصد من هذه الكلمات كما فهمتُ بعد لحظة أن تكون نكتة. افترّ ماك بأسى. إن ما يقصده أن القضية ما إن تُفتح حتى أُنكر التهم الموجهة إليّ وأقر بالذنب في تهمة القتل الخطأ أو شيء من هذا القبيل، فيُصدر القاضي الحُكم وقد بَتَر منه قطعة جَزَاءَ تعاوني ثم – في لَمْح البصر – ينتهي كل شيء، تُرفع الجَلسَة وتُغلَق القضية. قال إنه لا يستطيع أن يضمن شيئًا لكنّ واجبه تجاه عَمِيله أن يحاول الحصول على أفضل فصل في الدعوى يُتيحه القانون. إنه آسرٌ حقًا حين يتكلم بغطرسة مثل هذه. وما الفائدة، قلتُ. ما الحيلة؟ هز كتفيه. الحيلة أنه لن يتم الاستماع لأي أدلّة. بهذه البساطة. للحظة صمتنا. قلتُ: وهل سيكون ذلك فعّالًا؟ هل سينقذه؟ فقطّب في حيرة، ورأيتُ على الفور أني كنت مخطئًا، أن تشارلي وإحراجَه ليسا موضوعَنا هنا. ضحكتُ. لقد قلتُها من قبل. أحيانًا ما أظن أني فعلًا لا دواء لبراءتي. نَظَرَ ميلشاخلين وراء ظهره – فعل ذلك، فعلًا فَعَلَه – ثم مال

على الطاولة متواطئًا. لا أحد مشغولًا بتشارلي فرينش، قال. لا أحد مشغولًا به البتة.

حضرة القاضي أنا لا يروق لي ذلك، لا يروق لي على الإطلاق. سأقر بالذنب طبعًا – ألم أفعل منذ البداية؟ – لكن لا يروق لي أنه لن يُسمح لي بتوفير الأدلة. لا، هذا لا يروق لي. ليس منصِفًا. فحتى كلبٌ مثلي ينبغي أن يُعطَى فرصته. وطالما رأيتُني في مَنَصّة الشاهد، أتطلّع أمامي في خطٍّ مستقيم وأنا هادئ تمامًا في ثياب غير رسمية كما تسميها الجرائد. ثم ذلك الصوت الحازم يحكي الأشياء من وجهة نظري، بطريقتي. الآن سأُحرم لحظة الدراما التي من نصيبي، آخِر لحظة دراما سأعرفها في هذه الحياة بالتأكيد. ليس هذا صوابًا.

انظر، الحقيقة أني بالكاد أتذكر ذلك المساء عند تشارلي فرينش. أقصد أني أتذكر المساء ولكن ليس الناس، ليس بأي وضوح. أرى الأضواء على سطح الماء في الخارج وآخرَ مسحة غروب وكتلةَ الغيوم القاتمة بجلاء أكبر كثيرًا من الوجوه العفية لأولئك الصبيان الكبار. وحتى "ماكس مولينو" ليس أكثر كثيرًا في ذاكرتي من بدلة غالية وضَرْبٍ من الوحشية الأنيقة. ماذا يعنيني فيه وفي شاكِلَتِه بحق الله؟ دَعْهم يحتفظوا بسمعتهم الجيدة، فالأمر لا يَفرُق معي بالخير أو الشر. أنا لستُ معنيًا بتأجيج الفضائح. مرّ الحدث أمامي في غشاوة زجاجية، مثل الكثير من الأشياء في تلك الأيام العشرة. وحتى ثعلبة المسكينة، في حالتي المسعورة، لم تكن في نظري حقيقية أكثر كثيرًا من قطعة ديكور في عملية احتلام ليلي. لا، انتظر، أنا أسحب هذه العبارة. فمهما نعبوا بالضحك البذيء، علي أن أُعلن أني أتذكرها بوضوح، بحنان وتعاطف. إنها – وعلى الأرجح ستبقى – آخِر امرأة مارستُ معها الحب. الحب؟ هل

يمكنني أن أسميه حبًا؟ وماذا أسميه غير ذلك. لقد وثِقَت فيّ. شمّت الدماء والرعب ولم تنكص ولكنْ فتّحتْ نفسها مثل زهرة وسمحتْ لي أن أستريح عندها برهة وقلبي يرجف ونحن نتبادل سرّنا دون كلام. نعم أتذكرها. كنت أتهاوى وهي التقفتني، "غريتشين"[68] التي لي.

الحقيقة أن اسمها "ماريان". لكن لا أهمية لذلك.

لقد مكثوا إلى ساعة متأخرة جدًا، كلهم إلا السيدة ماكس. فقد غادرَت فور انتهاء العشاء؟ شاهدتُها وهي ذاهبة في السيارة، تجلس منتصبة جدًا في المقعد الخلفي لإحدى الليموزينات، "نفرتيتي" مُحطّمة. صعد ماكس وخلّانُه إلى الطابق الأعلى من جديد، وعربدوا حتى طَلَعَ الفجر. أنا أمضيتُ الليلة في المطبخ ألعب الورق مع مادج. أين كانت ماريان؟ لا أعرف. لقد ثمِلتُ تمامًا كعادتي. على أي حال كانت لحظتنا مرّت، وفي حال تلاقينا الآن سنكون محرجَين لا أكثر. ومع ذلك أظنني ذهبتُ أبحث عنها، فأنا أتذكر نفسي أتخبّط في أنحاء الطابق الأعلى، في غرف النوم، وأقع مرة بعد مرة في الظلام. أتذكر أيضًا الوقوف أمام شباك مفتوح على مصراعيه عاليًا جدًا أستمع إلى نَغَمٍ موسيقي في الخارج يحمِله الهواء، رنينٍ ودويٍّ غامضين بدا أنهما يتحركان، يضعُفان، وكأن موكبًا صاخبًا يغادر وسْط الليل. أظنه كان يأتي من مَرقَص ما، أو ملهى ليليٍّ على الميناء. ومع ذلك فأنا أعتبره صوت الإله – مع حاشيته – يهجرني.

في اليوم التالي تبدّل الطقس. في منتصف الصباح، حين استيقظ خُماري وأنا، كانت الشمس ساطعة بنفس بهجتها وقسوتها طوال الأسبوع الماضي، وكانت البيوت على الساحل تومض في سديم أزرق شاحب وكأن السماء مفتّتة في هندسة هوائية هناك. وقفت عند الشباك في ملابسي الداخلية، أحك جلدي وأتثاءب. ولفت انتباهي أني كدتُ أتعوّد طريقة الحياة هذه. كان الأمر كما لو كنتُ أتأقلم على مرض في أعقاب مرحلة المخاوف والحمى الأولى. كان جرس كنيسة يدق. يوم الأحد. خرج المتنزهون بالفعل مع كلابهم وأطفالهم. على الجانب الآخر من الشارع، عند حائط الميناء، وقف رجل في معطف مطر ويداه مشبّكتان وراء ظهره يتطلّع إلى البحر. سمعتُ أصواتًا في الطابق الأسفل. كانت مادج في المطبخ تغسل صحون ليلة أمس. نظرتْ إليّ بطريقة غريبة. كنتُ ألبَس روب تشارلي. كيف حدث – هكذا أتساءل – أني لم أنتبه لها ساعتها، تلك النبرة المتشككة الجديدة في صوتها، والتي كان ينبغي أن تنبّهني على الفور؟ كان معها مُساعِدة هذا الصباح، بنتُ أخيها، فتاة تبدو بلهاء في الثانية عشرة أو نحو ذلك لها... لها ماذا، ماذا يهم ما لها أو ما كانت عليه! كل هؤلاء الشهود الفرعيّين، لن يُطلبَ أحد منهم أبدًا الآن. قعدتُ إلى المائدة أشرب شايًا وأشاهدهما تعملان. الطفلة كما رأيت كانت خائفة مني. "هَمُّ النَمُّ ناكل مَمُّ". كانت ذراعا مادج غاطستين في الرغوة وهي تقول: لقد خرج كما تعلم، السيد فرينش. كان في طريقه إلى الخارج وأنا داخلة. وكان في صوتها نبرة اتهام لا تفسير لها، وكأن تشارلي هرب من البيت بسببي. لكنّ الحقيقة أن هذا ما حدث.

في الأصيل تنامتْ غيمة هائلة على خط الأفق، رمادية ومحببة

مثل الطمي المترسّب، وفار البحر أزرق يميل إلى سواد مبقّع بالبياض. شاهدتُ ستارة متماوجة من المطر تتدافع برفق من الشرق. زَرَّرَ الرجل الواقف عند حائط الميناء معطفه. كانت جموع صباح الأحد راحت منذ زمن لكنه ظل هناك.

غريب إحساسي حين جاءت اللحظة بعد طول انتظار. كنت توقعتُ الرعب والرهبة، عرقًا باردًا ورعشة، لكن لم يحدث شيء من ذلك. ما حدث أنّ حالة من الغِبطَة الهائجة تملّكتني. ذرعتُ أنحاء البيت مثل القبطان السكران لباخرة تتقاذفها العواصف. كل صنوف الأفكار المجنونة جاءت إلى ذهني. سأُمترس الأبواب والشبابيك. سآخذ مادج وبنت أخيها رهينتين وأقايض بهما على مروحية تقلني إلى حرّيتي. سأنتظر حتى يعود تشارلي وأستعمله كدرع بشري فأقوده إلى الخارج من أمامي بسكين على رقبته. فعلًا نزلتُ إلى المطبخ لأجد نصلًا لهذا الغرض. كانت مادج انتهت من غسيل الصحون وجلست إلى المائدة ببراد شاي وطبعة الأحد من جريدة "تابلويد"[69]. راقبتْني بتوجس وأنا أفتّش في درج الشُوك والملاعق. سألتْني إن كنت سأتغدّى مباشرة أم سأنتظر السيد فرينش. ضحكتُ بجنون. أتغدّى! ضحكتْ بنت الأخ هي الأخرى بصرخة ببغاء وقد التوت شفتها العليا إلى أعلى لتكشف عن نصف بوصة من اللثة اللامعة المائلة إلى البياض. حين طالعتُها أغلقت فمها بغتة. كانت كأنها ستارة تنسدل. يا "جاسينثا" – هكذا قالت لها مادج بخشونة – عودي إلى البيت. صحتُ: ابقي مكانكِ. فنكصت كلتاهما، وارتعشتْ ذقن جاسينثا وامتلأت عيناها بالدموع. تخلّيتُ عن البحث عن سكين، واندفعتُ صاعدًا إلى الدور الأعلى. لم يكن صاحب المعطف

الماكينتوش هناك. تنفستُ الصُعَداء زافرًا بشدة وكأني كنت أحبس أنفاسي طوال هذا الوقت، وهبطتُ متكئًا على إطار الشباك. انهمر المطر قطراتٍ كبيرةً ترقُص على الطريق وتجعل سطح المياه في الميناء يغلي. سمعتُ الباب الأمامي ينفتح ويُصفق مغلقًا، وظهرتْ مادج والفتاة أمامي تهرُبان بامتداد الشارع وقد لفّتا رأسيهما بمعطفيهما. ضحكتُ لرؤيتهما تغادران، الطفلة تثب من فوق البرك ومادج تخوض في إثرها. ثم لمحتُ السيارة مصفوفة على مسافة قصيرة على الجانب الآخر من الشارع وقد جلس في المقدمة شخصان جسيمان قاتمان لا يتحركان غبّشت وجهيهما سيول المياه على الزجاج الأمامي.

جلستُ في كرسي في الصالون أُحدّق أمامي ويداي تقبضان على المسندين وقدماي موضوعتان بعناية جنبًا إلى جنب على الأرضية. لا أعرف كم أمضيتُ من الوقت وأنا على هذا الوضع، في ذلك الفضاء الرماديّ الوامض. عندي انطباع أنّ ساعات مرّتْ، لكنّ هذا لا يمكن أن يكون. ثمة رائحة سجائر وشرابٍ بائت عالقةٌ من ليلة أمس. أصدر المطر صوتًا مسكّنًا. سقطتُ في غَشية ما، نومةِ يَقْظَةٍ. ورأيتُني صبيًا أتمشى عبر تل مُشَجَّر قُربَ كولغرينج. كان ذلك في مارس على ما أظن، أحد تلك الأيام الهولندية التي تكثُر رياحها بسماء ذات زرقة صينية وغيوم متشقلِبة كالرماد. كانت الأشجار من فوقي تتمايل وتئن في الريح. فجأة جاء صوت ضاجّ متعجل وأظلم الهواء، وارتطم شيء من حولي مثل جناح طائر شاسع يضرب ويجلد. كان غُصنًا قد سقط. لم أُصَب، لكني لم أستطع أن أتحرّك فوقفتُ وكأني صُعقتُ مشدوهًا ومرتعِشًا. بهتني قوة وسرعة الشيء. لم أشعر بالخوف ولكن بحسّ صدمة عميق من ضآلة أهميتي وحضوري. كان يمكن ألا أكون أكثر من عصفة هواء.

الأرض، الغُصن، الريح، السماء، العالم... كل هذه إحداثيّات دقيقة وضرورية للواقِعة. وأنا وحدي الموجود في المكان الخطأ، أنا وحدي دون دور ألعبه. ولا شيء يهتمّ. لو كنتُ قُتلتُ لسقطتُ هناك ووجهي في ورق الشجر الميّت بينما اليوم يتواصل كما كان من قبل وكأنّ شيئًا لم يحدث. فإن ما كان ليحدث هو لا شيء، أو لا شيء استثنائيًا على أي حال. كانت لتقام تعديلات. كانت الأشياء ستُضطر للتلوي حتى تخرج من تحتي. ولعلّ نملة شاردة تستكشف القاعة المُدماة التي هي أذني. لكن الضوء كان ليبقى كما هو، والريح كانت لتعصف كما عصفت، وسهمُ الزمن ما كان ليتردّد لحظة في طيرانه. ذُهلتُ. لم أنس تلك اللحظة. والآن ثمة غصن آخر على وشك السقوط. كنت أسمع نفْس الصوت المسرِع من فوقي، وأشعر بنفس الجناح القاتم يهبط علي.

رن الهاتف بصوت كالزجاج المتكسّر. كان هناك لغطٌ وشوشةٌ على الخط. بدا أن شخصًا ما يسأل عن تشارلي. صرختُ لا، لا، هو ليس هنا! وبعنفٍ وضعتُ السماعة. في نفس اللحظة تقريبًا عاد الشيء يجلجل من جديد. انتظر، انتظر، لا تَقفل السكّة، هكذا قال الصوت. تشارلي هو الذي معك. ضحكتُ طبعًا. أنا في الشارع – قال – على مقربة منك، على مقربة منك تمامًا. كنت لا أزال أضحك. ثم ساد صمت. قال: الشرطة هنا يا فريدي، يريدون أن يتكلموا معك. حصل سوء تفاهم ما. أغمضتُ عيني. أدركتُ أن جزء مني كان يتعلق بأمل يائس لا يقوى على تصديق أن المباراة انتهت بالفعل. وبدا أن همهمة الأسلاك هي نفسُها صوت قَلَق وحَرَج تشارلي. تشارلي، قلتُ. تشارلي، يا تشارلي، لماذا تختبئ في كشك هاتف، ماذا ظننتني سأفعل بك؟ وقفلتُ السكة قبل أن يجيب.

كنت جائعًا. نزلتُ إلى المطبخ وصنعت قرص "أومليت" ضخمًا، والتهمتُ نصف رغيف خبز وشربتُ باينتًا[70] من الحليب. جلستُ محنيًا على المائدة وكوعاي مزروعان على جانبي الصحن ورأسي متدلٍ أحشر الطعام في فمي دون اكتراث حيوانيّ. صَنَع الضوء المُمطر نوعًا من الغسق في الغرفة. سمعتُ تشارلي حالَما دخل البيت، لم يُجِد شَق طريقه وسط أثاث العالم أبدًا. أدخل رأسه من باب المطبخ وحاول أن يبتسم دون نجاح كبير. أشرتُ إلى المقعد المقابل فقعد بحذر. كنتُ جائعًا بشكل مُفترِس. لم يكفِني أي قدر من الطعام. قلتُ: تشارلز، تبدو في حال سيئة جدًا. كان يبدو كذلك فعلًا، رماديًا ومضمحِلًا وتحت عينيه كيسان زرقاوان داكنان. كانت ياقته مُزرَّرة رغم أنه لا يرتدي ربطة عنق. مرّر يده على فكه فسمعتُ ذقنه النابتة تئز. قال إنه استيقظ مبكرًا. أيقظوه وطلبوا منه أن يذهب إلى المركز. للحظة لم أفهم، ظننته يقصد المركز الإداري. أبقى عينيه على صحني، على هريس البطاطس فيه. كان شيء ما حدث للصمت المحيط بنا. أدركتُ أن المطر توقف. يا الله يا فريدي – قال بصوت ضعيف – ماذا فعلتَ؟ بدا مذهولًا أكثر منه مصدومًا. جلبتُ زجاجة حليب أخرى نصف ملآنة من عمق الثلاجة. قلت: هل تذكر يا تشارلي تلك النزهات التي كنتَ تصطحبُني فيها إلى مطعم جاميت و"باراديسو"[71]؟ هز كتفيه. لم يكن واضحا إن كان يستمع إليّ. كان الحليب قد رابَ. شربتُه على أي حال. قلتُ: كنت أستمتع بها، تلك المناسبات، حتى لو لم أُظهر ذلك دومًا. قطّبتُ. ثمة شيء خطأ هنا، شيء متخثّر مثل الحليب. الإفك دائمًا ما يجعل صوتي خاملًا بطريقة غريبة، دَويًّا مسطحًا في خلفية الحلق. ولماذا أبعث الحياة الآن في كَذْبَة أثرية لا أهمية لها؟ هل كنت فقط أتدرّب، أعد

نفسي للبطولة الكبيرة الآتية؟ لا، هذا أعقد من اللازم. كنت أحاول أن أعتذر، أقصد بشكل عمومي، وكيف لي أن أفعل دون أن أكذب؟ بدا عجوزًا جدًا وهو جالس هناك هابطٌ إلى أسفل ورأسه يتدلّى على عنقه الهزيل وفمه ساقط بالكامل على أحد جانبين وعيناه العمشاوين مثبتتان بضبابية أمامه. ملعون أبو ذلك يا تشارلي – قلتُ – أنا آسف.

هل كانت صدفة أن يتحرّك الشرطي في هذه اللحظة بالذات، أم أنه كان يتصنت على الباب من الخارج؟ لاحظتُ أن حامل السلاح في الأفلام دائمًا ما ينتظر في الممر وظهره ملتصق بالحائط وبياض عينيه يبرق حتى ينتهي الموجودون في الداخل من كلامهم. كان هذا الشخص فيما أظن من تلاميذ السينما النجباء. كان له وجه طويل نحيف وشعر أسود متهدّل وهو يلبَس معطفًا عسكريًا مبطّنًا من نوع ما. كان المسدّس الرشّاش الذي يُمسكه – وهو من طراز مربع دون حَزّ واضح ولا يزيد طول ماسورته عن بوصة – يبدو مثل لُعبة بدرجة لافتة. بين ثلاثتنا بدا هو الأكثر اندهاشًا. رغمًا عني أُعجِبتُ بالطريقة الرشيقة التي ركل بها الباب الخلفي. ظل الباب يهتز على مَفصِله، والمقبض المكسور متدلٍ كلسان كلب صيد. وقف تشارلي. مهلًا يا حضرة الضابط، قال. تقدم الضابط عبر الباب يحدّق فيّ. أنت مقبوض عليك، قال. يا ويلي، كم أنت مقبوض عليك. من خلفه، في الحديقة، طَلَعَتِ الشمس فجأة. فالتمع كلُّ شيءٍ بَلِيلًا، وومض.

دخل إذاك رجال شرطة إضافيون عن طريق الباب الأمامي، بدا أن هناك جَمعًا كبيرًا منهم مع أنهم لم يزيدوا على أربعة. كان أحدهم ذلك الأخ الذي رأيتُه واقفًا عند حائط الميناء هذا الصباح. تعرّفتُ على معطف المطر الذي يلبسه. كلهم يحملون أسلحة نارية بأحجام وأشكال

متنوعة. أبهرني المشهد. اصطفوا حول الجدران يطالعونني بنوع من الفضول المُلجِم. كان الباب المؤدّي إلى الصالة مفتوحًا. تحرك تشارلي في هذا الاتجاه فقال أحد الشرطيين بصوت بارد: مهلًا. ساد الصمت باستثناء الثرثرة المعدنية الخافتة للاسلكي الشرطة في الخارج. كنا كمن ينتظر دخول سلطان. والشخص الذي دخل أخيرًا سبّب لي استغرابًا كبيرًا. كان رجلًا هزيلًا كالصبي في نحو الثلاثين من عمره، بشعر رملي وعينين زرقاوين شفافتين. انتبهتُ على الفور إلى يديه وقدميه التي كانت كلها صغيرة، تكاد تكون رقيقة. اقترب مني بزاوية بطريقة ما، ناظرًا إلى الأرض بابتسامة صغيرة عجيبة. وقال إن اسمه "هازليت"، مفتش المباحث هازيت. (أهلًا يا "جيري"، أتمنى ألا يزعجك ذكري ليديك الرقيقتين، فالحقيقة كما تعرف أنهما كذلك فعلًا.) غرابة أدائه كما أدركتُ – تلك الابتسامة، النظرة المائلة – كانت نتيجة الخَجَل. شرطيّ خجول! لم يكن هذا ما توقعته. تطلّع حوله. كانت هناك لحظة حرج وكأن أحدًا لا يعرف بالضبط ما يفعله بعد ذلك. طيّبٌ – قال، لا لأحد بالتحديد – هل نحن بخير؟ إذاك نشط كل شيء فجأة. تقدّم صاحب المسدس الرشاش – لنسمّه "الرقيب هوغ" – وواضعًا سلاحه على الطاولة صَفَق زوجًا من الكلبشات على رُسغيّ. (بالمناسبة، هي ليست غير مريحة بقدر ما قد تبدو. في الحقيقة وجدتُ في تكبيل يديّ شيئًا مطمئنًا، وكأنّ هذه حالة أكثر طبيعيّة من الحرية دون أغلال.) قطّب تشارلي قائلًا: هل هذا ضروري يا حضرة المفتش؟ كانت عبارة من الجلال والعَتَاق، وقد أُلقيتْ بنبرة من الإبهار – بالدرجة المطلوبة بالضبط من الخُيلاء الوقورة – بحيث ظننتُ لوهلة أن دفعة صغيرة من تصفيق الاستحسان ستتبعها. نظرتُ إليه بإعجاب متجدّد. كان ألقى عنه حالة

الإعاقة التي كان عليها منذ دقيقة أو اثنتين وبدا حقيقة باهرًا هناك في بدلته الداكنة، وشعرُه عبارةٌ عن جناحين فضيين. وحتى ذقنه غير الحليقة وياقته منزوعة ربطة العنق ساعدا في إعطائه منظر رجل الدولة الذي أُوقِظَ من سريره ليتعامل مع أزمة خطيرة في أحوال الأمة. صدقني أنا مخلِص في قولي إني معجب بخبرته في فنون الاحتيال. أن تضع كل ثقتك في القناع، يبدو لي ذلك الآن هو الميزة الحقيقية للإنسانية الراقية. لا يهم. التقطتُ عينه لأشهِدَه على تقديري وأسأله... آهٍ، أسأله نوعًا ما من العذر كما أظن. فيما بعدُ قلقتُ من أن تكون نظرتي بدت له أدلّ على الاحتقار منها على الاعتذار، فأظنّ أن ضحكة مكتومة كانت على وجهي طوال كوميديا المطبخ الشائهة. كان فمه في وضع كئيب، وثمّة عَصَب ينتفض في فكه – كان له كل الحق في أن يستشيط غضبًا – لكنْ في عينيه لم أر إلا نوعًا من الحزن الحالم. ثم نخسني هوغ في ظهري، ومُشّيتُ بسرعة عبر الصالة وإلى الخارج حيث ضوء الأصيل الباهر.

مرت لحظة ارتباك ورجال الشرطة يتلكأون على الرصيف، مُمَيّلين أعناقهم القصيرة الغليظة لينظروا بحدة هنا وهناك حول الميناء. ماذا كانوا يتوقعون، فريق إنقاذ؟ لاحظتُ أنهم جميعًا يرتدون أحذية جري باستثناء هازليت، ابن الريف البار، ففي قدمه "بروغ" بني متين. اصطدم به أحد رجاله. قلتُ بنبرة بهجة: حين يزيد عدد رجال الشرطة عن الضروري يَفسُد الضبط والإحضار. لم يضحك أحد، وتظاهر هازليت بأنه لم يسمع. كان رأيي طبعًا أنها عبارة في منتهى خِفّة الظل. كنت لا أزال في مزاج النشوة المجنونة ذاك. لا تفسير له عندي. وبدا أني لا أمشي بل أقفز إلى الأمام أفيض بقوة نَمِرٍ. كان كل شيء يبرق في هواء البحر المشطوف. لضوء الشمس تأثير وامض كالهلوسة، وشعرتُ أني

بشكل ما أبصر جوهر العملية، ألمح "الفوتونات"[72] نفسَها وهي طائرة. عبرنا الطريق. كانت السيارة التي رأيتها من شباك الطابق العلوي لا تزال هناك، وزجاجها الأمامي مُرقّط بقطرات المطر. الشخصان الجالسان في الأمام يراقباننا بفضول حذر ونحن نمر. ضحكتُ. ليسا شرطةً بل هما رجل جسيم ومدامه الجسيمة وقد خرجا في نزهة يوم أحد. حَمْلَقَتِ المرأة وهي تمضُغ قطعة حلوى ببطء في الكلبشات فرفعتُ رغسي إليها في تحية ودودة. نغزني هوغ مرة ثانية بين لوحي كتفي فكدتُ أفقد توازني. واضح أني سأعاني معه.

ثمة سيارتان دون علامة ولا شيء مميِّز، إحداهما زرقاء والأخرى سوداء. كوميديا أبواب السيارات تنفتح مثل أجنحة الخنافس. وُضعتُ في المقعد الخلفي. الرقيب هوغ على أحد جانبي وعلى الجانب الآخر ملاكم بوجه رضيع وشعر أحمر. مال هازليت على الباب. هل أعلمتموه بحقوقه؟ سأل بهدوء. ساد صمت. سكن المخبران الجالسان في المقعد الأمامي بدرجة شديدة، وكأنهما خائفان من أن يغلِبهما الضحك. ظل هوغ يحدّق بكآبة أمامه، وفمه خط رفيع إلى أن تنهّد هازليت وانصرف. أدار السائق المحرك بحذر. من حقك أن تظل صامتًا إلخ إلخ إلخ، هكذا قال هوغ بنبرة حاقدة، دون أن ينظر إلي. شكرًا يا حضرة الرقيب، قلت. واعتبرتُ ذلك مثالًا رائعًا آخرَ على سرعة البديهة. انطلقنا من جنب الرصيف بصوت حاد، تاركين وراءنا في الهواء عصفة من دخان الإطارات. تساءلتُ إن كان تشارلي يراقب من الشباك. لم أنظر خلفي.

أتوقّف لأسجّل أن هيلموت بيرينز قد مات. القلب. يا ويلي. هذا الكتاب يتحوّل إلى كتاب الموتى.

بأي وضوح أتذكر هذه الرحلة! لم أكن ركبتُ سيارة تتحرك بهذه السرعة طوال عمري. لقد طرنا طيرانًا، نمرق من وسط المرور الخامل نُزمجر عبر الحارات الداخلية وننحرف على عجلتين. كان الجو حارًا جدًا والشبابيكُ مغلقة، وكانت هناك رائحةٌ حيوانية كريهة أشبه بالمِسك. المُناخ مدجّج وأنا مسحور، تملأني الرهبة والشماتة بينما أتدافع إلى الأمام هكذا وقد حُشرتُ مع أولئك الرجال الصامتين الجسام المتفصدين عرقًا يجلسون محدّقين إلى الطريق من أمامهم وأذرعهم مربّعة بإحكام، قابضين حماسهم وغضبهم المكتوم إلى صدورهم. كنتُ أستشعرهم يتنفسون. السرعة تسكّنهم، فالسرعة عُنفٌ. لَمَعَتِ الشمس في عيوننا وهجًا كثيفًا هائلًا. وكنتُ أعرف أنهم جاهزون، عند أقلّ استفزاز، لشحذ همتهم عليّ وضربي حتى الموت أو قبله بقليل. كانوا فقط في انتظار فرصة. لكنْ حتى هذه المعرفة منعشة. لم أكن عمري مركز الاهتمام بطريقة مكتملة إلى هذا الحد. من الآن فصاعدًا سأُراقب، أُراعي وأُطعَم ويُستمع إلي مثل رضيع ضخم وخطِر. لا فرار بعد اليوم. لن أُضطر لأن أختبئ وأنتظر، أو أتخذ قرارات. لقد استكنتُ بين معتقليّ مستمتعًا باحتكاك المعدن الساخن على معصميّ. ومع ذلك طوال هذا الوقت كان جزء آخر من عقلي يُسجّل نسخة أخرى من الحكاية، يفكر مثلًا في كل ما أنا بصدد فقدانه. نظرتُ إلى الشوارع، المباني، الناس وكأنما للمرة الأخيرة. أنا الذي بقيتُ ريفيًا في قلبي – نعم، نعم، هذه هي الحقيقة – ولم أعرف المدينة جَديًا أبدًا أو أهتم بها حتى وأنا أعيش فيها، صرتُ أعشقها الآن. أعشقها؟ ليستْ هذه من الكلمات التي أُكثر من استخدامها. ربما أقصد شيئًا آخر. إنه الفَقد، نعم، الفقد المُحْدِق لـ... لا أعرف لمَ. كنت سأقول لـ"الجماعة البشرية"، شيئًا وقورًا وراقيًا

مثل هذا، لكن متى في حياتي كنتُ جزءً من ذلك الحشد؟ ورغم ذلك بينما نتقدم في رحلتنا كان كهف عميق في قلبي يمتلئ بفجيعة التخلي والرحيل. أتذكر على وجه الخصوص بُقعة قرب النهر حيث تأخّرنا دقيقة بسبب إشارة مرور فاسدة. كان شارعًا من البيوت الصغيرة المحشورة بين مبانٍ رَصاصية دون ملامح، مُستودعات وأشياءَ من هذا النوع. رجل عجوز جالس على عتبة شباك، وطفل يلعب في المِزراب مع جرو قذر. كانت حبال من الغسيل الفاقع معلقة مثل حبل من الأعلام بعرض زقاق. كل شيء ساكن. بقي ضوء الإشارة أحمر. ثم، وكأن ذراعًا سرية ضُغطت في مكان ما، دبّت الحياة بطيئة وعلى استحياء في المشهد الصغير الصاخب. في البداية مر قِطار أخضر على جِسر معدنيّ أحمر. ثم انفتح بابان في بيتين في لحظة واحدة، وخرجت فتاتان في ثياب يوم الأحد الأنيقة إلى ضوء النهار. زقزق الطفل، بقبق الجرو. مرّتْ طائرة فوق رؤوسنا، وبعد لحظة مرق ظِلّها على أرض الشارع. وثب العجوز من على العتبة بخفة مدهشة. مرّت لحظة سكون، وكأنما من أجل التأثير الدرامي، ثم مع الانفجار المثير لصافرةٍ انزلقتْ أمام أنظارنا – فوق السطوح – العارضةُ البيضاء والمَدخنة السوداء لسفينة هائلة فخمة. كان كل شيء طريفًا، بريئًا ينُم عن حماس مثل رسمة على غلاف كتاب الجغرافيا الخاص بطفل، حتى أني أردتُ أن أضحك جهرًا مع أني لو كنت فعلتُ لخرج مني ما هو أقرب إلى النشيج فيما أظن. سبّ السائق إذاك، وكسر الإشارة الحمراء. وأنا أدرتُ رأسي بسرعة ورأيتُ المشهد كله يُدوّم إلى لا شيء، البنتين المبتهجتين والسفينة، الطفل والكلب، العجوز وذلك الجسر الأحمر... جميعهم يدوّمون باتجاه الماضي.

كان مركز الشرطة قَصْرًا على طراز مستوحى من معمار عصر

النهضة بواجهة حجرية رصاصية عالية متعددة الشبابيك وقنطرة تَقود إلى باحة صغيرة وكئيبة لابد وأنها كانت تَحتوي على مَشنقة. جُررتُ بفجاجة من السيارة وسُحبتُ عبر أبواب واطئة وممرّات مُعتِمة. كانت الأجواء الخاملة لساعة الأصيل يوم الأحد تخيّم على المكان، وثمة رائحة مَدْرَسَة داخلية. أعترف أني كنت توقعتُ أن يكون المبنى على قدم وساق لدى وصولي، أن يتزاحم موظفو السكرتارية والكَتَبَة ورجال الشرطة بحمّالاتهم في الأروقة ليطالعوني. لكنْ بالكاد هناك أحدٌ، والقليلون الذين مروا من أمامي بالكاد وجّهوا نظرهم إليّ. فشعرتُ بشيء من الإهانة رغمًا عني. توقّفنا في حُجرة كالحة بَغيضة، وكان علينا أن ننتظر بضع دقائق حتى وصل المفتش هازليت. يفضي إلى الباحة شباكان عاليان شديدا القذارة، كان زجاجهما السفلي مقوّىً بشَبَك معدني. ثمة مكتب مُنَدَّب، وعدد من المقاعد الخشبية. لم يقعد أحد. حرّكنا أقدامنا ونظرنا إلى السقف. تنحنح أحدنا. دخل عسكري مُسن بقميص مشمّر الأكمام. كان أصلع وله ابتسامة لطيفة تكاد تكون طفولية. لاحظتُ أنه يرتدي بوطًا أسود غليظًا مربوطًا بإحكام ومُلمَّعًا جيدًا. في الأيام التالية سأقيّم معتقليّ على أساس ما في أقدامهم. البروغ والبوط يمكن أن أثق بهما كما شعرتُ، أما أحذية الجري فتُنذر بالشر. وصلتْ سيارة المفتش هازليت إلى الباحة. ومن جديد وقفنا ننتظر قدومه. وقد دخل كما فعل من قبل، بنفس نصف الابتسامة الخجلى. وقفتُ أمام المكتب وهو يقرأ علي الاتهامات. كانت لحظة رسمية بطريقة غريبة. ذكّرتني بيوم عُرسي، واضطررتُ إلى كتم ابتسامة. كتب العسكري العجوز الأصلع لائحة الاتهام على آلة كاتبة أثرية منتصبة وسوداء وكأنه يَجهد في عزف لحن على بيانو وقد حشر طرف لسانه في زاوية فمه.حين

سأل المفتش هازليت إن كان لدي أقوال هززتُ رأسي. ما كنت لأعرف من أين أبدأ. إذاك انتهتِ المراسم. كان هناك هدوء عمومي، وباستثناء هوغ دلف المخبرون الآخرون خارجين. كان الأمر أشبه بنهاية قُدّاس. أخرج هوغ سجائر، وعرض العلبة المفترّة على هازليت والعسكري الجالس على الآلة الكاتبة وحتى، بعد تردّد وجيز، علي. شعرتُ بأني لا يمكن أن أرفض. حاولتُ ألا أسعل. قل لي يا هازليت – قلتُ – كيف وجدتَني؟ هز كتفيه. كان له مظهر تلميذ مدرسة حاز درجات عالية إلى درجة محرجة في امتحاناته. قال: فتاة كشك الجرائد. أنت لم تكن تقرأ إلا خبرًا واحدًا، كل يوم. قلت: صحيح، نعم، بالطبع. لكن إحساسي كان أن الحكاية غير مُقنِعة على الإطلاق. هل يتستّر على بينكي بيرينز أو حتى آنا؟ (لم يكن يفعل. لقد ظلّا صامتين حتى النهاية.) دَخّنَا لبعض الوقت، متآنسين. مال من الشباكين عمودا ضوءٍ توأمان. ثمة راديو ينعق في مكان ما. فجأة شعرتُ بضجر عميق.

اسمع – هكذا قال هوغ – أخبِرْنا لماذا فعلتَها؟

حدّقتُ فيه فزِعًا وحائرًا. كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم أسأل نفسي عنه، ليس بمثل هذه القوة البسيطة التي لا يمكن تجنُّبها. هل تعرف يا حضرة الرقيب – قلت – أن هذا سؤال جيد جدًا. لم يتغير تعبير وجهه – حقيقة بدا أنه لا يتحرك على الإطلاق – سوى أن قُصّته المتهدلة كانت ترتفع وتهبط. ولوهلة ظننتني أُصبتُ بنوبة ما، أن شيئًا في جوفي، كبدي أو كليتي، انفجر تلقائيًا. أكثر من أي شيء آخر شعرتُ بالذهول، هذا ورضا عجيب منافٍ للبديهة. سقطتُ على ركبتيّ في سديم ساخن. لم أقوَ على التنفس. جاء العسكري المُسن وأنهضني على قدمي – هل حقًا قال اسم الله عليك؟ أنا بالتأكيد أتخيل ذلك

– وقادني وأنا أتخبط عبر باب وخلال ممر فدفعني إلى مرحاض ضيق كريه الرائحة. ركعتُ فوق الفتحة وتقيأتُ كُتَلًا من البيض والبطاطس الزلجة وخيطًا من الحليب المتخثر. كان الوجع في أحشائي غيرَ عادي، لم أستطع أن أصدّقه أنا الذي كان يجب أن أكون على عِلم بمثل هذه الأمور. حين لم يعد هناك ما أقيئُه رقدتُ وذراعاي حول ركبتي. أي نعم – فكرتُ – هذا هو تمامًا، هذا ما توقعته، أن أتلوى على الأرض في كنيف وَسِخ وأحشائي على نار. دقّ العسكري على الباب وأراد أن يعرف إن كنتُ انتهيتُ. ساعدني حتى وقفتُ مجدّدًا ومشّاني ببطء عائدًا بي عبر الممر. دائمًا نفسُ الشيء، هكذا قال بنبرة ثرثارة. تخرج أشياء لا تذكر أنك أكلتَها.

كان هوغ يقف عند الشباك ويداه في جيبيه يتطلع إلى الباحة. رمقني من فوق كتفه. أحسن الآن؟ قال. هازليت جالس إلى المكتب وعلى وجهه تقطيبة نائية وهو يُطبّل بأصابعه على كتلة أوراق غير متسقة. أشار إلى الكرسي المجاور فقعدتُ بحذر. حين استدار جانبًا ليواجهني كانت ركبنا تكاد تتلامس. طالع زاوية بعيدة من السقف. طيب – قال – هل تريد أن تكلمني؟ نعم، أريد، فعلًا أريد. أريد أن أتكلم وأتكلم، أن أستأمِنَه، أن أُفرغ في جعبته كل أسراري الحزينة. لكن ماذا عساني أقول؟ أي أسرار؟ كان العسكري الأصلع على آلته الكاتبة من جديد. أصابعه العريضة على الأزرار وعيناه مثبتتان على شفتي بترقب نشِط. كان هوغ هو الآخر ينتظر واقفًا عند الشباك يُصلصِل بقطع معدنية في جيب بنطلونه. ما كنت لأهتم بما أقوله لهما، لا يعنيان لي أي شيء. المفتش قضية أخرى. ظل يذكرني بشخص لعلني كنت أعرفه في المدرسة، أحد هؤلاء الأبطال المتواضعين الذين لا يُجيدون

التعبير عن أسفهم مع أنهم متفوّقون ليس فقط في الرياضة ولكن في الرياضيات كذلك، ومع ذلك فهُم يُقلّلون من شأن المديح وقد أخجلهم نجاحهم وشعبيّتهم. لم أقوَ على الاعتراف له بأن لا شيء عندي أعترف به، بأنه لم يكن هناك خُطة تستحق هذا الاسم، بأني تصرفتُ تقريبًا دون تفكير منذ البداية. فاختلقتُ هُراءً عن انتوائي أن أجعل السرقة تبدو من أعمال الإرهابيين، وأشياءَ أخرى كثيرةً أستحي أن أكرّرها هنا. ثم جاءت الفتاة، هكذا قلت، المرأة – لوهلة لم أستطع أن أتذكر اسمها – ثم جاءت جوزي وأفسدتْ كل شيء بمحاولتها منعي أن آخذ اللوحة والهجوم علي وتهديدي بـ وبـ وبـ... نفدتْ من عندي الكلمات فجلستُ أنظر إليه بعَجز وأعصر يدي، كم كنت أريده أن يصدّقني. في تلك اللحظة بدا تصديقه لي مرغوبًا بقدر الغفران تقريبًا. ساد صمت. لا يزال يتفقد زاوية السقف. لعله لم يكن يستمع إلي مطلقًا. يا يسوع، هكذا قال هوغ بهدوء، دون تشديد على شيء بعينه. وتنحنح العسكري الجالس وراء المكتب. إذاك وقف هازليت ممتعضًا قليلًا وثانيًا إحدى ركبتيه، وتهادى إلى خارج الحجرة مغلِقًا الباب وراءه بخفة. كنت أسمعه يبتعد في الممر ماشيًا بنفس الخَطو المترفّق. كانت هناك أصوات ضعيفة، صوته وأصوات آخرين. وكان هوغ يرمقني من فوق كتفه باشمئزاز. قال: أنت مهرّج حقيقي، أليس كذلك؟ فكّرتُ في الرد عليه، لكنْ اخترتُ التعقّل بدلًا من ذلك. مر وقت. ضحك شخص ما في غرفة مجاورة. دار محرك دراجة نارية في الباحة. طالعتُ لافتة مصفرّة على الحائط موضوعها خَطَر السُعار. ابتسمتُ. الكلب المجنون مونتغومري قُبض عليه أخيرًا.

إذاك عاد المفتش هازليت، أمسك بالباب مفتوحًا وأدخل رجُلًا

جسيمًا بوجه أحمر يتفصد عرقًا في قميص مقلم وآخرَ أصغر سنًا يبدو خطيرًا من سلالة هوغ. تجمّعوا وطالعوني يميلون إلى الأمام بتركيز وهم يتنفسون وأيديهم على المكتب. أدليتُ بأقوالي من جديد، محاولًا أن أتذكّر التفاصيل حتى لا أناقض نفسي. لم تكن راجحة في المرة الأولى، لكنها بدت أقل رجاحة هذه المرة. حين انتهيت ساد صمت آخر. كنت بدأت أعتاد هذه الوقفات الاستجوابية وكما بدا لي بالغة التشكك. الرجل ذو الوجه الأحمر – وهو شخص ذو سلطة كبيرة كما استنتجتُ – بدا في غضب عارم يسيطر عليه بصعوبة شديدة. سيكون اسمه... "باركر". لوهلة نظر إلي بشدة. هيا يا فريدي، قال. لماذا قتلتَها؟ بادلتُه الحملقة. لم تعجبْني نبرته المتبسّطة المحتقِرة – فريدي حقًا! – لكني قررتُ أن أُفوّت الأمر. تعرّفتُ فيه على واحد من فصيلتي، أشخاص هذا العالم الجسام العصبيين الذين يتنفسون بثقل. وعلى أي حال بدأ كل هذا يُضجرني. قتلتُها لأني أستطيع – قلتُ – فماذا يمكن أن أقول أكثر؟ فزِعنا كلُّنا من ذلك، أنا وهم على حد سواء. الضابط الأصغر سنًا، "هيكي" – لا، "كيكام" – أصدر ما يشبه ضحكة. كان له صوت نحيف رفيع يكاد يكون موسيقيًا لا يتوافق بالذات مع مظهَره وأدائه المخيفين. قال: ما اسمه ذاك. إنه غريب الأطوار، أليس كذلك؟ نظرتُ إليه حائرًا. لم أكن أعرف عمَّ يتحدث. عذرًا؟ قلت. فرد بنفاد صبر: فرينش، هل هو لوطي؟ ضحكتُ. لم أستطع أن أمنع نفسي. ولم أكن أعرف ما إذا كانت أقرب إلى الكوميديا أم الجنون، فكرة تشارلي يتبختر إلى مشرب والي ويقرص مؤخرات الصبيان هناك. (يبدو أن المخلوق الخاص بوالي، ساني صاحب ألوان الزمرد، كان يروّج أكاذيب فاحشة عن ميول تشارلي المسكين. حقيقة يا له من عالم شرير هذا العالم.) لا، لا – قلت – إن له

امرأة موسمية. ليس سوى التوتر والدهشة ما جعلني أقولها. لم أقصد أن أقولَ لهم نكتة. لم يضحك أحد. كلهم واصلوا النظر إليّ فقط بينما الصمت يَشتد ويشتد مثل شيء يُغلَق بسُدادة. ثم وكأنما عند إشارة معينة استداروا على كعوبهم واحتشدوا خارجين وصُفق الباب وراءهم فتُركتُ بمفردي مع العسكري المسن الذي ابتسم لي ابتسامته اللطيفة وهز كتفيه. قلتُ له إني أشعر بالغثيان من جديد، فذهب وأحضر لي قَدَحًا من الشاي الحُلو إلى حد اللزوجة وقطعة خبز. ما هو السبب في أن الشاي، مجرد منظره، دائمًا ما يصيبني بتعاسة متشرد مهجور؟ وكم بدا كل شيء ضائعًا ووحيدًا، الحجرة المبتذلة والأصوات الخافتة لأناس يمارسون حياتهم وضوء الشمس في الباحة، نفس الضوء الغليظ الثابت الذي يَسطع عبر السنوات من أبعد نقطة في الطفولة. كل النشوة التي شعرتُ بها من قبل راحتِ الآن.

عاد هازليت، بمفرده هذه المرة، وقعد جنبي إلى المكتب كما كان من قبل. كان قد خلع سترته وربطة عنقه وشمّر كميه. كان شعره منكوشًا. وبدا أكثر صبيانية من أي وقت مضى. هو أيضًا كان معه قدح شاي، والقدح يبدو ضخمًا في تلك اليد الصغيرة البيضاء. جاءتني صورته وهو طفل في مستنقع ما وسط بقعة نائية من وسط البلاد يكوّم التربة مع أبيه. وهزة المياه في الفسائل، ورائحة الدخان والبطاطس وهي تُشوى، والمسافات المسطّحة بلون فراء أرنب بري... ثم السماء الهائلة الرأسية وقد تكوّمت فيها كتل نورانية من الغيوم.

الآن – قال – لنبدأ من جديد.

أمضينا ساعات. وكدت أكون سعيدًا وأنا جالس معه أفرغ له قصة حياتي بينما عمودا ضوء الشمس في الشباكين يستطيلان والنهار

يزول. كان صبورًا إلى ما لا نهاية. لم يبد أن في كلامي شيئًا لا يثير اهتمامه. كل تفصيلة مهما كانت دقيقة أو مُلغَزة كانت تفعل. لا، لم تكن هذه هي الحال. كانت كما لو أنه غير مهتم حقيقة أبدًا. فقد استقبل كل شيء، كل خيط وعقدة في قصتي، بنفس المظهر السلبي المتسامح ونفس الابتسامة المندهشة الواهنة. أخبرته بمعرفتي لآنا بيرينز وأبيها، بمناجم الماس التي يملكها وشركاته ومجموعة مقتنياته الفنية التي لا تُقدّر بمال. وراقبته بحرص وهو يحاول أن يحسُب أي قدر من ذلك جديدٌ عليه لكن دون جدوى. لم يكشف شيئًا. ومع ذلك فلابد أنه تكلّم معهما، أخذ أقوالهما وما إلى ذلك. وبالتأكيد أخبراه بأمري، لا يُعقَل أنهما ما زالا يحمياني. فرك خده وحدّق من جديد في زاوية السقف. قال: رجل عصامي، أليس كذلك، هذا البيرينز؟ ياه يا حضرة المفتش – قلت – ألسنا جميعًا عصاميين؟ فظهرتْ عليه إذاك نظرة غريبة، ونهض واقفًا. لاحظتُ من جديد تقطيبة الوجع الوجيزة تلك. ركبة فاسدة. لاعب كرة قدم. في أصيل أيام الأحد، والهواء الرمادي يكتم الصياح، الارتطام المسطح للأديم على الأديم. والآن ماذا، هكذا قلت. ماذا سيحدث الآن؟ لم أرِده أن يتركني بعدُ. ماذا سأفعل حين يأتي الظلام؟ قال إني يجب أن أُعطي العسكري اسم محاميّ حتى يُعلَم بأني هنا. أومأتُ. لم يكن لي محام طبعًا، لكني لم أشعر بأني يمكن أن أقول ذلك. كان كل شيء هادئًا وحميمًا، ولم أرد أن أُحدِث أي إحراج. على أي حال كنت عاقِدَ العزم على الدفاع عن نفسي، وقد رأيتني من قبلُ ألقي خطبًا عبقرية وجياشة من قفص الاتهام. قلت مقطّبًا في وجهه وقد نظرتُ إلى أعلى بجديّة: هل ثمة أي شيء آخر ينبغي أن أقوم به، هل ثمة أحد ينبغي أن أُعلمه؟ (ياه، كم كنت جيدًا وطائعًا، وأي تأثّر دافئ بطيبتي شعرتُ به وأنا

أنصاع لهذا الأخ الطيب بهذه الطريقة!) وجّه إلي تلك النظرة الغريبة من جديد. كان فيها ضيق ونفاد صبر ولكن أيضًا استمتاع بحس المفارقة وحتى لمحة تواطؤ. ما يمكن أن تفعله – قال – هو أن تضبط حكايتك، وتزيل منها الزينة والأجزاء المُزوّقة. ماذا تقصد، قلت. ماذا تقصد؟ كنت هلِعًا. لقد أصبح "بوب تشيري" فجأة خشنًا، للحظة كاد يصير "الأستاذ كيلتش".[73] قال: أنت تعرف جيدًا جدًا ماذا أقصد. ثم ذهب. عاد هوغ. وهو والعسكري المسن – أف، سمّه شيئًا ما بحق الله – هو و"كانينغام"، كانينغام العجوز رقيب المكتب أخذاني إلى أسفل إلى الزنزانات.

هل ما زالتْ يداي مكبلتين؟

لا أعرف لمَ أقول إنهما أخذاني إلى أسفل (بل أعرف طبعًا) فنحن مشينا مسافة قصيرة عبر الممر من جنب المرحاض وخلال بوابة حديديّة. أعترف أني شعرتُ بوخزة خوف، لكن سُرعان ما استُبدِل ذلك بالدهشة. كان كل شيء كما توقعتُه بالضبط. فثمة قضبان فعلًا، ثمة دلو فعلًا، وسرير حقير بفرش متكتل مقلم، وغرافيتي على الحائط المندّب. ثمة حتى سجين مخضرم بذقن نابتة يقف ومفاصل أصابعه البيضاء ظاهرة على باب زنزانته، رمقني باحتقار غاضب خالٍ من الكلام. أُعطيتُ قطعة صابون ومنشفة منمنمة وثلاث قطعٍ من ورق المرحاض اللامع. وفي المقابل سلّمتُ حزامي ورباط حذائي. رأيتُ على الفور أهمية هذا الطقس. منكمشًا هناك ولسانا حذائي ناتئان، أُمسك حز بنطلوني بيد وبالأخرى أمسك – أمام أعين الجميع – الإمدادات الأساسية لأكثر وظائف جسدي خصوصيةً، لم أعد آدميًا بالكامل. أُسارع بقول إن هذا بدا لي كما ينبغي أن يكون، بدا لي حقًا نوعًا من التصويب، اعترافًا رسميًا وخارجيًا لحقيقة طالما كانت حاصلة. لقد حقّقتُ حالتي المثالية

بالفعل. وحتى كانينغام العجوز، حتى الرقيب هوغ بدا أنهما تعرّفا على تلك الحالة، فقد أخذا يعاملانني الآن بفجاجة ومع نوع من الاعتبار الشرس الذاهل، وكأنهما ليسا من سَجّانيّ بقدر ما هما من القيّمين علي. كان يمكن أن أكون أسدًا أهَتْمَ عجوزًا ومريضًا. أدخل هوغ يديه في جيبيه وذهب وهو يصفّر. قعدتُ على جانب السرير. مر وقتٌ. كان الجو هادئًا جدًا. سأل النزيل القديم في الزنزانة المجاورة عن اسمي. لم أجبه فقال: طيب، ملعون أبوك إذن. جاء الغسق. أنا دائمًا ما أحببتُ هذه الساعة من اليوم، حين يتسرب ذلك الضوء الناعم الشّاشيّ إلى أعلى وكأنما من جوف الأرض نفسها، ويبدو أن كل شيء يستغرق في التفكير وينتحي جانبًا. كان الظلام شارَفَ على الحلول حين عاد الرقيب هوغ وناولني ورقة فولسكاب قذرة. كان انتهى لتوه من أكل البطاطس المحمرة، شممتُها في نَفَسه. ومتحيرًا رمقتُ الورقة المكتوبة على الآلة الكاتبة بطريقة سيئة. هذا هو اعترافك، هكذا قال هوغ. هل تود أن توقّعه؟ قهقه جاري المخضرم في السجون بطريقة كئيبة. عمَّ تتحدث؟ قلتُ. هذه ليست كلماتي. فهز كتفيه وتجشأ في قبضته. كما تشاء، قال. ستأخذ مدى الحياة على أي حال. ثم ذهب مجددًا. وأنا جلستُ أدرس الوثيقة الغريبة. اسمٌ على مسمى هذا الكانينغام[74]، فتحت قناع الأصلع الهرم كان فنان شيطاني يمارس عمله، فنان من نوع لا يمكن أن أكونه، مباشر ولكن حاذق، معلّم في الأسلوب الرشيق، في صنعة إخفاء الصنعة. عجِبتُ كيف حوّل كل شيء إلى ما يناسب غرضه مع أخطاء في الإملاء وغرض أخرق وأخطاء في الإملاء ونحو أخرق، حتى كتابة الآلة الكاتبة كانت بشعة. يا لِلتواضع والإيثار، يا لِكبت الأنا دون رحمة من أجل النَص. كان أخذ حكايتي، بكل ما فيها من – ماذا قال عنها هازليت؟

– بكل ما فيها من الزينة والأجزاء المُزوّقة، وشذّبها حتى لم يبقَ إلا النقاط الجوهرية السافرة. كان وصفًا لجريمتي بالكاد تعرفتُ عليه، ومع ذلك فقد صدّقته. جعل مني قاتلًا. وكنت لأوقّعه هنا من فوري لكن لم يكن معي ما أكتب به. بحثتُ حتى في ثيابي عن شيء حاد، دبوس أو شيء، حتى أخزّ نفسي به فيمكنني أن أخربش عليه توقيعي بدمي. لكن ماذا يهم. إنه لا يحتاج إلى تصديقي عليه. بوَرَع طويتُ الورقة إلى أربعة أرباع ودسَستُها تحت الفرش في النهاية حيث سيكون رأسي. ثم خلعت ثيابي ورقدت عاريًا في الظلال مربّعًا ذراعي على صدري مثل فارس رخامي فوق قبر، وأغمضتُ عينيّ. لم أعد نفسي. لا يمكن أن أفسر الأمر لكنه حقيقي. لم أعد أنا.

تلك الليلة الأولى في الأَسْر كانت مضطربة. نمتُ نومًا متقطعًا لم يكن نومًا حقيقة بقدر ما كان تقلبًا وانزلاقًا على سطح بحر قاتم. كنت أستشعر الأعماق من تحتي، الأعماق السوداء دون قرار. والساعة التي تسبق الفجر كانت، كالعادة، هي الأسوأ. استمنيتُ مرة بعد مرة – اغفر لي هذه التفاصيل المقززة – ليس من أجل المتعة حقيقة ولكن لأُجهد نفسي. وأي فريق صغير متنافر من الدُمَى استدعيتُه ليشاركني عمليات التدليك هذه. كانت دافني هناك طبعًا، وآنا بيرينز، مستمتعة ومصدومة قليلًا من الأشياء التي دفعتُها إلى فعلها، وثعلبة المسكينة هي الأخرى، وقد بكت في حضني من جديد بينما كنت – صامتًا ومختلِسًا في جنايتي – أضغطها وأضغطها إلى ذلك الباب في غرفة خيالي الخالية التي يضيئها القمر. لكن كان هناك أخريات كذلك ما كنت لأتوقع وجودهن. ابنة أخي مادج على سبيل المثال، هل تذكر ابنة أخي مادج؟

والفتاة الجسيمة ذات العنق الأحمر التي تبعتها عبر شوارع المدينة، هل تذكرها هي؟ وحتى، ليغفر لي الله، أمي والسائسة. وفي النهاية، بعد أن جئن وذهبن كلُّهن ورقدتُ أنا مفرّغًا على سرير السجن، عادتْ تتصاعد مني مجددًا مثل خيال مَهمّة حتمية وباهظة، صورة ذلك الباب المفتوح المعتم الغامض، والحضور الخفي فيه يتوق إلى الظهور، إلى أن يكون هنا. أن يعيش.

صباح الإثنين. آه، صباح الإثنين. الضوء الرمادي، الضجة، حس السرعة التي لا معنى لها ولكنها جبرية. أظنه سيكون صباح إثنين حين أُستقبَل في جهنم. أوقظتُ مبكرًا من جانب شرطي يحمل قدحًا آخر من الشاي وقطعة خبز. كنت أغفو، وكنت كأني في الحضن المُحكم لحيوان كبير كريه الرائحة. عرفتُ على الفور أين أنا، لم يكن ممكنًا أن أخطئ المكان. كان الشرطي شابًا، وَلَدًا ضخمًا برأس متناهي الصغر. حين فتحت عيني أولًا ونظرتُ إليه بدا شامخًا من فوقي يكاد يبلغ السقف. قال شيئًا غير مفهوم وذهب. جلستُ على جانب السرير ووضعتُ رأسي في يدي. كان فمي مقرفًا، وثمة ألم خلف عيني وإحساس متقلب في منطقة الحجاب الحاجز. تساءلتُ إن كان هذا الغثيان سيبقى معي بقية حياتي. سقط ضوء الشمس مائلًا وباهتًا عبر قضبان قفصي. كنتُ أشعر بالبرد. لففتُ بطانية حول كتفيّ وقرفصتُ فوق الدلو وركبتاي ترتعشان. وما كنت لأستغرب لو احتشد جمع في الممر ليضحك علي. ظللتُ أفكر: نعم، هكذا هو، هكذا ستكون الحال من الآن فصاعدًا. وكاد ذلك يكون مُرْضِيًا وإنْ بطريقة بشعة معقدة.

جاء الرقيب كانينغام ليصطحبني إلى أولى محاكم تفتيش هذا اليوم. كنتُ اغتسلتُ قدر ما استطعت على الحوض القذر في الزاوية. سألته إن كان يمكنني أن أستعير شَفرة حلاقة فضحك يهز رأسه من الفكرة، من مفارقتها. يظنني مرحًا حقًا. أُعجبتُ بلطف مزاجه فقد أمضى الليلة هنا. كانت ورديته تنتهي الآن. ودلفتُ وراءه أُمسك بنطلوني لأمنعه من السقوط. كانت صالة الانتظار تعجّ بنوع من الفوضى المكفهرة. آلات كاتبة تُطقطق وأجهزة لا سلكي تَنشِج دوريًا كمن يعاني من اللحميّة، تدخل وتخرج جموع بشريّة متكلّمة من فوق أكتافها أو

تقرفص أمام المكاتب تصرخ في سماعات الهواتف. أَلَمّت بالمكان سكتة وأنا أمر. لا، لم تكن سكتة بالضبط لكنْ هبوطًا في طبقة الصخب. كانت أخباري انتشرت على ما يبدو. لم يحدّقوا فيّ – لعل ذلك كان ليُعتبر غير مِهَنِيّ – لكنهم دقّقوا النظر مع ذلك. ورأيتُني في عيونهم مخلوقًا كبيرًا مشدوهًا مثل دُبّ راقص أتقدم متمايلًا في إثر البوط الحميم ذي الطرف الحديدي لكانينغام. فتح بابًا ووجّهني إلى داخل حجرة مربعة رصاصية. ثمة طاولة بسطح بلاستيكي ومقعدان. حسنًا، قال. سأراكَ. ثم غمز لي وسحب رأسه مغلِقًا الباب. قعدتُ بحرص. أدهشني مدى الهدوء الذي يمكنني الحفاظ عليه في جلوسي، وانتظاري. كان الأمر كما لو لم أكن كلي هنا، كأني انفصلتُ بطريقة ما عن وجودي الجسدي. كانت الحجرة أشبه بجوف جمجمة. يمكن لجلبة صالة الانتظار أن تكون آتية من كوكب آخر.

كان باركر وكيكام أول مَن وَصَلا. باركر اليوم يلبَس بدلة زرقاء قُصّت على شكل رُقَع عريضة هائلة، وكأنها ليست للارتداء وإنما لتخزين مجموعة من الأشياء، ربما الصناديق. كان أحمرَ الوجه والعرق يسيل منه بالفعل. كيكام يرتدي نفس السترة الجلدية والقميص الداكن اللذين جاء بهما أمسِ. لم يبد لي كرجل شديد حريص على تغيير ملابسه. أرادا أن يعرفا لمَ لم أوقّع الاعتراف. كنت نسيت أمره وتركته تحت الفرش لكني قلت، لا أعرف لمَ، إني مزّقتُه. مرت فترة أخرى من ذلك الصمت الجهوري بينما هما واقفان على رأسي يُطبقان قبضات أيديهما ويزفرون بثقل من مناخيرهم. كان الهواء يتموّج بالعنف المكبوت. إذاك خرجا معًا فتُركتُ بمفردي من جديد. القادم التالي كان أخًا مسنًا يلبَس ثياب خيالة من "التويل"[75] وقبعة صغيرة أنيقة،

مع شاب مفتول العضلات بعينين ضيقتين بدا وكأنه الابن الحردان للأكبر سنًا. وقفا عند عتبة الباب في الداخل ودقّقا النظر لوهلة طويلة وكأنهما بصدد قياسي لغرض ما. ثم تقدّم المفتش تويل وقعد قبالتي واضعًا ساقًا فوق ساق وخلع قبعته كاشفًا عن رأس أصلع ومسطح بدرجة كبيرة، شمعي ومندب بطريقة غريبة وكأنه لرضيع مريض. أخرج غليونًا أشعله بجدية مدروسة، ثم عاد وعَكَس وضْع ساقيه واعتدل في جلسته ليستريح أكثر ثم بدأ يسألني سلسلة من الأسئلة المبهمة أدركتُ بعد بعض الوقت أن المقصود من ورائها اكتشاف ما أعرفه عن تشارلي فرينش ومعارفه. جاوبتُ باحتراز قدر ما استطعت وأنا لا أعلم ما كانا يريدان معرفته مني، ولعلهما هما أيضًا لا يعلمان. ظللتُ أبتسم لكليهما لأُظهر كم أنا متعاون وطيّع. كان الأصغر سنًا، الواقف جنب الباب، يدوّن ملاحظات. أو على الأقل كان يتظاهر بأنه يكتب في دفتره، فقد اعتراني شعور غريب بأن المسألة كلها تمثيلية هدفها إلهائي أو ترويعي. كل ما حصل مع ذلك هو أني ضجرتُ – لم يكن بوسعي أن أحملهما محمل الجد – فتعثّرت وبدأتُ أناقض نفسي. بعد فترة بدا أنهما فَقَدا حماسهما كذلك، ومع الوقت غادرا. ثم جاء صديقي المفتش هازليت ينسل إلى داخل الحجرة بابتسامته الخجلى ونظرته المنحّاة. يا إلهي، قلتُ. مَن هولاء؟ الفَرع، قال. ثم قعد ينظر إلى الأرض ويطبّل بأصابعه على الطاولة. قلتُ: اسمع، أنا قلق، زوجتي، أنا... لم يكن منصتًا، لم يكن مهتمًا. أثار موضوع اعترافي. لماذا لم أوقّع؟ كان يتكلم بهدوء. أتعرف، قال. سيوفّر علينا الكثير من المشاكل. فجأة انتابتني نوبة غضب عنيف. لا أعرف ماذا أصابني. ضربتُ بقبضتي على الطاولة ووثبتُ واقفًا وصرختُ فيه بأني لن أفعل شيئًا، لن أوقع شيئًا، حتى

أحصُل على بضع إجابات. فعلًا قلتُ ذلك: "حتى أحصل على بضع إجابات"! على الفور تبخّر الغضب طبعًا، وجلستُ من جديد خزيانَ أعضّ مفاصل أصابعي. مرت حالة الضيق المصطنعة. قال هازليت بهدوء: زوجتك تركب الطائرة – ونظر إلى ساعة يده – في هذه اللحظة تقريبًا. حملقتُ فيه. ياه، قلت. أراحني الخبر بالطبع، لكنه لم يدهشْني. فطالما كنت أعرف أن السنيور ما–اسمه أكثر نبلًا من ألا يدعها تذهب.

كان الوقت ظهرًا حين وصل ميلشاخلين، مع أن مظهره كان منكوشًا كمن قام لتوه من السرير. دائمًا ما يبدو على هذه الحال. إنها صفة أخرى تقرّبه إلى القلب. أول ما لفت نظري هو إلى أي حد نحن متشابهان في جسمينا، زوج من الرجال الكبار الناعمين الجسام العِرضان الثقال. تأوّهتِ الطاولة بيننا حين ملنا عليها، وأصدر المقعدان صرخات قلق صغيرة تحت وطأة مؤخرتينا الخاملتين. أحببتُه على الفور. قال إني لابد وأني أتساءل مَن تَعَاقَد معه نيابةً عني فأومأتُ بشدّة، مع أن مِثل هذه الفكرة لم تكن جاءت في رأسي. صار كلامه مراوغًا إذاك، وتمتم شيئًا عن أمي وعَمَلٍ ما ادّعى أنه قام به لها في فترة غير مُحَدَّدَة من الماضي. سيمُر زمن طويل قبل أن أكتشف، لدهشتي وارتياعي غير القليل، أن تشارلي فرينش في الوقاع هو مَن رتّب كل شيء. إنه اتصل بأمي مساء ذلك الأحد ونَقَل إليها خبر اعتقالي، وقال لها أن تتصل على الفور بصديقه العزيز ميلشاخلين ماك غيلّا غُنّا، المحامي الشهير. تشارلز هو من دفع أيضًا، وما زال يدفع إلى الآن، أتعاب ماك. وهي ليست بهينة. يحوّل النقود عن طريق البنك عبر أمي – أو لعلها تلك الفتاة السائسة الآن – فيُرسلها كما لو كانت آتية من كولغرينج.

(آسف على أني أخفيتُ تلك التفصيلة عنكَ يا ماك، ولكن هذا ما أراده تشارلي.) أنت أدليتَ بنوع من الاعتراف – هكذا قال ميلشاخلين – أليس كذلك؟ أخبرتُه بأمر وثيقة كانينغام الرائعة. لابد أني تحمستُ في الحكي، فقد اسود جبينه وأغمض عينيه من وراء نظارته النصفية وكأنه يتألم ورفع يدًا ليُسكتَني. لن تُوقِّعَ شيئًا – قال – ولا أي شيء. هل جُننتَ؟ نكّستُ رأسي. قلتُ بهدوء: ولكني مذنب، أنا مذنب. فتظاهر بأنه لم يسمع. اسمعني، قال. اسمع. لن توقّع شيئًا، لن تقول شيئًا أو تفعل شيئًا. وسوف تقدِّم التماسًا تدفع فيه بالبراءة. فتحتُ فمي لأعترض، لكنه ما كان ليُقاطَع. سوف تدفع بالبراءة – قال – وحين أجد اللحظة السانحة ستغير التماسك وتُقِر بالذنب في تهمة القتل الخطأ. هل تفهم؟ كان يطالعني ببرود من فوق نظارته. (كان هذا في فترة مبكرة، قبل أن يُصبح صديقي.) هززتُ رأسي. قلتُ: لا يبدو هذا صوابًا. فأصدر ما يُشبه ضحكة. صحيح! قال، ولم يضف: يحق لك أنت أن تتكلم عن الصواب. صمتنا لحظة. أصدر بطني صوت أزيز. شعرتُ بالغثيان والجوع في نفس الوقت. بالمناسبة – قلت – هل تكلّمت مع أمي، هل هي آتية لتزورني؟ تظاهر بأنه لم يسمع. رفع أوراقه وخلع نظارته وضغط قَصَبَة أنفه. هل ثمة شيء أريده؟ الآن جاء دوري لأضحك متهكّمًا. أقصد هل ثمة ما يمكنني أن أجعلهم يأتونك به، هكذا قال بنبرة لوم متزمتة. شَفرة حلاقة، قلتُ. ويمكنهم أن يعيدوا إلي حزامي. لن أشنق نفسي. نهض ليذهب. فجأة أردتُ أن أحتَجِزه. قلتُ: شكرًا لكَ. وكانت نبرتي من الحرارة بحيث توقّف وحملق في بعيني بومة. تعمّدتُ قتلها، هل تعلم؟ – قلت – ليس عندي تفسير ولا عذر. فقط تنهّد.

أُحضرتُ إلى المحكمة في الأصيل. اصطحبني المفتّش هازليت وعسكريان بالزي الرسمي. كانت يدي حيث جرحتُها على شجيرة الورد تلوّثتْ والتهبت. أَيَا فريدريك، إنك لمريض. ذكراي لهذا الظهور الأول ضبابية بطريقة غريبة. كنت توقعتُ أن تكون قاعة المحكمة فخمة، شيئًا أشبه بكنيسة صغيرة بصفوف مقاعد من خشب السنديان وسقف منحوت وأجواء من الجلال والجدية. فأُحبطتُ حين اتضح أنها لا تزيد كثيرًا على غرفة مكتب بالية، من نوعية الأماكن التي تُصدَر فيها تصريحات لم يسمع بها أحد من جانب كَتَبَة غير أكفَاء. حين أُدخلتُ كان هناك فورة من النشاط العصبي حسِبتُها عملية الاستعداد العمومية لكنها كانت، كما اكتشفتُ لدهشتي، جلسة الاستماع نفسها. لا يمكن أن تكون دامت أكثر من دقيقة أو اثنتين. كان القاضي، وهو يلبس بدلة عمل عادية، شيخًا مرحًا بسالفين وأنف أحمر. سمعته، ولابد أنه ظريف سريع البديهة. فحين ثبّت عينه المرِحة علي وقال السيد مونتغومري اهتز المكان كله ضحكًا. ابتسمتُ بأدب لأريه أني من النوع الذي يُرحِّب بالنكتة حتى لو لم يفهمها. نخسني عسكري في ظهري فوقفتُ وقعدتُ ووقفت ثانيةً وكانت الجلسة انتهتْ. نظرتُ حولي باستغراب. شعرتُ بأن شيئًا قد فاتني ولابد. كان ميلشاخلين يلتمس خروجي بكفالة والقاضي "فيلدنغ" يهز رأسه برفق وكأنه يعنّف طفلًا جسورًا. آهِ، قال. لا، لا أظن يا سيدي. وأثار هذا هزة أخرى من التفكه في المحكمة. حسنٌ، أنا سعيد أنهم جميعًا مستمتعون إلى هذه الدرجة. كان العسكري الواقف ورائي يقول شيئًا لكني لم أستطع أن أركّز فقد كان في صدري إحساس ضَحل بغيض، وأدركتُ أني على وشك البكاء. أحسستُ بأني طفل، أو رجل عجوز جدًا. لامس ميلشاخلين ذراعي

فأشحتُ بوجهي عنه عاجزًا. قال العسكري، بدون فظاظة: هيا بنا الآن. وتخبطتُ وراءه. دار بي كل شيء. كان هازليت خلفي. لقد عرفتُ خطوته الآن. في الشارع اجتمع حشد صغير. كيف عرفوا مَن أنا، في أي محكمة سأكون، أو ساعة ظهوري؟ حين لمحوني أطلقوا صيحة خَشية ولَعنة، نوعًا من النحيب المُوَلوِل جعل جلدي يَنمَل. وكنت من الارتباك والخوف بحيث نسيتُ نفسي ولوّحتُ. لقد لوّحت لهم! يعلم الله ما ظننتني أفعل. لعلها كانت إيماءة استرضاء، إشارة حيوانية بالامتثال والانسحاب. لم تَزِدهم إلا غضبًا طبعًا. لوّحوا بقبضاتهم وعووا. واحد أو اثنان منهم كانا على وشك الانفصال عن البقية والهجوم علي. بصقتِ امرأة وسمّتني وغدًا وَسِخًا. أنا فقط وقفتُ أومئ وألوّح مثل دمية الساعة بضحكة مروَّعة ثابتة على وجهي. كانت هذه لحظة اكتشافي، لأول مرة، أني قتلتُ واحدة منهم. كانت أمطرت وأنا في الداخل، والآن سطعت الشمس من جديد. أتذكر الضوء الباهر على الطريق المبتلة، وغيمةً تختفي خلسة وراء السطوح، وكلبًا يحاذي الحشد الغاضب بنظرة قلقة في عينيه. دائما الأشياء العارضة كما ترى، الأشياء الصغيرة. إذاك أُلقِيَتِ البطانية علي ودُفعتُ إلى داخل سيارة الشرطة وأسرعنا بعيدًا وإطاراتنا تئز. هيي-هوو، هيي-هوو. في الظلام الساخن الصوفي بكيتُ حتى اكتفيت.

السجن. هذا المكان. لقد وصفتُه بالفعل.

كانت أولى زياراتي مفاجأة. حين أخبروني أنها امرأة توقعتُ أن تكون دافني وقد جاءت من المطار مباشرة، وإن لم تكن دافني فأمي.

وفي البداية حين دخلتُ حجرة الزيارة لم أتعرف عليها. بدت أصغر سنًا من أي وقت مضى في البلوفر الذي لا شكل له والتنورة ذات النقش المربع والحذاء العملي. كان لها المظهر الشاحب المنمش لتلميذة مدرسة لم تكتمل، بلهاء الفصل التي تبكي في عنبر النوم ليلًا وهي مجنونة بالأحصنة السيسية. وحده شَعرها الرائع ذو اللون المشتعل يعلن عن أنوثتها. "جيني"! قلتُ، فتورّد وجهها. كنت سعيدًا لرؤيتها بدرجة عبثية. تمتمتْ: جوان في الحقيقة. وعضّت على شفتها. ضحكتُ في إحراج. قلتُ: جوان، طبعًا. سامحيني، أنا مرتبك جدًا الآن. قعدنا. ابتسمتُ وابتسمتُ. شعرتُ بخفة تربو على الاستعداد للمداعبة. كان يمكن أن أكون أنا الزائر، أعزب عجوز من أصدقاء العائلة وقد جاء ليشاهد "الكتكوتة" في اليوم المفتوح لمدرستها. كانت أحضرتْ حقيبتي من كولغرينج. بدت لي غريبة، مألوفة ولكن أجنبية. وكأنها، منذ آخِر مرة رأيتها، خاضت رحلة ضخمة إلى كوكب آخر، إلى مجرة أخرى، بَدَّلتها. سألتُ عن أمي. كنت من الكياسة بحيث لم أسأل لمَ لمْ تأتِ. قولي لها إني آسف، قلت. وبدت العبارة سخيفة، وكأني أعتذر عن موعد أخلفتُه. وأشاح كل منا بوجهه عن الآخر خِلسة وصمتنا لوهلة طويلة مُحرجة. لي كُنية هنا بالفعل، قلت. يسمونني "مونتي" طبعًا. فابتسمتْ، وسعدتُ لذلك. حين تبتسم وتعض على شفتها هكذا، تكون أقرب إلى أنها الطفل من أي وقت آخر. لا يسعُني تصديقُ أنها حاكتْ مكيدة. أعتقد أنها اندهشتْ بقدر ما اندهشتُ حين قُرئت الوصية. من الصعب علي أن أراها كربّة لكولغرينج. ربما كان هذا ما قصدتْه أمي. ومن بَعدِها البلهاء. لكنّ ذلك ليس خليقًا بي، جدّيتي الجديدة هذه. أنا لا أكرهها لأنها حجبت عني إرثي. أعتقد أنها بطريقتها كانت تحاول أن تعلمني شيئًا،

تجعلني أنظر إلى الأشياء عن قرب أكثر ربما، أن أعير الناس مزيدًا من الاهتمام... مثلًا هذه الفتاة الخرقاء المسكينة بنَمَشها وضحكتها الخجلى وحاجبيها اللذين لا يكاد الواحد يراهما. إني أتذكر ما قالته دافني لي أمس من خلال دموعها، فقد انغرس في ذهني مثل شوكة: "لم تكن تعرف أي شيء عنا، ولا شيء!" هي على حق طبعًا. كانت تتكلّم عن أمريكا، عنها هي وآنا بيرينز وكل ذلك، لكنه حقيقي بشكل عام. لم أكن أعرف شيئًا. ومع ذلك فأنا أحاول. أُراقب وأُنصت، وأتمعّن. من حين إلى آخر يُتاح لي أن ألمح ما يبدو أنه عالم جديد وإن كنت أدرك أنه كان هناك منذ البداية دون أن أنتبه له. في هذه الاستكشافات يُعَدّ صديقي "بيلي" دليلًا قيّمًا. لم أذكر بيلي من قبل، أليس كذلك؟ لقد ألصق نفسه بي منذ وقت مبكّر. أعتقد أنه واقع في غرامي قليلًا. إنه في التاسعة عشر. عضلات وشعر أسود مدهون بالزيت، ويدا قاتل جميلتان مثل يديّ. من المقرَّر أن تبدأ محاكمتانا في نفس اليوم، وهو يعتبر ذلك بشارة خير. إنه متهم بالقتل والاغتصاب المتعدّد. ومصمم على أنه بريء وإن كان لا يستطيع أن يكتم ضحكة مذنبة صغيرة. ومع ذلك فإن نوعًا من البراءة يُشعّ منه، وكأن هناك شيئًا في جوفه، جزءً غاليًا متناهي الصغر، لا يمكن أن يُدَنّسه شيء. حين آخذ بيلي بعين الاعتبار أكاد أؤمن بوجود الروح. إنه يُحتجز دوريًا منذ كان طفلًا، وهو مُستودَعٌ لحكايات السجن. يُخبرني عن الطرق العبقرية المتنوعة لتهريب المخدرات، فمثلًا قبل أن تقام فواصل الزجاج كانت الزوجات والصديقات يخبّئن في أفواههن أكياسًا بلاستيكية صغيرة من الهروين يتم نقلها أثناء القبلات الطويلة فتُبتلع وتُقاء لاحقًا في المراحيض. لقد راقتْ لي الفكرة بشدة، وأثرّت فيّ بعمق. هذا الاحتياج والشغف،

الإحسان والتجاسر... متى عرفتُ أنا مثل هذه الأشياء؟

ماذا كنتُ أقول... لقد صرتُ غير واضح إلى حد بعيد. هذا يحصل معنا جميعًا هنا. إنه نوع من الدفاع، هذا الشرود المتسلل، الخمول الذي يتيح لنا أن نسقط لحظيًا، وفي أي مكان وأي وقت، في نوبات وجيزة وخَدِرَة من النوم.

جوان. جاءت تزورني، أحضرت لي حقيبتي. سعدتُ بالحصول عليها. كانوا صادَروا مُعظَم ما كان فيها، إدارة السجن، لكن كان هناك بعض القمصان وقالب صابون – داهمتْني رائحته العَطِرة كضربة – مع حذاء وكتبي. ضغطتُ هذه الأشياء، هذه الأيقونات، إلى صدري. وبكيتُ الماضي الفقيد.

لكنّ البكاء، ذلك النوع من البكاء يُعَدّ خطرًا كبيرًا هنا. إنه يوهن الإرادة. والذين يمتثلون له يصيرون عاجزين، يعتريهم خمول مُتلِف. إنهم أشبه بمنتحبين لن تنتهي مدة انتحابهم. لقد رأيتُ هذا الخطر وعزمتُ على تفاديه. سأعمل، سأدرس. كان موضوع دراستي موجودًا وجاهزًا. حملتُ دافني على مجيئي بكتب غليظة عن الرسم الهولندي، ليس فقط تاريخه ولكن أيضًا تقنياته، أسرار العمالقة. درستُ تقاريرَ عن طُرُق طحن الألوان، عن تجارة الزيوت والأصباغ، عن صناعة الكتّان في فلاندرز. قرأتُ سير الرسامين وداعميهم. صرتُ خبيرًا يافعًا في الجمهورية الهولندية خلال القرن السابع عشر.[76] ولكن في النهاية لم أُفِد شيئًا. فكل هذه الدراسة، هذه المعلومات، تراكمتْ وتحجّرت مثل المرجان يكسو حطام باخرة غارقة. كيف يمكن أن تُقارن الحقائق وحدها بالمعرفة المُذهلة التي اشتعلتْ فيّ وأنا واقف أحملق في اللوحة وهي ملقاة على حافتها في المصرف الذي أسقطتُها فيه؟ هذه المعرفة، هذا

العرفان، ما كنت لأتمكّن من الحياة به. أنظر إلى نسخة اللوحة المعلقة على الحائط فوقي هنا، لكنّ فيها شيئًا ميتًا. ثمة شيء ميت.

وقد صاحبتني نفس روح الاستكشاف المُجدّ وأنا أطالع ملفات الجرائد لساعات طويلة في مكتبة السجن. قرأتُ كل كلمة معنيّة بقضيتي، قرأتها وأعدتُ قراءتها. مضغتها حتى أصبحتْ عصيدة دون طعم في ذهني. تعرفتُ على طفولة جوزي بِل وأيامها – القليلة بشكل يدعو إلى الشفقة – في المدرسة، وعن عائلتها وأصدقائها. ذَكَرَها الجيران بالخير. كانت فتاة هادئة. وكانت أوشكت على الزواج ذات مرة لكن شيئًا ما فَسَدَ. ذهب خطيبها إلى إنجلترا ولم يرجع. في البداية عَمِلَت في قريتها كبائعة في محل ثم، قبل أن تذهب إلى وايتووتر، كانت في دبلن فترة حيث عملتْ مُنظّفة غُرف في فندق "ساذرن ستار". الساذرن ستارا يا إلهي. كان يمكن أن أذهب إلى هناك وأنا عند تشارلي، أن أستأجر غرفة وأنام في سرير هي ذات مرة رتّبته... ضحكتُ على نفسي. وماذا كنت لأتعلّم؟ ما كنتُ لأجد من أَثَرها هناك أكثر مما وجدتُ في مواد الجرائد، ولا ذلك اليوم حين استدرتُ ورأيتُها لأول مرة تقف في النافذة الفرنسية والصيف الأزرق-الذهبي من ورائها، ولا حين قرفصتْ في السيارة وضربتها مرة بعد مرة وتناثر دمها على الشباك. إن هذا أسوأ شيء، الخطيئة الجوهرية في اعتقادي، تلك التي لن تُغتفر أبدًا: أني لم أتخيلها بوضوح كاف، لم أجعل لها حضورًا كافيًا، لم أجعلها تعيش. نعم، إخفاق الخيال هذا هو جريمتي الجوهرية، التي مكّنت كلَّ الجرائم الأخرى. إن ما قلتُه للشرطي حقيقي. قتلتُها لأني أستطيع أن أقتلها، وكنت أستطيع أن أقتلها لأنها بالنسبة إلي لم تكن حية. هكذا أصبحتْ مَهمّتي الآن أن أعيدها إلى الحياة. لستُ متأكدًا مما يعنيه ذلك، لكنه يعتريني بقوة أَمْرٍ لا رجعة

فيه. وكيف لي أن أحقّقها، عملية الولادة هذه؟ هل لابد من تخيلها منذ البداية، منذ كانت رضيعة؟ إني حائر ومتحمس بطريقة غريبة. يبدو أني اكتسبتُ وزنًا وكثافةً جديدين. أشعر بالبهجة وفي نفس الوقت بجِدّية خرافية. أنا حامل بالاحتمالات. وأعيش من أجل اثنين.

لقد قررتُ ولن ينحّيني شيء. سأُقر بالذنب في تهمة القتل من الدرجة الأولى. أعتقد أن هذا هو الصواب. حين أخبرتُ دافني انفجرتْ في البكاء على الفور. وأنا ذُهلتُ، ذهلتُ وروّعني أمرها. ماذا عني أنا، صاحت. ماذا عن الصغير؟ وقلت لها بقدر ما استطعتُ من الهدوء إن اعتقادي أني دمّرتُ حياتهما فعلًا وأن أفضل ما يمكنني أن أفعله هو أن أبتعد عنهما لأطول وقت ممكن – للأبد حتى – فأعطيها فرصة أن تبدأ من جديد. لم يكن هذا فيما يبدو كيّسًا فقد بكت وبكت وهي جالسة هناك خلف الزجاج تقبض على منديل مبلل وكتفاها يهتزان. إذاك خرج كل شيء. الغضب والخزي. لم أتبيّن نصف الكلام من نشيجها. كانت تُراجِع السنين. ما فعلتُه، وما لم أفعله. كم كان قليلًا ما عرفته، كم كان قليلًا ما فهمته. جلستُ وحملقتُ فيها مشدوهًا وفمي مفتوح. لم أقوَ على الكلام. كيف كان يمكن أن أُخطئ بشأنها طوال هذا الوقت؟ كيف يمكن ألا أكون رأيتُ أن وراء تكتّمها كل هذا الانفعال والألم؟ كنتُ أفكر في مَشْرَبٍ مررتُ به متأخرًا أثناء إحدى جولاتي الليلة في الأسبوع السابق على احتجازي. كان ذلك في – لا أعرف – "ستوني باتر"[77]، مكان مثل ذلك، مشرب للطبقة العاملة بشَبَك من الصُلب موضوع فوق الشبابيك للحماية وبقع قيء قديمة حول الباب. بينما أمر، ترنح سكّير خارجًا، وللحظة قبل أن يرتد الباب مغلقًا التقطتُ

نظرة إلى الداخل. واصلتُ السير دون توقف أحمل المشهد في رأسي. كان أشبه بعمل لـ"يان ستين"[78]: الضوء المدخَّن، زحمة الشاربين ذوي الوجوه الحمراء، العجوز القائم على البار، المرأة السمينة التي تُغنّي كاشفة عن ملء فمٍ من الأسنان المكسّرة. واعتراني نوع من الذهول البطيء، نوع من التحيُّر والفجيعة حول مدى شعوري بالاستبعاد من ذلك العالم البسيط القبيح الضاجّ. وهكذا يبدو أني أمضيتُ حياتي، أمرّ بأبواب مفتوحة صاخبة وأواصل مَسيري إلى جوف الظلام. ومع ذلك فهناك أيضًا لحظات تُشعرني بأني لستُ ضائعًا بالكامل. منذ أيام مثلًا، في طريقي إلى جلسة إعادة أخرى في المحكمة، كان رفيقي في عربة الشرطة مُدمِن نبيذ شائخ اعتُقل ليلة أمس كما أخبرني لأنه قتل صديقه. لم يكن بإمكاني تخيل أن له صديقًا، دعك من قتله. حدّثني باستفاضة بينما نحن نتدحرج إلى الأمام، مع أن أكثر ما قاله لا يُفهَم. كان له عين مُدماة، وتقرُّح هائل يقطر على فمه. تطلعتُ عبر الشباك ذي القضبان إلى شوارع المدينة تمر من جنبي، محاولًا قصارى جهدي أن أتجاهلها. ثم، وبينما نجتاز انحرافًا حادًا، وقع من فوق مقعده علي، ووجدتُني أحمل الوحش العجوز بين ذراعيّ. كانت الرائحة لا تُطَاق طبعًا، وكان للأسمال التي يلبَسها ملمس زلق جعلني أُطبق أسناني بعضها على بعض، ولكني ظللتُ أحمله ولم أدعه يسقط على الأرض، وحتى – أنا أزوّق الآن بالتأكيد – أظنني حتى قبضتُه إلي للحظة في إيماءة... لا أعرف، إيماءة تعاطف أو رفقة أو تضامن، شيء من هذا من القبيل. نعم، مستكشف. هذا أنا. ألمح قارة جديدة من مقدّمة سفينة تغرق. ولا تخطئ فهمي، أنا لا أتخيل لوهلة أن مثل هذه الأحداث، غزوات العالم الجديد هذه، ستُسقِط عني من الإحساس

بالذنب ذرّةً واحدة. لكن ربما تَدلّ على شيء ما في المستقبل.

هل ينبغي أن أدمّر تلك الفقرة الأخيرة؟ لا، ماذا يفرق، دعها تبقى.

جاءتني دافني بأحد رسوم فان. علّقتُه على الحائط هنا. إنه بورتريه لي، تقول. قَدَم واحدة حنفاء، أصابع كالسجق، عين عملاق من ذوي العين الواحدة. إنه شبه كبير في الحقيقة، حين أفكر في الأمر. جاءتني أيضًا بخبر مذهل. لقد دعتها جوان هي والصغير لتأتي وتعيش في كولغرينج. وسوف يقيمان في البيت معًا، زوجتي والفتاة السائسة. (يا لِلطرافة التي تتحايل بها الأشياء على صنع ما يشبه نهاية!) لستُ منزعجًا، وهو ما يُدهشني. الظاهر أنه من المقرر أن أعيش هناك أنا أيضًا حين أخرج. يمكنني أن أرى نفسي فعلًا – ياه – ببوط مطاطي وقبعة، أعمل وسط وَسَخ الإصطبل. لكني لم أقل شيئًا. دافني المسكينة. فقط لو... أي نعم، فقط لو.

لقد ارتعب ميلشاخلين هو الآخر حين أخبرتُه بقراري. لا تقلق، قلت. سأقر بالذنب، لكني لا أريد أي تنازلات. لم يستطع أن يفهم الأمر، ولم يكن عندي الطاقة لأشرح. إنه ما أريده، هذا كل شيء. إنه ما لابد لي من فعله. كانت باخرة "أبولو" أبحرتْ إلى "ديلوس"[79]، ومؤخرة السفينة يكلّلها الغار. علي أن أقضي مدتي. بالمناسبة يا ماك – قلت – أنا مدين لتشارلي بصحن. لم يفهم النكتة، لكنه ضحك على أي حال. وقلت: لم تكن ميتة، أتعرف، حين تركتها. لم أكن من الرجولة بما يكفي لأُريحَها. كنت لأفعل مثل ذلك من أجل كلب. (هذا حقيقي أيضًا... ألا نهاية للأشياء التي علي الاعتراف بها؟) أومأ محاولًا ألا يُظهر اشمئزازه أو لعلها الصدمة التي كان يحاول إخفاءها. أناس قويو الاحتمال، قال. لا يموتون بسهولة. ثم جمّع أوراقه واستدار ليذهب. تصافحنا. بدا أن

المناسبة تستحق إيماءة رسمية صغيرة مثل هذه.

آه، بالمناسبة، الحبكة الدرامية. كادتْ تروح من بالي. لقد اشترى تشارلي فيرنش لوحات أمي بثمن رخيص وباعها لبينكي بيرينز غاليًا، ثم اشتراها من بينكي بيرينز بثمن رخيص وباعها لماكس مولينو غاليًا. شيء من هذا القبيل. هل يفرق في شيء؟ أفعال سوداء، أفعال سوداء. كفى.

الوقت يمر. أنا آكل الوقت. أتخيلني يرقة من نوع ما، بهدوء ومنهجية أستهلك المستقبل، ما يسميه العالم في الخارج المستقبل. لابد أن أحترس من الامتثال لليأس، لعجز الإرادة نفسه الذي دائمًا ما كان يهدّد كل شيء أحاول أن أُنجزه. لقد طالَ تحديقي في الهاوية حتى أني أحيانًا ما أشعر بأن الهاوية هي التي تحدق في[80]. تمر علي أيام حلوة، وأيام مُرّة. أفكر في الوحوش الذين وضعتْني جريمتي في صفهم، القتلة والجلادين والبهائم القذرة الصغيرة التي تقف وتتفرج على هذه الأشياء وهي تَحصُل، وأتساءل ما إذا كان الأفضل ببساطة أن ينتهي كل شيء. لكنّ عندي مَهمتي، مُدتي. اليوم في الورشة التقطتُ رائحتها، خافتة وحادة، معدنية، لا تُخطَأ. إنها رائحة مادة تلميع المعادن. لابد أنها كانت تعتني بالفِضّة في ذلك اليوم. وكم سعدتُ حين تعرفت عليها! بدا أي شيء ممكنًا. بدا حتى أني يمكن أن أصحو ذات يوم لأُبصر طفلة، فتاة تتقدّم من غرفة معتمة إلى إطار ذلك الباب الموجود في ذهني دائمًا الآن، أتعرف عليها على الفور وبلا أي شك.

إنه الربيع. حتى هنا نحسها، الحياة التي تدب في الهواء. لدي بضعة نباتات في شباكي، ويروق لي أن أراقبها وهي تتغذى على الضوء.

ستُحبَط الجرائد. فكرتُ في محاولة نشر هذا الشيء، شهادتي. لكن لا. طلبتُ من المفتش هازليت أن يضعَه في ملفي جوار الخرافات الرسمية الأخرى. جاء يزورني اليوم في زنزانتي. أمسك بالأوراق، وزنها في يديه. كان المقصود منها أن تكون دفاعي، قلتُ. فحدجني بنظرة عابسة. وهل أدخلتَ فيها كونك عالِمًا، وكونك عرفتَ امرأة آل بيرينز، وكونك مدين بنقود، كل هذه الأشياء؟ ابتسمتُ. إنها حكايتي – قلتُ – وأنا ملتزم بها. فضحك من ذلك وقال: قل لي يا فريدي، أي قدر منها حقيقي؟ كانت هذه أول مرة يدعوني فيها باسمي. حقيقيٌّ، يا حضرة المفتش؟ قلت. كل ما فيها. لا شيء فيها. الخزي فقط.

الهوامش

١ يرجّح أن في هذا الاسم إشارة إلى همبرت همبرت بطل رواية لوليتا لفلاديمير نابوكوف (١٩٧٧-١٨٩٩)، وهو عقلية إجرامية ذات رقي وثقافة كبيرين، وفي لحظة يسمي نفسه جان-جاك همبرت في نَصّ الكتاب.

٢ كعكة إسفنجية مغطاة بالمرزبان (عجين اللوز) ولها لونان على شكل أربع مربعات من الداخل.

٣ البيسة اسم دارج للهروين في أكثر من بلد عربي، والكراك هو كوكايين مُعد للتدخين.

٤ في الأساطير اليونانية، دافني هي إحدى حوريات الماء (النيادات) وقد حولت نفسها إلى شجرة غار حين تتبعها الإله أبولو وقد أسره جمالها (راجع معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة).

٥ شراب فرنسي بنكهة اليانسون يتغير لونه بإضافة الماء، أشبه بالعرق والأوزو.

٦ ستيلا ماركة بيرة والبيرنو شراب فرنسي هو نوع من الشراب بنكهة عشبة الأبسنتين.

٧ غرب الولايات المتحدة الخارج على القانون، أرض الكاوبوي كما صوّرتها أفلام الوسترن.

٨ الإشارة إلى اللوحة الشهيرة لفينسنت فان غوخ (١٨٩٠-١٨٥٣) التي صور فيها بروفيله بعدما قطع أذنه وقدمها هدية لإحدى المومسات اللاتي يتردد عليهن.

٩ تعبير أوروبي يعود إلى عصر النهضة عن اليوتوبيا أو الجنة الريفية، وهو عن اسم إحدى مناطق اليونان.

١٠ حوريات ديونيسوس إله الخمر والخصب والطبيعة اللاتي يصاحبنه في جولاته الاحتفالية.

١١ داء نفساني يدفع المريض إلى تكرار كلمات أو عبارات دون معنى أو قصد، عادة ما يكون سمع شخصًا آخر يقولها، والمعنى الحرفي للكلمة هو صدى الكلمات.

١٢ الإشارة إلى من وُلِدوا في الستينيات في أمريكا بالذات لآباء من الهيبيز الداعين إلى السلام وحرية الحب والمروجين للمخدرات المسماة عقاقير الهلوسة.

١٣ اسم دُمية أطفال شهيرة لشخصية خيالية إفريقية يُتفق الآن على أنها كانت ذات توجُّه عنصري.

١٤ لقب كان يُمنح للطبقة الدنيا من نبلاء الإسبان وقد صارت الكلمة تعني نبيل أو ابن ناس في البلاد المتحدثة بالإسبانية.

١٥ فنان النهضة الإسبانية يوناني الأصل الشهير، اسمه الحقيقي دومينيكوس ثيوتوكوبولس (١٦١٤-١٥٤١).

١٦ كلاريت في الأصل الإنجليزي، وهو النبيذ الأحمر الذي تُنتجه مقاطعة بوردو الفرنسية.

١٧ خشب فصيلة ماليزية من النخيل تُصنع منه العصي.

١٨ الموالون لبريطانيا من غير البروتستانت، وهم أقلية مرفّهة من الأيرلنديين.

١٩ دن لايره ضاحية ساحلية في دبلن، كانت تسمى دنليري (وهو تحريف إنجليزي للفظة الأيرلندية) إلى أن سُمّيتْ كينغستاون احتفالًا بزيارة الملك جورج الرابع سنة ١٨٢١، واستردت اسمها الأيرلندي سنة ١٩٢٠.

٢٠ رسام ومؤلف إنجليزي (١٨٩٨-١٨٧٢) معاصر للأيرلندي الشهير أوسكار وايلد (١٩٠٠-١٨٥٤)، تأثر بالفن الياباني وساهم في التأسيس لمدرسة الآر نوفو قبل أن يموت صغيرًا بداء السُلّ.

٢١ الإشارة إلى جيل دو ري (١٤٤٠-١٤٠٥) رفيق سلاح جان دارك الذي اعترف بقتل عدد كبير من الأطفال وصار مثالًا على الوحشية في المحكيات.

٢٢ راعي خنازير أوديسيوس الذي ذهب إليه البطل إثر عودته متنكرًا في هيئة شحاذ ليعرف منه ما جرى في غيابه (راجع معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة).

٢٣ نسيج صوفي خشن كثيرًا ما يكون عليه نقش مربع يعود في الأصل إلى اسكتلندا وأيرلندا وهو مقترن بكبار السن والتقليديين.

٢٤ البروغ حذاء بجلد مخرّم والكلمة أصلًا تصف حذاء من الجلد غير المدبوغ في اسكتلندا وأيرلندا. والتريلبي قبعة ناعمة من اللباد بحزّ ضيق ورأس منبعج.

٢٥ ابن أخيل وهيلينا المُجنّح ومن ثم القادر على الطيران، وأبوه أول مقاتلي حرب طروادة وبطل الإلياذة الشهير بسرعته (راجع معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة).

٢٦ الإشارة إلى الدور الذي لعبته مارغريت ويتشرلي في الفيلم البوليسي وايت هيت إخراج راوول والش وإنتاج سنة ١٩٤٩، وهي أم رئيس العصابة كودي جاريت (تمثيل جيمز كاغني) وخليصته، وتعرف باسم ما أو ماما جاريت.

٢٧ فصيلة من الأحصنة السيسية تعود إلى منطقة جبلية ساحلية من أيرلندا بهذا الاسم.

٢٨ وليام الثالث (١٦٥٠-١٧٠٢) ملك إنجلترا وسكتلدنا وأيرلندا، حيث يُعرف باسم كينغ بيلي وهي كنية وليام)، وهو أيضًا أمير أورانج والقيم على هولندا.

٢٩ حرير منسوج بلونين بحيث يلمع ويتغير لونه بحسب زاوية الضوء.

٣٠ الفنان الفرنسي الشهير أوندي دو تولوز-لوتريك (١٨٦٤-١٩٠١)، أحد أعمدة الحركة ما بعد التأثُّرية، وقد اشتهر بتصوير حياة الليل في باريس.

٣١ فيل ما قبل تاريخي له فرو ونابان هائلان، انقرض في العصر الجليدي.

٣٢ براندي التفاح وتعود أصوله إلى نورماندي في فرنسا.

٣٣ قارن بعبارة أوسكار وايلد: وحدهم الضحّال لا يأخذون بالظاهر.

٣٤ نسيج ناعم كان في الأصل من الصوف.

٣٥ بيوت الأثرياء خاصة القديم منها في بريطانيا وأيرلندا تُعامل كمزارات سياحية وإن كان أصحابها يسكنونها.

٣٦ فنان عصر النهضة الإيطالي (١٥١٨-١٥٩٤) المنحاز لمدرسة فينيسيا، اسمه الأصلي جاكوبو كومين، وبعض أهم أعماله مشاهد دينية بما في ذلك الشهداء.

٣٧ ريتشارد باركس بوننغتون (١٨٠٢-١٨٢٨) رسام مناظر طبيعية إنجليزي عاش في فرنسا منذ عامه الرابع عشر.

٣٨ جان-أونوري فراغونار (١٨٠٦-١٧٣٢) فنان الروكوكو الفرنسي الشهير.

٣٩ أنطوان واتو (١٧٢١-١٦٨٤) فنان فرنسي ذو مساهمات قيمة في مدرستي الباروك والروكوكو.

٤٠ طريقة إنجليزية لتذهيب النحاس الذي يزوّق به الأثاث.

٤١ باب زجاجي أشبه بشباك يصل إلى الأرض عادة ما يفضي إلى حديقة.

٤٢ الأثاث الفرنسي (ومن ثَمّ الأوروبي) في الفترة بين ١٧٧٤-١٧١٥، عهد ولاية لوي الخامس عشر وعشيقته مادام بومبادور، ويمتاز بخفة الوزن وكثرة الحلي اللولبية واللاتناسب.

٤٣ غوستاف كليمت (١٩١٨-١٨٦٢) الفنان النمساوي الشهير صاحب لوحة القبلة.

٤٤ نبيذ مقوى تعود أصوله إلى البرتغال، ومن ثَم اسمه.

٤٥ المقصود بالسجق الأسود هو البلاك بودنغ وهو سجق يُصنع من دم الخنزير المجفف مع الشحم والحبوب.

٤٦ معطف طويل واق من المطر من القماش المغطى بالمطاط، وقد سُمي باسم مخترعه السكتلندي تشالز ماكيينتوش (١٨٤٣-١٧٦٦).

٤٧ قماش كان في الأصل من الصوف منسوج بنقش من الخطوط المتعارضة بألوان مختلفة تدل على انتماء من يرتديه إلى منطقة أو عشيرة في أيرلندا أو اسكتلندا خاصة شمال اسكتلندا أو الهايلاندز (الرّيف)، وهو ما يُصنع منه الكيلت أو ثوب الرجال الذي يُلَف على القسم الأسفل من الجسد بحيث يشبه التنورة.

٤٨ كيرن في الأصل الإنجليزي وهو عضو في سلاح المشاة الخفيفة في أيرلندا العصور الوسطى.

٤٩ فطيرة فرنسية على شكل قمع مضلّع وفي مركزه قبة صغيرة.

٥٠ هذه اللوحة حقيقية والمعلومات المذكورة عنها صحيحة. رمبرانت فان راين (١٦٦٩-١٦٠٦) الفنان الهولندي أحد أهم الأسماء في تاريخ الفن على الإطلاق. يوهانس فيرمير (١٦٧٥-١٦٣٢) أيضًا من أشهر فناني الباروك في الجمهورية

الهولندية، تخصص في المشاهد الداخلية لأرباب الطبقة الوسطى. كذلك فرانس هالس (١٦٦٦-١٥٨٢) أحد أهم فناني العصر الذهبي الهولندي أيضًا، واشتهر بالبورتريهات.

٥١ مارتان كارلان (١٧٨٥-١٧٣٠) مصمم وصانع الأثاث الفرنسي الأشهر يتزين الأسطح بالبورسلين، وقد حاز لقب معلم إبينيست أو كبير صناع الخزانات في باريس. وفرديناند بيرتو (١٨٠٧-١٧٢٧) صانع الساعات الأشهر، وقد حاز لقب كبير صناع الساعات سنة ١٧٥٣. والواضح أن هذه مقتنيات أصلية قيمة جدًا.

٥٢ الثالوث (المقدس) والإشارة إلى ترينيتي كوليدج دبلن أقدم جامعات أيرلندا.

٥٣ شراب كحولي حلو بنكهة النعناع.

٥٤ بطلة تراجيديا شكسبير الشهيرة ماكبيث (١٦٢٣).

٥٥ هايبرنيان وجاميت من أشهر محافل المقتدرين في دبلن. كوراخ أرض فضاء ضخمة معروفة بتربية الخيل شرقي أيرلندا. أما شيلبورن ففندق عريق في وسط المدينة.

٥٦ الإشارة إلى الفيلسوف الشهير أرتور شوبنهاور (١٨٦٠-١٧٨٨)، وهو قائل العبارة.

٥٧ فصيلة كلاب تعود أصولها إلى الصين بوجه مجعّد وخطم قصير تشبه البولدوغ.

٥٨ خشب السنديان وقد دُفن في الرخاخ (الأرض الرطبة الغنية بالمواد النباتية) فحفظته من التعفن.

٥٩ نبيذ من مقاطعة بهذا الاسم في فرنسا.

٦٠ بينيلوبي زوجة أوديسيوس التي انتظرته عشرين عامًا تصدّ خلالها خطابها فعُدّت مثالًا للوفاء الزوجي (راجع معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة).

٦١ ماركة مياه معدنية فوارة من ألمانيا.

٦٢ شخصية القاتل المغتصب في الرواية التي لم تكتمل رجل دون صفات للكاتب النمساوي-الألماني روبرت موزيل (١٩٤٢-١٨٨٠) وقد بدأ كتابتها سنة ١٩٢١ ولم يكملها قبل وفاته.

٦٣ وليام هوغارث (١٦٩٧-١٧٦٤) الفنان ورسام الكاريكاتور الإنجليزي.

٦٤ كلب صيد بريطاني متحدّر من الفصيلة السلوقية يمتاز بالسرعة والخفة فضلًا عن الرشاقة، وهي فصيلة تشارك في رياضات عدّة بما في ذلك سباقات العدو.

٦٥ شخصية المجرم الذي يرسل عصابة من الأطفال ليمارسوا النشل في الشوارع مقابل إيوائهم في رواية تشارلز ديكينز (١٨١٢-١٨٧٠) أوليفر تويست (١٨٣٩).

٦٦ الإشارة إلى الرواية القصيرة الحالة العجيبة للدكتور جيكل والسيد هايد (١٨٨٦) لروبرت لوي ستيفنسون (١٨٥٠-١٨٩٤)، وهي قصة رجل بشخصيتين إحداهما طيبة ومتحضرة والثانية مجرمة ووحشية.

٦٧ ميوز في الأصل، وهي مساكن توجد في أنحاء بريطانيا وأيرلندا هي إما إصطبلات قديمة يعاد توظيفها أو معمار سكني يحاكي الإصطبلات القديمة.

٦٨ حبيبة فاوست في مسرحية غوته الشهيرة (١٨٣١)، وتمتاز بالبراءة في مقابل إجرامه.

٦٩ القطع الصغير، وهي جرائد الصحافة الصفراء.

٧٠ الباينت نصف لِتر بالتقريب.

٧١ مطعم آخر شهير في دبلن.

٧٢ جزيئات الضوء.

٧٣ من شخصيات سلسلة حكايات غريفرايرز سكول أو مدرسة غريفرايرز للكاتب الإنجليزي تشارلز هاميلتون الذي كان يوقعها باسم فرانك ريتشاردز (١٩٦١-١٨٧٦)، والتي تدور أحداثها في مدرسة داخلية متخيلة. بوب تشيري أحد الطلاب والسيد كيلتش مدرس معروف بصرامته. اسما بانتر ووالي أيضًا يردان في هذه القصص.

٧٤ كلمة كانينغ بالإنجليزية تعني المخادع.

٧٥ نسيج بسطح قطري ناتئ.

٧٦ فلاندرز هو القسم الشمالي من بلجيكا حيث تُستخدم اللغة الهولندية، والجمهورية الهولندية هي كونفيدرالية قامت في المساحة الحالية لهولندا في الفترة بين ١٥٨١-١٧٩٥.

٧٧ أحد أحياء دبلن.

٧٨ فنان هولندي (١٦٢٦-١٦٧٩) ينتمي إلى العصر الذهبي، عُرف بمشاهد الحياة اليومية ذات الطابع المسرحي.

٧٩ أبولو أحد آلهة الإغريق الكبار (وهو من دفع دافني إلى التحول إلى شجرة غار ومن وقتها وقد تبنى أبولو الغار كذكرى مقدسة لها) وديلوس مسقط رأسه، ولعل المقصود بعودته إليه أن الأمر قد قضي (راجع معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية لأمين سلامة).

٨٠ العبارة من كتاب ما وراء الخير والشر (١٨٨٦) للفيلسوف الشهير فردريش نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠): ليحذر مَن يحارب الوحوش من أن يتحول إلى وحش. ومن يحدق في الجحيم طويلًا فإن الهاوية هي التي ستحدق فيه.

جون بانفيل، روائي ومحرّر أدبي أيرلندي، وُلد في ويكسفورد عام 1945. يكتب تحت اسم آخر (بنيامين بلاك) روايات مختلفة عن تلك التي يكتبها باسمه الأوّل. له قُرابة الأربع عشرة رواية، من بينها كتاب الشهادة (1989) وكسوف (2000) والمنبوذ (1997) والبحر (2005)، وهو المرشّح الأيرلندي الأكثر بروزاً لنيل جائزة نوبل للآداب. نال جائزة مان بوكر، وفرانز كافكا، وغيرها كثير. لطالما قورنَت كتابات بانفيل بنصوص ألبير كاموس ودوستويفسكي، وأنه "الوريث الشرعي لبروست من خلال نابوكوف". يعيش مع زوجته وأبناءه في دبلن.

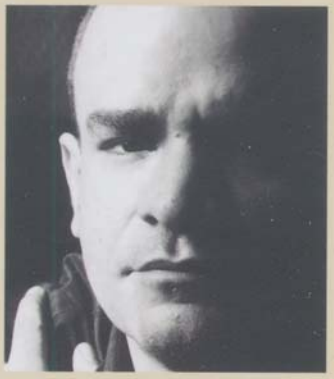

يوسف رخا روائي وشاعر وصحفي مصري يكتب بالعربية والإنكليزية. تخرج في جامعة هل إنكلترا عام 1998. رُشّح كتابه "بيروت شي محل" لجائزة لتر يوليسيس للريبورتاج الأدبي عام 2006. اختير كأحد أفضل كُتّاب العربية تحت 40 عاما في فعاليّة "بيروت ٣٩" عام 2010. حازت أولى رواياته "كتاب الطغرى" على جائزة سيف غباش بانيبال عن ترجمة بول ستاركي (2015). رُشّحت آخر رواياته "باولو" في القائمة الطويلة للبوكر العربية كما حازت على جائزة ساويرس لأفضل رواية في فرع كبار الأدباء (2017).

كتاب الشهادة

«حين أقول إنها لم تكن طيبة لا أقصد أنها كانت شريرة أو فاسدة. إن عيوبها لا تُذكر مقارنة بالشروخ الحادة التي تقطع روحي بالعرض. فأقصى ما يمكن أن يتّهمها الواحد به هو ضَرْب من الكَسَل الأخلاقيّ. ثمّة أشياء لم تكن تُكلّف نفْسها القيام بها مهما كان حس الالتزام ليدفع بتلك الأشياء في وجه تركيزها المتآكِل. لقد أهملتْ وَلَدَنا، ليس لأنها لا تحبّه- بطريقتها - ولكنْ لأنّ احتياجاته لا تجذب انتباهها. وكثيراً ما كنت أضبطها جالسة على كرسي تتطلع إليه وفي عينيها تعبير مَن ينظر إلى شيء من بعيد، وكأنّها تحاول أن تتذكّر مَن أو ماذا يكون بالضبط، وكيف انتهى به الأمر هنا قرب قدميها يتدحرج على الأرض في وَسَخِه.»

يعود إلى وطنه ليستعيد لوحة فنيّة نادرة ورثها عن أبيه، لكنه يُقدم بأعوامه الثمانية والثلاثين على جريمة مروّعة دون مبرّر أو قصد، وهو يروي تفاصيل ما حدث له على مسامع القضاء في شهادة أدبيّة من الفخامة بمكان، هي الرواية كلّها.

«كتاب الشهادة عمل أدبي جديد ومهم، حيث اللحظات الرّقيقة كلّها تتفجّر في هدوء لتكشف ومضة بعد أخرى دواخل المُجرم»
دون ديليلو

«ها هنا رواية مُقلقة رغم قِصرها، كأن من اصطادها وجدها في الجحيم»
نيويورك تايمز بوك ريفيو

جون بانفيل مرشّح لنيل جائزة نوبل للآداب

القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر 1989

Portrait of a Woman (oil on canvas), Hals, Frans (1582/3-1666) / Louvre, Paris, France / Bridgeman Images
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-39-153-1

روايات
REWAYAT